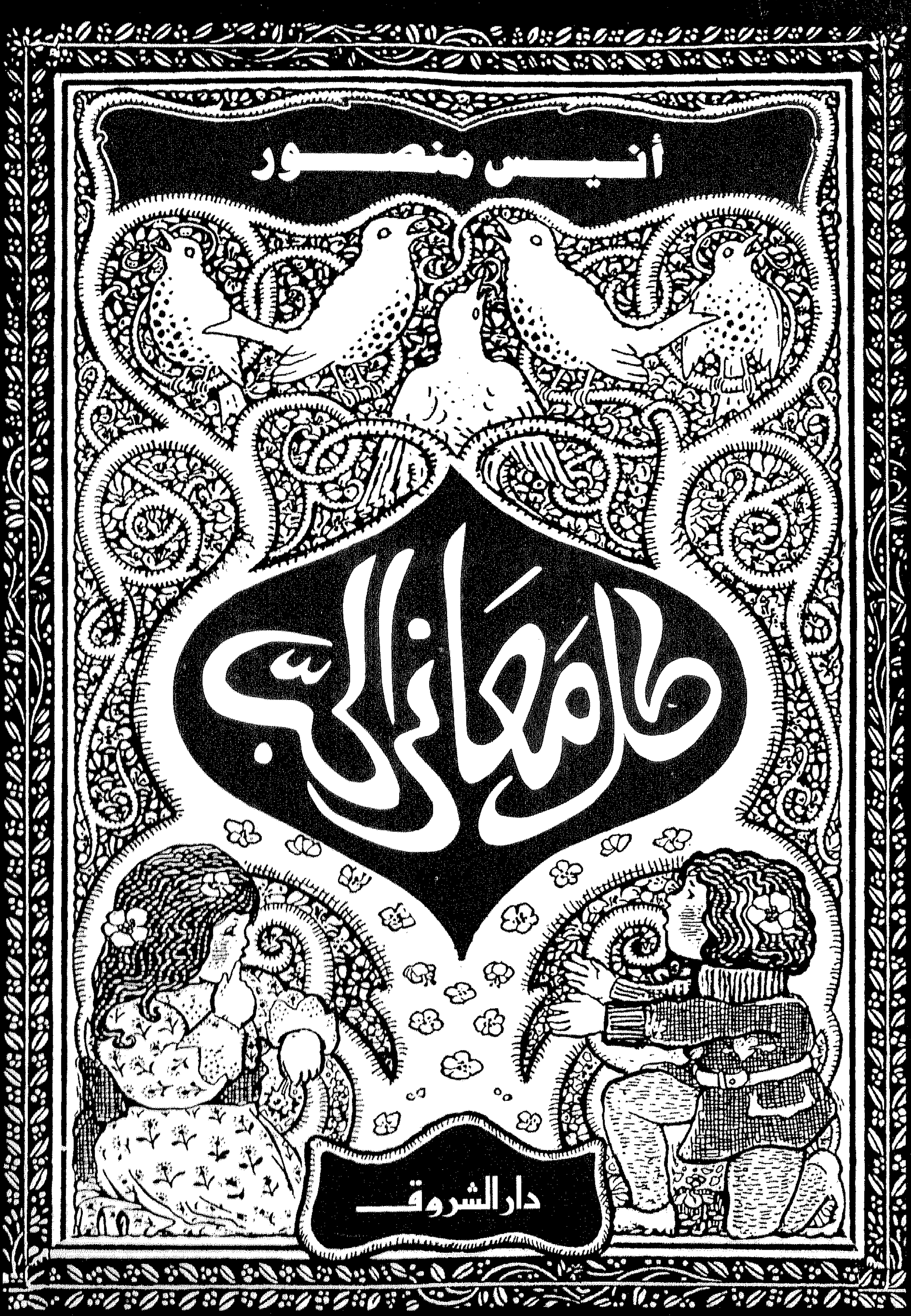


أنيس منصور
يا معاني الحب
دار الشروق

[illegible]

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنيس منصور



دار الشروق

كلمة أولى:
ولكنى أحاول دائماً ..

- ١ -

الورق الأبيض والأصفر أمامى . . والحروف والكلمات والسطور تتخذ شكلا ملتويا انسيابيا ، ولا أعرف كيف . . كيف تتحول أفكارى إلى ذراعى إلى أصابعى إلى الحبر الأسود على الورق . . كيف أن قلمى امتداد لأصابعى . . وأصابعى امتداد لذراعى وذراعى ينقل أفكارى وينقلنى إلى الورق . . ثم لا أشغل نفسى بالإجابة عن هذا السؤال ولكنى أمضى . . أى أننى أؤجل السؤال والإجابة إلى ما بعد . . وقد يجىء « مابعد » وقد لا يجىء . . ولكن هناك مكان ما فى دماغى للأسئلة التى بلا إجابة ، والأسئلة التى تحتاج إلى إجابة عاجلة . . والأسئلة التى لا ضرر من أن تبقى هناك . . فأنا لا أنشغل بقلبى الذى يدق ومعدتى التى تهضم ودمى الذى يجرى طالعا نازلا . . كما أننى لا أنظر إلى قدمى أثناء السير . . ولا أنظر بوضوح إلى يدى وهى تتحرك مع احتكاك ناعم هامس فى الورق إلى الأمام ثم من سطر إلى سطر . . وأخشى أن يصرفنى انشغالى بعملية الكتابة عن التفكير . . فلا أعرف كم من طاقة التفكير تستهلك الكتابة . . ولا طبيعة العلاقة بين الذى فى رأسى والذى يخرج من أصابعى . .

وعندما جلس الفيلسوف الوجودى سارتر فى إحدى الحدائق التفت فجأة إلى شىء غريب . . شىء عجيب كأنه يراه لأول مرة . . لقد نظر إلى العروق فى يديه . . فما الذى أدهشه . . ما الذى حيره . . أن يتأمل يده وحجمها ولون أظافره وباطن الكف ، أدهشه أن تكون هذه يده . . ولو وضعها بين مئات الأيدى ما اهتدى

إليها . . ولكنها يده وهى مختلفة عن بقية الأيدى . . ومن هذه اليد خرجت أروع الأعمال الأدبية والفلسفية . . ولكن كيف؟ ترك هو أيضا هذا السؤال بلا جواب . .

وعندما سئل الأديب الكبير فيكتور هيجو كيف يتدفق الفن الجميل من أصابعه الممتلئة؟ قال : إننى أكتب سطرا كل يوم . .

يريد أن يقول إنه بالعمل المستمر . ولكن ليس هذا هو الجواب ، فلم يكن السؤال عن كمية هذا الإبداع الهائل فى الرواية والقصيدة ، ولكنه اختار أن يقول : إن يدى ومعناها ومدلولها لا يهم . . ولكن الأهم هو الذى يفيض منها . .

وأنا أستريح إلى نوع من الورق غير المسطر . . وقد استرحت إلى طول وعرض ثابت ولا أكتب إلا بالحبر الأسود ، فإذا لم أجده كان من الصعب أن أستخدم أى لون آخر .

وكان الأستاذ «العقاد» يكتب بالحبر الأحمر على ورق فى مساحة الكف . . وكان الأستاذ «توفيق الحكيم» يكتب على ورق من الحجم نفسه ولكن بالحبر الأسود والأزرق . .

وأعرف كاتبا لبنانيا مسيحيا يجعل من الصفحات كلها على شكل صليب . .

وكان أمير الشعراء «شوقى» يكتب على أى شيء يجده . . فإذا لم يجد إلا علبة سجائر كتب عليها . . وكتب إحدى قصائده على فوطة كانت أمامه . . فهو إذا جاءته المعانى سجلها حتى لا ينسى .

وكان الشاعر الفرنسى «بول جيرالدى» يكتب على ورق وردى . . فإذا لم يجده فإنه يرسم زهورا وطيورا حول قصيدته . . وهو الذى قال : أن تكون السماء صافية ، وأن تكون الأرض مغطاة بالجليد أو بالعشب الأخضر ، فإن هذا يعطل خيالى . . إننى أريد سحابا من ورائه القمر . . أريد الوديان والجبال والغابات والطيور ، وطفلا صغيرا ينظر إلى كل ذلك سعيداً . . فهو مثلى لا يعرف إلا القليل من أى شيء ، ولا يعرف إلا أقل القليل عن هذا الشاعر الذى حيره عقله بين القلوب . . وحيره قلبه بين العقول . . وحين أريد أن أستقر كسفينة أرهقها الموج والريح ، فإننى آوى إلى شجرة على سفح جبل . .

سألت صديقى الأديب الإيطالى «ألبرتو مورافيا» الذى أقعده شلل الأطفال فى فراشه يكتب على الآلة فقال لى : وجدت يدى أبطأ من الآلة الكاتبة . . فاعتدت على الكتابة السريعة على ورق شفاف . . فإذا رفعت الورقة من الآلة أحسست كأننى كتبت على السحاب . . أو على الدخان . . وأندهش كيف تبقى سطورى ثابتة والسحاب والدخان والبخار تحتها يتحرك . . وأضيف ذلك إلى حسابى ، وهو أن الفن لا تحركه العواصف . . إنه الأبقى . . بل إن هذه العواصف وتلك السحب لا معنى لها . . وتظل واقفه حتى أكتب لها عنوانا وأضعها فى جملة مفيدة . . أو فى لوحة ناطقة . . فعندى هذه القدرة وعندها هذا العجز . . وكذلك الورق المسجّى أمامى . . أنا الذى أملؤه . . وإذا كان الفراعنة قد عرفوا بقاء الحروف بأن سجلوها على الحجر ، فنحن عرفنا البقاء بالكتابة والطباعة ، ونحن ندين بجزء من ذلك إلى مصر القديمة والصين ، وندين بالباقى إلى مخترع الطباعة جوتنبرج . .

- ٢ -

ولو رأيت الصفحات التى يكتبها الأديب الفرنسى «هيجو» لوجدتها معركة بين الكلمات وبين السطور . . ولرأيت أسهما تخرج من بين الكلمات وبين أحشائها . . إنه يكتب ويحذف ، ويضيف ويشطب . .

ودهشتى لا تنتهى إذا رأيت خط أستاذنا «عبد الرحمن بدوى» إنه أقرب إلى حروف الطباعة دون أن يشطب كلمة واحدة ، وليس كذلك العقاد والحكيم وعبدالرحمن الرافعى . .

وليس بين الأدباء من هو مثل الأديبة الإنجليزية «شارلوت برونتيه» . . كأنها تكتب بإبرة أو بروموش عينيها ، فخطها صغير أنيق دقيق كأنه ذرات منتظمة الوقع والإيقاع . .

وأنا أكتب بسرعة ولذلك لا تتخذ الحروف شكلها الكامل ولا النقط فوقها وتحتها ، وحاولت أن أتعلم الكتابة على الآلة ، فلم أستطع ؛ فأنا لا أجيد أى عمل يدوى ، وفى الوقت نفسه أجد صعوبة نفسية فى قراءة ماكتبت من أجل إصلاح الأخطاء المطبعية ، فالكتابة قدرتى ، ورداءة الخط قدرى . .

وفى كتابى « إلا قليلا» ذكرت كيف أتهيأ للكتابة . . ومتى يكون ذلك وماذا أشرب وماذا أستمع إليه أثناء الكتابة . . وكيف أوفر لنفسى الجو الذى يجعلنى أكتب . . وكثيرا ما نظرت إلى الورق ولا أكتب . . أو كتبت ثم توقفت ، وأجلت الكتابة إلى يوم ثان أو ثالث . .

وكان الأديب الفرنسى « إستندال» يقلب فى كتب القانون قبل أن يكتب ، أو

يقـرأ صـفـحـات من «الكتـاب المقـدس» . ويقـول : أريد أن أكـون واضـحـا منضبطا .

والأديب الأمريكى «إدجار بو» كان يضع قطته الصغيرة على كتفيه ويستمع إلى موائها . . ويحرص على ألاّ تهبط من كتفيه إلى الورق . . فهو يقاوم نزولها وفى الوقت نفسه لا يتوقف عن الكتابة . . إنه يخلق لنفسه نوعا من المقاومة والتوازن . .

والأديب الأمريكى «مارك توين» يكتب منبطحا على بطنه . .

والأديب الفـرنسى «ديماس» الأب قـد نصحـه الطبيب أن ينزل إلى الشارع قبل الكتابة وأن يأكل تفاحة . .

والشاعر الألمانى «شيلر» كان يضع التفاح فى درج مكتبه . . ومن حين إلى حين يفتح الدرج ويتلمس التفاح ويشم رائحته ثم يمضى فى الكتابة .

والأديب الفـرنسى «فلوبيـر» كان يرتدى ملابسه كاملة . . ثم يضىء الأنوار فى البيت كله حتى يخيل إلى الناس أنه يقيم وليمة كبرى . . وكانوا إذا سألوه قال : طبعا وليمة . . إننى أحتفل بنفسى !

والأديب الدانمركى «أندرسن» كان نحيفاجدا ، وكان يخجل من ذلك فيحشر الورق تحت ملابسه ليبدو أكثر امتلاء . . ولأنه يكره الأديب السويدى «أوجست ستربتربرج» كان يعلق صورته مقلوبه على الحائط ويقول له : يجب أن تظل هكذا مشنوقا تتعذب وأنت ترانى أكتب !

والأستـاذ «العـقـاد» قـد طلب من صديقه الفنان «صلاح طاهر» أن يرسم هذه اللوحة : إناء من الزجاج امتلأ بعسل النحل ويتساقط عليه الذباب . . أما عسل النحل فلأن الفتاة التى أحبها العقاد كان اسمها «هنى» أى عسل . . أما هذا الذباب فهم الرجال التافهون الذين انقضوا عليها أو سقطوا فيها أو بسببها . . ومن هذا القرف اليومى قبل النوم وبعده استمد العقاد رأيه فى المرأة شعرا ونثرا .

وأنا أشرب الشاى فى كوب كبير بعسل النحل ، وأعرف القدر الذى يناسبنى من العسل . . فإذا زاد أو نقص أدى ذلك إلى ارتباكى . . وأحيانا أتوقف عن الكتابة وأتجه إلى شىء آخر . . وأحرص على أن يكون الشاى ساخنا فإذا برد فلا أشربه . . وأصنع شايا من جديد وقد لا أشربه لأن مذاقه وحلاوته قد تغيرت . .

وكان الأديب الفرنسى « بلزاك» يشرب من ثلاثين إلى خمسين فنجانا من القهوة . . أثناء الكتابة اليومية . .

والفيلسوف الإنجليزى (هوبز) كان يملأ خمسة أكواب من الشاى يشربها الواحد وراء الآخر . . وقبل أن يفرغ الكوب الأخير يكون قد أعد لنفسه مزيدا من الشاى السادة . .

والشاعر الأمريكية « إيمى ليل» كانت تدخن السيجار، وفى سنة ١٩١٥ عندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى خافت ألاّ تجد السيجار فتتعطل عن الكتابة فاشترت عشرة آلاف سيجار . .

وأديبة فرنسا «جورج صاند» كانت تفعل قبل الكتابة شيئين : أن تدخن السيجار وأن تغرق طاقتها فى الخمر والجنس . وكان الموسيقار شوبان يندهش لطاقتها التى لا تنضب . . بينما ينظر إلى نفسه وإلى الشاعر «ألفرد ديميسه» وكيف أن الأديبة قد استهلكت الواحد بعد الآخر حتى تساقطا من الأعياء بينما جلست هى كحصان جامح يكتب !!

أما الشاعر الإنجليزى «وليام يليك» فكان يجلس مع زوجته عاريين فى الحديقة . . هو يقرأ وهى تكتب، أو هما يكتبان، فإذا جاءهما ضيف قالا له : أهلا بك . . ليس فى الحديقة سوى آدم وحواء!

والأديب الإنجليزى «د . هـ. لورانس» ، كان يتسلق إحدى الأشجار عاريا تماما، ولا يكتب، وإنما فقط يتهيأ للكتابة ، وفى يده تفاحة يلعب بها ولا يذوقها . .

والأديب «هيجو» يفضل أن يكون وحده فى البيت تماما . . ثم يخلع ملابسه ويجلس عاريا ، ويطلب من خادمه أن يأخذ الملابس التى خلعها ولا يعود إلا بعد ساعتين!

والفيلسوف الأمريكى «بنيامين فرانكلين» هو أول من اخترع «البانيو» وكان يجلس فى الماء الدافئ ساعات يقرأ ويكتب وحوله أكواب القهوة يشم رائحتها ولا يشربها .

وكان الروائى الأسبانى «سرفانتس» يكتب بيده اليسرى فقد أصيبت يده اليمنى

فى الحرب ضد الأتراك، وكان يجد صعوبه فى قراءة مايكتبه، ولذلك كان يجىء بشخص آخر ينقل ما كتبه . . وكان يغلق الباب والشباك على نفسه ومن حين إلى حين يخرج ليمونة يشم رائحتها . . فإذا لم تعد لليمونة رائحة، أتى بغيرها . . وكان من المألوف أن يلقى كل يوم بعشرات من حبات الليمون التى ملأ رئتيه برائحتها القوية .

وقد وقعت أنا على يدى اليمنى فانكسرت، وظلت جبيرة الجبس شهورا، وحاولت أن أكتب باليسرى مستخدما أقلاما غليظة . . وكان ذلك صعبا جدا . . كنت كأننى أترجم لغتى إلى لغة أخرى لا أعرف إلا القليل من مفرداتها . . أو كأننى أعرج . . أقفز على ساق واحدة . . أو كأننى لا أكتب وإنما أحرث فى الورق . . وكنت منشغلا، لا بالذى أكتبه، ولكن كيف أكتبه . . أو كيف أننى عاجز عن كتابته . .

وكان الأديب الإنجليزى «دكنز» يكتب بحبر أزرق على ورق أزرق!

ولم يكن المفكر الإنجليزى «كارليل» والفنان الإيطالى «ميكلو نجلو» يجدان صعوبة فى الكتابة باليد اليسرى، وعندما سقط كارليل على يده اليسرى أحس أن هذه هى النهاية . . . فهو لم يتدرب على الكتابة بيده اليمنى . .

وإن كان الرئيسى الأمريكى ريجان قد تدرب على الكتابة باليدين . . ولكنه لم يكن يحسن الكتابة وإنما الخطابة . . وكذلك رئيسان آخران هما بوش وكلينتون . .

أما الفيلسوف الفرنسى « مونتنى» فكان خطه رديئا جدا، وكان سكرتيره يتولى نقل ما كتب الفيلسوف، ولكن السكرتير خطه أسوأ ، ولذلك كانت هناك صعوبة فى نقل ماكتبه مونتنى إلى المطبعة . .

وفى إحدى المرات أضرب عمال مطبعة فرنسية عن طبع ماكتبه الأديب «هيجو» . . لأنه ردىء جدا . . بل إن أحد العمال كان يعمل ثلاثة أيام كل أسبوع . . لأنه يتعذب كثيرا فى قراءة مايكتبه هيجو . . وكان هيجو يذهب إلى العمال فى بيوتهم يرجوهم ويعدهم بأنه سوف يجعل خطه أوضح فى المرات القادمة، ولم يفعل لأنه لايستطيع!

أمـا ألكسندر «ديماس» الابن فكان خطه جـميـلا جدا ، ولـذلك عـمل فـى مكتب أحد المحـامين ينسخ القضـايا والمرافعات ، وكانــت هذه هــى خطوتــه الأولــى فــى دنيا الكتابة . .

أما الأديب الإنجليزى «ألدوس هكسلى» فقد ضعف نظره ولم يعد يرى ، فكان يغمس أنفه فى الحبر ويكتب بأنفه ، وهو أول وآخر من فعل ذلك فى التاريخ .

وأنا أحيانا أكتب المقال مرة واحدة وأحيانا المقالين والثلاثة . . وفى أحيان أخرى أكتب وأمزق ما كتبت ورقة ورقة . . أو أمزقه كله ؛ لأننى لا أستريح إلى ما كتبت ؛ فليس منسابا فى سهولة ، أو ليس واضحا ، فأنا لم أحط بكل المعانى . . أو أن المقال فيه حركة ولكن لا يحمل معانى كثيرة . .

وفى إحدى المرات ، ولكثرة الورق الذى أمامى ، جمعته ومزقته . . وفوجئت بأننى مزقت مقالا فى عشرين صفحة تعبت فى كتابتها !

ومـرة واحدة ألـفت كتـابا عن الموسيـقـار موتسـارت . . عـن حيـاته وعـذابه . . ودراسة الطفل العبقرى أو العبقرى الطفل . . والفرق بين أن يكون الطفل عبقريا . . أى أنه يعمل أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بإبداعها طفل ، فالذى يفعله غير مألوف أن يقوم به طفل . . ولكن الحقيقة أن موتسارت ليس طفلا عبقريا . . ولكنه عبقرى أولا وأخيـرا وأنه رغـم ذلك كـان طـفـلا ، فـالذى أبدعـه شىء رائع ولـم يسبـقـه إلى ذلك أحد . . فـهو عبقـرى أولا وأخيرا . . ودرست أمراض عـباقرة الموسيقى ، وتعبت فى جمع المعلومات وصياغتها ، وتركت الكتاب سنة وراء سنة . . وعندما بحثت عنه لم أجده !

وقد حدث للعـالم الكبير «نيوتن» أن كـان له كلب اسمه «ديامـوند» هذا الكلب كان يلعب بينما العالم الكبير مشغول ببحوثه . . فأسقط الكلب شمعة على أوراق البـحث الذى استـغرق من العـالم الكبيـر عشر سنوات . ووقف نيـوتن حـزينا حـائرا يقول : آه ياديامـوند ، لو تعرف ما الذى أحرقت !

ثم عاد وكتب هذا البحث !

والفيلسوف الإنجليزى «كارليل» أهدى الجزء الأول من كتابه «تاريخ إنجلترا» إلى

الفيلسوف «جون إستيورات ميل» . . وبعد أن قرأه تركه فى أرض مكتبه فجاءت الخادمة وجمعت هذا الورق وألقت به فى سلة المهملات ليجلس كارليل حزينا يعيد كتابته!

والمؤرخ الإنجليزى «ريتشارد برتون» الذى ترجم « ألف ليلة وليلة» فوجىء بأن زوجته قد أحرقت كل ماكتب ظنا منها أنه كتاب قديم قد نشره قبل ذلك!

كان لى صديق من علماء المدينة المنورة اسمه الشيخ إبراهيم العياشى، قد ألف كتاب عن «الحجرات» أى الغرف التى كان يسكنها الرسول عليه الصلاة والسلام مع زوجاته، وقد أمضى فى تحقيق أماكنها عشرين عاما، وكانت امرأته تشبه زوجة سقراط ترى الرجل غارقا بين الورق وفى المناقشات، ولكن لا وجود له فى البيت: زوجا وأبا لخمسة من الأولاد؛ فضاقت بكل ذلك، وأحرقت الكتاب ليصاب الرجل بالشلل . .

والكاتب الأمريكى « همنجواى» ضاعت شنطته فى إحدى محطات باريس وكانت بها مخطوطات لقصص قصيرة، فعاد وكتبها أحسن وأجمل . .

والأديب الأمريكى إستانبك بعد أن فرغ من روايته «رجال وفئران» جاء كلبه وراح يعبث بهذه الأوراق ومزقها تماما، ووقف الأديب ينظر إلى كلبه ويقول: لن أخسر كلبا جميلا من أجل رواية من الممكن أن تكون سخيفة!

- ٣ -

وتكون الكتابة سهلة سلسة . . ويجرى القلم وأنا وراءه . . ولا أعرف كيف اللحاق به . . ولا أدرى كيف يفعل ذلك . . وتكون الكتابة صعبة . . وتكون البداية هى أصعب ما فى الكتاب . . وتكون النهاية . . أو الهدف النهائى . . أو خلاصة القول الذى يبقى فى ذهن القارئ .

وهناك رأى للمفكر « أحمد أمين» فى وصفه لطريقة العقاد وطه حسين والحكيم و د. هيكل عندما تحدثوا عن «محمد» ﷺ . . فهم جميعا كتبوا عن الرسول ، ولكن كل واحد له طريقة . .

يقول إن العقاد يمشى أمام النصوص التاريخية . . يضع لها خطة وبرنامجا للسير نحو الهدف الذى يريد . .

وطه حسين يمشى إلى جوار النصوص التاريخية ينقل منها ويحلل دون أن يعرض عليها شيئا . .

والحكيم يمشى وراء الأحداث التاريخية . . يرى ويكتب . . ويسمع ويحاور . وقد يسبقه النص ولكن الحكيم لا يحاول اللحاق به ؛ إنه مشغول بالحديث عنه . .

أما د. هيكل فهو يترافع عن الجميع أو ضدهم . . سواء من الكتاب العرب والمستشرقين . . إنه محام قد اتخذ قضية هى الرسول والقرآن والرسالة ، وقد قرر منذ البداية أن يكسب هذه القضية . . وقد كسبها . .

والفيلسوف الإغريقى «أفلاطون» كتب السطر الأول من محاورة «الجمهورية» خمسين مرة . .

والأديب همنجواى كتب الصفحة الأخيرة من رواية «وداعا للسلاح» فى أربعين مرة . .

والأديب اللاتينى «فرجيل» كتب «التاسوعات» فى عشر سنين، ثم أبعدها عن عينيه خمس سنوات، ثم نشرها بعد ذلك. وهو ينصح أى كاتب أن يفعل مثله؛ يقول : اكتب . . اكتب . . واترك ماكتبت بضع سنوات لتعود إليه ثم تختصره، واتركه سنة، ثم عد إليه لتختصره . . ثم انشره بعد ذلك!

ولى حادثة أذكرها كثيرا مع الأستاذ العقاد، فقد قرأ لى مقالا فى جريدة «الأساس» التى كان يكتب فيها هو أيضا. المقال عنوانه : معنى الفن عند تولستوى . . وفى هذا المقال استخدم تولستوى تعبيرا صار موضة فى مصر بعد ترجمتى له . . التعبير هو «الفن الهادف» . . وعلى طريقة الدعاية المصرية تلاعبوا بهذا التعبير فقالوا : الفن الهاتف . . وقالوا الفن الحادف ـ أى الذى «يحدف» الناس بالطوب . . وقالوا : الفن الهايف . .

وعندما كنا فى صالون العقاد قال لى : قرأت مقالك يا مولانا وأعجبنى . . وأسعدنى ذلك . .

ثم عاد وقال : أعجبنى أسلوبه، فأتعسنى ذلك؛ فالعقاد لايعجبه إلا أن يكون أسلوبى قريبا من أسلوبه، وهو جاف خشن . . إنه يشبه «السقايل» فى العمارات . . تركيب هندسى . . ولكنه ليس ناعما ولا جميلا . . إنه ضرورى ليقيم فوقه هذا المعمار الهندسى الفخم . .

هنا أزعجنى الأستاذ العقاد، ومس أعمق أعماقى؛ فأنا تخصصت فى الفلسفة، ثم كنت مدرسا فى الجامعة، وكنت حريصا على أن أجعل القضايا الفلسفية سهلة، يفهمها أقل الطلبة تخصصا . . فكنت أستعين على ذلك بالحكايات والنوادر والنكت والشعر والأغانى من أجل توضيح هذا الذى أقول. وقد أطلقت على طريقتى هذه : أننى أقوم «بتشييء» المعانى . . أى بتحويلها إلى أشياء ملموسة . . لاتراها العين وإنما تلمسها اليد . . وكنت أقول عن نفسى : إن أصابعى مثل «دودة القز» تجعل أوراق التوت حريراً . .

وكنت أقول كما جاء فى مقدمة كتابى «قالوا» إن أسلوبى «محزق» . . أى ملتصق بجسم المعنى . . قريب منه ، كأنه بشرة ثانية . . أو هكذا صرت ، أو هكذا فى مرحلة مبكرة من حياتى الفلسفية كنت أحلم بذلك . . فلما صدمنى العقاد عدت إلى المقال فوجدت فيه عبارات فلسفية خشنة ، وكتبت المقال عشرين مرة . . أو ثلاثين مرة . . وفى كل مرة أستبعد الكلمات الصعبة أو التراكيب الناقصة . . وأعطيت المقال والتعديلات الجديدة لصديق يدرس الأدب العربى الحديث . . فنشر جزءا منه . . عبارات طويلة . . ومحاولاتى المتكررة لتغييرها وتنميقها وتجميلها ، ولما حاولت أن أسترد المقال اعتذر بأنه قد ضاع منه !

سألت ابنة الفيلسوف الإيطالى «بندتو كروتشه» وكانت صديقة لى : كيف كان أبوها يكتب ، أو كيف كان يملى عليها . .

قالت : إن خطه جميل جدا ، ولكنه كان يحب أن يملى المقال لكى يغير ويبدل فيه . . وكثيرا ما كان يترك المقال الأصلى ويستطرد فى معان جديدة . . وكنت أظن أول الأمر أن أبى قد حفظ ماكتب لأنه كان يكتب وعلى مهل وعلى أيام متوالية ، ولكن وجدت أن الذى أملاه غير الذى كتب ، ثم أوصانى ألا أنشر المقالات الأصلية ، وهى موجودة الآن فى المتحف !

وقالت لى فرانسيسكا ابنة الفيلسوف : إن كتابه الشهير «التاريخ هو حريتى» قد فرغ منه أولا فى تسعة شهورة . . أما المقدمة فقد استغرقت منه أحد عشر شهرا !

والأستاذ العقاد ضاع منه كتابه الشهير «التفكير فريضة إسلامية» . . فهو قد أعطى هذا الكتاب للمؤتمر الإسلامى ، وكان بخط يده ، وعندما بحثوا عن الكتاب لم يجدوه ، وحزن العقاد ، ولكنه قال لى : لا أستطيع أن أكتبه مرة أخرى . . ولا أظن أننى سأحاول ذلك يوما ما .

وكانت غلطة العقاد أنه لم ينقل هذا الكتاب إلى الآلة الكاتبة ويحتفظ بصورة منه . . وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى قدم فيها العقاد إلى المطبعة مخطوطة بيده . .

وتشاء الصدفة أن أشهد عملية نقل الأوراق والدوسيهات من مبنى المؤتمر الإسلامى إلى مبنى آخر، عندما وقعت عينى على هذه «المخطوطة» . . ولما ذهبت إليه بالمخطوطة رأيت الدموع فى عينيه فقال ضاحكا : لا أعرف يامولانا كيف أشكرك، لقد كان فى نيتى أن أقبلك . . ولكن أرى أنك لا تستحق هذه العقوبة . . هاها . . هاها .

ـ ٤ ـ

ما هذا الذى يجعل أحدا يكتب . . يرسم . . شىء ما فى داخله . . رغبة قوية . . حافز . . قوة دافعة . . لا أعرف ولا يعرف أحدا سببا لذلك . وفى كل مرة يظهر كتاب تكون هناك رسالة ، لأن أحدا يريد أن يقول للآخرين شيئا ، وأنه لايملك أن يسكت فلا يتكلم ، فإذا تكلم فهو لايملك أن يسكت . .

ولا علاقة للمدرسة بهذه الموهبة ، فأعظم المواهب فى الأدب والفن لم يدخلوا مدرسة ، أو إذا دخلوها فبعض الوقت ليتركوها بعد ذلك . .

وهذا هو الفارق بين العالم والمخترع . . بين الباحث والفنان .

فعلماء الفيزياء والكيمياء والمؤرخون ليس من الضرورى أن يكونوا مخترعين أو مبدعين . .

فالذين اخترعوا هم أناس قادرون على أن يجدوا حلولا . . وهم يستخدمون أيديهم وخيالهم أكثر من اعتمادهم على الكتب . . إن أعظم مخترع فى التاريخ هو «أديسون» الأمريكى ، ولم يدخل جامعة . .

أعظم العلماء «أينشتين» لم يكن يحسن أن يصنع كوبا من القهوة . . وله حكاية معروفة وهو أنه كان موظفا فى السجل التجارى فى سويسرا ، وكان يسكن غرفة متواضعة جدا ، فإذا صحا من النوم سأل صاحبة البيت : كم الساعة الآن؟ وكانت تقول له .

وكان يضحك ويقول : أنا الذى وضعت ساعة على كل مليمتر فى هذا الكون لا أملك ساعة . . وقد حاولت أن أتذكر شراء ساعة ولكن أنسى دائما!

وهو يشير بذلك إلى نظرية الخاصة «بالزمان والمكان» أو «الزمكان» ونظريته تقول بسهولة - وفى الوقت نفسه غير مفهومة - إن كل جسم فى الكون له أربعة أبعاد : طول وعرض وارتفاع وزمان !

وكان العالم الإنجليزى «نيوتن» له معمل يقيم فيه ليلا ونهارا، وكان عنده كلب، يحاول أن يدفع الباب بقدميه، فحتى لايضايقه الكلب صنع له فتحه فى الحائط يدخل منها دون أن يزعجه . . فلما أتى بكلب آخر صغير . . حفر فى الحائط فتحة صغيرة، وقد نسى أن الكلب الصغير من الممكن أن يدخل من الفتحة الكبيرة أيضا.

واندهش كيف أنه وهو الذى استغرقته حركة النجوم والكواكب والسدم فى السماء واهتدى إلى قوانين الحركة فى الكون، لم يهتد إلى حركة كلبين من الشارع إلى معمله!

وكذلك الأدباء والشعراء . . نحن لا نعرف المدارس التى دخلها وتخرج فيها كل الشعراء والأدباء والفنانين والرسامين . . هؤلاء المبدعون: العقاد والبحترى وأبو تمام وأبو حيان ، والفلاسفة الفارابى وابن سينا وابن رشد، وكذلك الأدباء العالميون دكنز ومارك توين وشين أوكيسى ومورافيا وجوركى وبرناردشو وزولا وساروبان والأديب المعاصر كولن ويلسون.

وكان الفيلسوف الوجودى الدانمركى كيركجور يهاجم أساتذة الجامعة لأنهم أفسدوا التذوق الأدبى والفنى وشوهوا الفلسفة، وكان يصفهم بأنهم الذين يصنعون المعلبات ، فكل شىء لابد أن يدخل فى علبة أو فى قالب من الورق أو من الحديد . . ولا يشربون الماء من النهر، ولايشمون الهواء من الجو، ولا يأكلون ثمرات الطبيعة الطازجة، لابد من قطفها وسلقها وطبخها . . فهى أسهل ولكن بعد أن تكون قد ماتت . . ضاعت حيويتها وبهجتها . . وهؤلاء الأساتذة هم «حانوطية» التاريخ والفن . . وإذا سيطر الأساتذة على الفكر، فسوف تكون النتيجة جبالاً من الصناديق الفارعة الأنيقة الفارغة من المعنى . . الفارغة من الأمل فى الخلاص من قيود التحليل والتسجيل . .

وكان الفيلسوف الألمانى «إشبنجلر» يرى أن هناك نوعين من معالجة الأحداث : التأريخ والتاريخ.

التأريخ هو الاعتماد على الوثائق وتنظيمها وترتيبها وتبويبها واستخراج خريطة لمسارها من الماضى والمستقبل .

أما «التاريخ» ـ من غير الهمزة . . فهو معايشة الأحداث والانفعال بها وتصوير ذلك . وهذا هو الفن والأدب والإبداع . . وهذا ما لا يستطيعه الأساتذة المؤرخون . .

وكان كيركجور يسخر من الأساتذة المؤرخين الذين يقولون إن «الديالكتيك» أى الحركة الثنائية للتاريخ هى الدليل السهل لكل ما كان وسوف يكون . . فالتاريخ ينتقل من حالة إلى حالة مضادة لها . . ثم يلتقى الضدان فى حركة ثالثة . . الأبيض والأسود ثم الأسمر أى الاثنان معا . .

أى الأغنياء وضدهم الفقراء ثم الطبقة الوسطى . .

وكان يسخر منهم قائلا : إذا خلعت جزمتى وضعتها إلى جوار قدمى . . فالقدم ضد الجزمة ، فإذا لبستها فقد وفقت بين الحالتين !

ويقول : لا يمكن أن يكون الأستاذ الجامعى مبدعا ، وإنما هو سفاح الإبداع . . هو الذى يشنق المعانى ويقتل المشاعر . .

وكان الأستاذ توفيق الحكيم لا يحب أن يقول : قرأت كتاب فلان . . أو تأملت فلسفة فلان . . إنه يخشى أن يتهمه أحد بالعلم وينفى عنه شبهة الإبداع . . أى الإتيان بالمعانى من أعماقه هو وليس من أعماق الآخرين . .

وكان يسخر من العقاد وطه حسين فيقول : إنهما لايستطيعان أن يكتبا بعيدا عن دوائر المعارف ، أى أنهما من المدرسين وليسا من المبدعين !

والشعراء وحدهم هم المبدعون . وشوقى يقول : أنتم الناس أيها الشعراء . .

والعقاد يقول : إن الناقد هو المصباح الذى يستضاء به ، ويكون النقد عميقا ، عندما يكون الكلام ضحلاً ، والجمال سطحيا . .

ويرى العقاد أن أعظم أدباء روسيا هم أعظم نقادها ، وأنهم ظهروا جميعًا فى العصور القيصرية المظلمة . . وفى كل النظام الشيوعى لم يظهر أديب ، لأنه ليس ناقدا . . وإنما ظهر أدباء الدعاية السياسية . . أو المفسرون لمبادئ الشيوعية . .

ولذلك لم تتقدم فى النظم الشمولية إلا الفنون التى لا تعتمد على الكلمة المقروءة أو المنطوقة . . وإنما الفنون : كالرسم والموسيقى والألعاب، فلا يمكن وصفها بالشيوعية أو الرأسمالية . وبقدر ما تطورت علوم الفضاء فى روسيا الشيوعية ، تخلفت كل العلوم الأخرى . . فالروس أطلقوا أول سفن الفضاء ، ولكنهم لم يصنعوا ثلاجة أو غسالة . . فالفرد لا يهم . . وحياته لا تهم . إنه مسمار فى جهاز الدولة ، ويظل فى موقعه مادام صالحا للاستعمال ، فإذا انكسر أتوا بمسمار آخر . . أما علوم الفضاء ، فهى للدعاية للنظام الشيوعى الذى استطاع أن يسبق النظم الرأسمالية إلى السماء .

ولما انهار النظام الشيوعى فى روسيا والدول الأوروبية الشرقية ، انكشف الجوع والمرض والذل والجهل أيضا ، ولكن لم نر كاتبا واحدا له قيمة عالمية . .

اللهم إلا الثائرين على النظام الشيوعى مثل : باسترياك وسولجنتسن . . بينما ظهر فى العصور القيصرية عشرات العبقريات فى الشعر والرواية والفن والموسيقى . .

وعندنا تعبير شائع ومضحك وهو «المشروع الفكرى» . . فنسأل الكاتب أو المفكر ما هو مشروعك الفكرى ـ إن كان له مشروع .

ولا يمكن أن يكون جادا من يسأل عن «المشروع الفكرى» . لأن أحدا لا يجلس ويمسك ورقة وقلما ويكتب : فكرتى هى كذا وكذا ، وسوف أكتب كذا وكذا . . وسوف أعارض ، وسوف أضيف فى كل حياتى الأدبية . .

لا أحد يفعل ذلك ، فليس فكر أى إنسان ولا فلسفته مثل «مشروع بناء عمارة» . . حين يجلس المهندس أو المهندسون وأمامهم معطيات واضحة : مساحة الأرض وعدد الطوابق عدد الشقق وعدد الغرف والمواسير وأنابيب المياه والصرف الصحى والطوب والخرسانة المسلحة . . فالمهندس يعرف بالضبط مفردات هذا المشروع من أوله لآخره . . ويقيم ذلك المشروع فى شهر ويتم تنفيذه فى سنة أو سنتين . . فهذا هو المشروع المعروف أوله وآخره . .

ولكن لا أحد من المفكرين يستطيع ذلك . .

ولكن يجىء المؤرخون والنقاد بعد أن يكون الأديب أو الفنان أو المفكر قد كتب وقال فى كتاب بعد كتاب أو فى لوحة بعد لوحة . . ثم ينظر الناقد أو المؤرخ إلى كل ذلك ويضع أمامه صوراً أو رسما بيانيا لفلسفلة هذا الفنان أو المفكر . هذه الفلسفة هى «مشروعه» الفكرى، أى الذى أراد أن يقول . . وكيف قال ذلك . . كيف أثبت وكيف نفى، وكيف أيد وكيف عارض، وكيف كان مقنعا وواضحا أو غامضا . . إنها نظرة من خارجه هو . . ولكنه عادة لا يدرى بالضبط أين يذهب فكره وإلى أى هدف . . إنه يقول ما يحدث، ولا يعرف بالضبط أين يقع من الناس، ولا ما الذى يبقى من هذا الذى قال . . إنه يعرف الصوت ولا يدرى الصدى . .

وليس هو الذى يعرف من أين جاءته هذه الأفكار . . وإن كان التعبير عنها هو صوته أو هو صدى أصوات أخرى .

ونحن نقول : إن العقاد هو المفكر . .

وطه حسين هو الأديب . .

وتوفيق الحكيم هو الفنان . .

وأحمد أمين هو المؤرخ . .

ود . هيكل هو المحامى . .

وعبد الرحمن بدوى هو الفيلسوف . .

ولكن ليس معنى ذلك أن العقاد ليس أديبا وأن طه حسين ليس مفكرا وأن الحكيم ليس مؤرخا . . وأن أحمد أمين ليس فنانا، ولا د . هيكل ليس كل هؤلاء . . ولكن الفكر يغلب على العقاد . . والأدب على طه حسين والفن على الحكيم والتاريخ على أحمد أمين، وتمحيص كل ذلك والمرافعة والدفاع عن كل ذلك عند هيكل . . أما عبد الرحمن بدوى فهو أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وهو الذى أرسى معانيها الصعبة . . وهو الذى اشتق مئات التعبيرات الجديدة ليعيننا على فهم الفلسفة الوجودية الألمانية والفرنسية ثم إن له نظرية فلسفية أو هو حاول ذلك . .

ـ ٥ ـ

وأنت لا تقاطع المطرب وهو يغنى إلا لكى تصفق له . . ولكن يجب ألا تقاطعه أو تسكته . . بل يجب أن تتركه يقول ويحاول ويغالب ، وبعد أن يفرغ من الغناء تقول : إنه أسعدنا أو أشقانا . . وإنه أبعدنا عن أنفسنا . . ثم أعادنا إليها . .

أو كما يقول أبو حيان التوحيدى : إن الصوت الجميل هو الذى يأخذك منك ، ثم يعيدك إليك !

ولذلك يجب أن تترك الفنان يقول . . ويحاول . .

والساحر الأيرلندى أوسكار وايلد كان يقول : لا تلـم العازف على البيانـو ، إنه يحاول !

وعندى إحساس دائم بأننى لم أقل بالضبط ما أريد ، ولكنى أحاول ثم أكرر المحاولة وتتكرر المعانى ، ولذلك أستخدم فى التوضيح : كأنما ولعل . . أى كأن المعنى كذا وكذا . . وأشعر بأننى لم أقل بما فيه الكفاية فأعود . . والكاتب مثل البلبل لديه لحن واحد يكرره قصيرا أو طويلا ، حزينا أو سعيدا فى كل الظروف ، ولذلك فأكثر الأدباء تنوعا ، يدور حول عدد من المعانى . . يديرها فى رأسه ويدور حولها ، أو هى التى تدور حوله كما يدور الحمام حول الأبراج . . أو كالطيور المهاجرة التى تعود إلى أوكارها التى عاشت بها فى الأعوام السابقة . . وقد تكون أقل عددا أو أكثر عددا ، صغارا أو آباء وأمهات . .

وأعظم الشعراء والروائيين تدور أعمالهم حول ست أو خمس شخصيات ، ثم إنهم يضعون هذه الشخصيات ـ أو هذه المعانى ـ فى ظروف مختلفة وتحت ضغوط متنوعة . .

ومهما تعددت الشخصيات فإنها لا تزيد عن خمس أو ست.

والأديب الإيطالى بيرانوللو عندما ألف مسرحيته «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لما سئل عن سبب اختياره ست شخصيات وليس عشر شخصيات.. كان جوابه: الواضح فى ذهن الأديب ست شخصيات فقط.. أما بقية الشخصيات فهى أوراق على فروع كبيرة لاتزيد عن ست..

وأنا أعود إلى كثير من المعانى.. فبعض فصول كتبى قد تحولت بعد ذلك إلى كتب.. أى أننى أوجزت المعنى فى صفحات قليلة.. ثم عدت إليها بمعلومات ورؤى أكثر وأعمق..

بل لاحظت أيضا أننى لا أجد حرجا فى تكرار عناوين كتبى، وقد يبدو ذلك غريبا عند القارئ، ولكن لا أجد ذلك إلا دليلا واضحا على أن المعانى ما تزال فى مكانها من عقلى تحتاج إلى أن أعود إليها.. مثلا:

١ ـ وحدى مع الآخرين.
٢ ـ مع الآخرين.

٣ ـ طريق العذاب.
٤ ـ ألوان من العذاب.
٥ ـ عذاب كل يوم.

٦ ـ عاشوا فى حياتى.
٧ ـ البقية فى حياتى.

٨ ـ يسقط الحائط الرابع.
٩ ـ الحائط والدموع.
١٠ ـ الذين هاجروا.
١١ ـ الذين ولدوا معا.

١٢ ـ مذكرات شاب غاضب .
١٣ ـ مذكرات شابة غاضبة .

١٤ ـ الحب الذى بيننا .
١٥ ـ ألوان من الحب .
١٦ ـ مدرسة الحب .

١٧ ـ من أول نظرة .
١٨ ـ لأول مرة .

١٩ ـ هى وغيرها .
٢٠ ـ هى وعشاقها .

٢١ ـ هذه الصغيرة .
٢٢ ـ هموم هذا الزمان .

٢٣ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ .
٢٤ ـ التاريخ أنياب وأظافر .
٢٥ ـ بلاد الله خلق الله .

٢٦ ـ بقايا كل شىء .
٢٧ ـ كل شىء نسبى .

٢٨ ـ الذين هبطوا من السماء .
٢٩ ـ الذين عادوا إلى السماء .

٣٠ ـ كتاب عن كتب .

٣١ ـ اثنين اثنين .
٣٢ ـ شباب . . شباب .

٣٣ ـ وداعا أيها الملل .
٣٤ ـ أنتم الناس أيها الشعراء .
٣٥ ـ قالوا .
٣٦ ـ قلى لى يا أستاذ !

٣٧ ـ شارع التنهدات
خطوة أرق خطوة عرق

٣٨ ـ عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا . .

فعندى إحساس بأننى سوف أعود مرة أخرى . . وأننى لم أصل إلى نهاية أى طريق . . وأننى دائما فى مفترق الطرق . . وكل خطوة هى عندى مفترق الطريق . . وأننى أخذت الاتجاه إلى الأمام . . ولكن لابد أن أعود وأختار المعنى الآخر . . أنظر إلى الإمام أو أنظر إلى الخلف . . أقاوم الملل .

أقاوم التدفق . . أى التيار المندفع من داخلى . . لا أعرف كيف أوقفه . . أو أتوقف . .

ووجدت فى أساطير الإغريق هذه العبقرية الرمزية ، وجدت فيها تعبيرات أجمل . . لم أجد حلولا ولكن وجدت وصفا بليغًا لحالى على مرورة الأيام :

سيرين : ذات الصوت الجميل الذى لا يستطيع أحد أن يقاومه . . لدرجة أن بطل الإلياذة عوليس كان يربط رجاله بالحبال حتى إذا اقتربوا من سرين لا يقعون فى سحرها . . فتقضى عليهم . .

وكتابى « . . إلا قليلا » هو أعمق أعماقى . . إننى لا أعرف إلا قليلا . . ولابد أن أعود يوما ما . . أستأنف الشرح والتفسير والتجميل . . لابد . . ولكى أفعل ذلك لابد أن أتوقف . . وأن أنظر ورائى فى أمل أو فى يأس ، فى قرف أو فى ملل .

وكان توفيق الحكيم سعيدا عندما وصفت أسلوبه فى النقد بأنه ينظر وراءه فى غضب وأمامه فى يأس . .

وكلنا ينظر أمامه ووراءه . .

ثم يعود يجدد النظرة والنظرية والرؤية والرأى . .

* * *

أما أصعب تجاربى فهى تجربة كتاب «شارع التنهدات» فقد قررت أن أكتب تجربتى الصحفية الطويلة . . وأن أصف معاناتى حتى لا أكون صحفيا ، وأن أتفرغ للفكر والفلسفة ، لولا أن مات أبى فجأة ، فكان موته دفعا إلى الحياة العملية ، فاندفعت ولكن قاومت طويلا أن أكون صحفيا . ولا أعرف معنى أن يكون الإنسان صحفيا ، وما الفرق بين الكاتب أو الأديب أو الفيلسوف والعمل فى الصحافة . ولكنى كلما ترددت على الصحيفة التى عملت بها ازداد حزنى على نفسى . . وكل أساتذتى أبدوا أسفهم الشديد على ضياعى ، فقد كانوا يفضلون أن أعود إلى الجامعة مدرسا للفلسفة ـ قمت بتدريسها سبعة عشر عاما ، ولم أنقطع عن العمل الصحفى طوالى حياتى . .

وكان أملى أن يجيء هذا الكتاب طويلا فى عدة أجزاء ، وكنت قد اهتديت إلى خطة عمل . . وكنت أسأل : هل أحكى حكايتى مع الصحافة وكبار الصحفيين بترتيب زمنى . . أو هل أكتب عن القضايا أو الشخصيات وعلامات الطريق فى حياتى . .

هل أكتب عن حياتى كما كتبت فى كتابى « فى صالون العقاد كانت لنا أيام » . .

هل أنشر المحاورات الطويلة بينى وبين طه حسين حتى لا أعمل بالصحافة .

هل أنشر ما قاله العقاد لكى يحتفظ الإنسان بملكاته فلا تفسدها الصحافة .

هل أنشر حجج د. شوقى ضيف ـ وهو أول من تنبأ لى بأننى سوف أكون شيئا ـ حتى لا أعمل فى الصحافة . .

هل أذكر غضب د. عبد الرحمن بدوى عندما وجدنى قد اخترت الصحافة إلى جانب تدريسى للفلسفة تحت رياسته وإرشاده وتوجيهه . .

هل ما أزال مقنعا بما قاله لى أستاذ د. لويس عوض الذى حولنا من طيور جارحة إلى طيور داجنة . . فقد كنا ونحن طلبة فى الجامعة غرقى فى فلسفة هيجل ونيتشه، وجاءت النزعة الماركسية عند لويس عوض فاختصرت من ريش الأجنحة وأضافته إلى المناقير والمخالب . . فبدلا من أن نطير وعيوننا على النجوم، نزحف على الأرض نلتقط المعانى من حبات الحصى وديدان الأرض.

ووضعت خطة واضحة طويلة.

وفجأة تولانى إحساس غريب بأن شيئا ما سوف يحدث، هذا الشىء إما كارثة أو مرض أو أننى سوف أموت قبل أن أكمل هذا المشروع . .

وتساءلت : ماذا لو مت ولم أكمل هذا المشروع . . لقد كتبت ٩٠ كتابا، قلت ما فى نفسى . . بعض ما فى نفسى . . فلا أحد يقول كل الذى فى نفسه . . وإنما بعض المعانى التى حضرته . . ثم ما قيمة أن أقول أكثر . . ولنفرض أننى مت ولم أكمل هذا الكتاب، ألا يكفى أننى وعدت وحاولت . . ثم دعوت وحاولت . . إننى أتخيل أحدا أعترف له . . أحدا يهمه الذى أكتب أو الذى تركت . . ولكن أحدا ليس هناك . .

فأنا كالشمس تضىء ولو لم يكن هناك أحد . . بل إنها تضىء وسوف تبقى . . كانت تضىء وأرضنا كتلة من النار . . ثم كتلة من الماء . . وكانت بها حشرات . . وتطورت الحشرات إلى حيوانات ثم الإنسان . . وقد تفنى الأرض باصطدام كوكب . . أو قد تقترب من الشمس فتبتلعها الشمس . . أو عندما تضعف جاذبية الشمس فإن الأرض تتطوح فى الظلام والبرودة ويبقى ضوء الشمس . . بل تبقى الشمس . . أو حريق الشمس دون أن يكون هناك أحد تضىء له . .

من قال إن الذى أفعله مهم؟

أنا الذى أقول . .

من قال إننى لا أملك إلا أن أكتب؟

أنا الذى قلت ؛ لأننى أرى لوجودى أهمية شخصية . . وإن كان وجودنا كله لا أهمية له . . ولا معنى له . . ولا حكمة فيه . . ولكن العقل الإنسانى هو الذى

اعتـاد أن يكون لكل شيء بداية ونهايـة . . ولكل شيء معنى . . وكل ذلك من صنعنا نحن . .

وكذلك هو الذى أقدم عليه . . وكل الذى أنجزت وأوجزت . .

ولكن اليقين تغلب على هذه الوساوس ، وقلت أكتب مقدمة لهذا الكتاب ، وأن تكون المقدمة وحدها كتابًا . وهذه هى المرة الثانية . .

أما المـرة الأولـى فمقدمـة كتابـى « فى السياسة» مـن الممكـن أن تكـون كتابا منفصلا . .

وكـذلك «شـارع التنهـدات» الذى هو كأنه مقدمـة لكتاب كبير . . أو دليـل إلى ذلك . .

وقد أدهشنى وأنا أكتب هذه المقدمة حكايات من الماضى . . تدل على حيرتى ، فأنا حاولت أن أجعل من نفسى مشكلة ، وأن أطلب الحل من كل الناس ، وتركت خيالى يذهب ويغوص ، ورحت أسأل الجار والمطرب والراقصة ورجال الدين ورجال شارع محمد على . . إلى هذه الدرجة كنت مشغولا بنفسى . . ولم أتصور لحظة أن هذه قضيتى وحدى . . ولكنى كنت أضعف من قضيتى . . وتعاونت على حلها مع آخرين .

واكتشفت أننى لم أكن جادا فى العدول عن الكتابة بأى شكل وفى مكان ، وفى الوقت نفسه وجدت أن التدريس فى الجامعة لم يكن بعيدا عن ممارسة الكتابة ، فقد كنت أحاضر كأننى أكتب ، بل إننى كنت أشعر بأننى أفكر فى حالى على مسمع من الطلبة . . اخترت الأمثال والحكايات والنوادر . . كأننى أكتب . . أو أننى أكتب فعلا ، ولم أجد فارقا كبيرا بين أن أقول وأن أكتب . وأذكر أن صديقى الفنان يوسف إدريس هو أول من لفت نظرى إلى ذلك ، وقال : الآن عرفت كيف تكتب . . أنت تتخيل أحدا أمامك تحكى له !

وعندما عدت إلى الأيام الغامضة والباهرة من العام الأول فى الصحافة وجدته طويلا جدا يحتاج إلى كتب ، مع أن الزمن الذى استغرقه كان شهوراً معدودة .

وتذكـرت رواية الأديب الفـرنسى بروست « فى البـحث عن الزمن الضـائع » ،

وعدلت عن هذه الفكرة، واكتفيت بأن أعد بتأليف كتاب مستقل، إن كان من المقدر لى أن أعيش!

وحدث ما كنت أخاف ولا أعرف ماذا سيحدث: فجأة تورمت ساقى اليسرى.. ما هذا؟ إنها جلطة، فى الساق. لماذا؟ لأننى جلست ١٦ ساعة فى عشرين يوما أكتب ولا أتحرك ولا أشرب إلا القليل من الماء.. وتوقفت، وانتقلت من الإنعاش فى مصر إلى الإنعاش فى باريس..

ودفعت بالكتاب إلى المطبعة.. ناقصا.. وأضفت إليه مشروعات كتب أخرى.. أربعة كتب.. خمسة كتب.. قد وعدت نفسى بأن أعود إليها.. ولم أستطع.. فقد انشغلت بكتب غيرها..

ويكفينى أننى حاولت وأننى أشرت إلى محاولتى.. ومن يدرى ربما عدت إليها.

ولكن شيئا خطيرا قد وقع فى حياتى.. زلزال.. بركان.. خسوف القمر.. كسوف للشمس.. حدث شىء.. فكل ما كتبت كان قبل المرض.. وما أكتبه الآن بعد المرض..

وعلى الرغم من أننى - والحمد لله - تماثلت للشفاء، فإن شعورا بالأمان قد اختفى..

لقد كانت طفولتى خائفة..

ورجولتى قلقة..

ولكن شيخوختى بلا أمان.. فالأطباء فى فرنسا يؤكدون لى أننى ورثت «سرعة التجلط» فى الدم.. عن أمى لا أعرف.. عن أبى لا أعرف.. ولكنه عيب موروث.. ولابد أن أعيش كأننى أمشى على الحبل.. على حد السيف.. لابد أن أمشى كثيرا جدا وأن أبتعد عن معظم الأطعمة التى كنت أحبها.

ويطلب منى الأطباء فى مصر وفى فرنسا أن أحمد الله أننى «نباتى» بطبعى لا أكل اللحوم والدهون..

وأن أحمد الله مرة أخرى أننى كنت أتعاطى الإسبرين لأنه هو العقار الوحيد الذى يجلب لى النوم . . وهو ـ دون علم منى ـ يساعد الدم على السيولة ، أى ضد الجلطة . . وأننى أيضا أتعاطى أقراص الثوم التى تساعد على سيولة الدم . .

وحمدت الله . .

ولم أشأ أن أشير إلى ذلك فى مقدمة كتابى «شارع التنهدات» . . وإنما الناشر هو الذى لمح إلى ذلك فى كلمته على غلاف الكتاب . .

* * *

وهذا الكتاب الذى بين يديك يضم معظم مقدمات كتبى . . وهذه مقدمة للمقدمات . .

وقد رأيت أول من فعل ذلك الساخر الكبير برناردشو . . فى سنة ١٩٣١ جمع مقدمات كتبه فى مجلد واحد أكثر من ألف صفحة ، وبعض هذه المقدمات لا علاقة لها بالكتب . . وبعضها ألفها بعد ظهور كتبه أو مسرحياته . . ومقدماته طويلة جدا ، وكل واحدة يمكن نشرها وحدها لأنها دراسة اجتماعية سياسية نفسية أو أدبية ، وهى قادرة على أن تنهض وحدها على ساقيها ودون أن ترتبط بها مسرحية أو دراسة سياسية .

وبعض مقدماتى لها علاقة بالكتابة ، وبعضها يشير إلى ما جاء فى الكتاب . .

وبعض كتبى التى نشرت لا أجد منها نسخة واحدة عندى ، وكنت أتمنى ـ ولعلى أفعل بعد ذلك ـ أن أنشر مقدمة لواحد من كتبى اسمه «ساعات بلا عقارب» أما السبب فهو أن الفيلسوف د . زكى نجيب محمود كتب عنها مقالا فى مجلته «الفكر المعاصر» قال فيها : لم أقرأ فى كل اللغات التى أعرفها مقدمة بهذا الجمال . .

وقال تحليلا لأسلوبى فى الكتابة وفى التفكير . . وهو الأسلوب الذى وصفه الشاعر صلاح عبد الصبور أنه يشبه الشمبانيا : لون ورشاقة ونشوة بعد ذلك . .

ووصفه محمود تيمور فى مقدمة كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم» أنه لم يجد له ولى مثيلا بين الأدباء المعاصرين . .

وإذا عدت إلى الذى أكتبه ، فإننى لا أعرف كيف وجدوا هذه الصفات أو هذه المعانى . . فأنا أكتب ولا أعرف اسم اللون أو الطعم أو العطر الذى يشع من الكلمات والمعانى . .

وربما فى حالات قليلة جدا فعلت ما فعلته السيدة أم كلثوم ، فقد كانت زيارتى لها مفاجئة ، فوجدتها تستمع إلى أغنيّة لها هى : يا اللى كان يشجيك أنينى . . وهى من أورع أغانيها . . ثم وجدتها تقول : الله يا أم كلثوم!

وكذلك كان يفعل شاعرنا القديم البحترى ، كان ينشد وقبل أن يستحسن الناس شعره يقول : والله لقد أحسنت وأبدعت يا أنا !

ومن النادر أن أعود إلى قراءة ما جاء فى كتبى . . مرات قليلة ، وأندهش ويبهرنى ماكتبت ، وكيف كتبت ، وكيف كانت حالى . . ولا أعرف كيف كان ما كان ولا كيف كنت . .

وأهز رأسى مع د. زكى نجيب محمود الذى قال لى يوما : أنت وأنا لم يقرأ لنا العقاد . . ولم يكتب عنا سطرا واحدا ، وكنت أتمنى أن العقاد يقرأ ما كتبت ويدرك ما الذى ابتدعته أنا فى عالم «المقالة» . . فأنا أرى أن المقال الأدبى هو الذى كتبته أنا وليس أى إنسان آخر . .

والأستاذ إحسان عبد القدوس هو الذى قدمنى لقراء روز اليوسف هكذا : انتظروا هذا الأديب الفيلسوف الشاب ؛ إنه خليط من العقاد وطه حسين والحكيم والفيلسوف الوجودى سارتر . .

وكنت أقول لإحسان عبد القدوس : أنت مثل فتاة جميلة ولكن نظرها ضعيف جدا ، فهى لا ترى ما نرى . . لا ترى جمالها . .

وكنت أقصد أن إحسان عبدالقدوس لايكتب عنه النقاد ، فهم إذا كتبوا فى مجلة «روز اليوسف» أو مجلة «صباح الخير» كانوا مجاملين له . . وإذا كتبوا فى الصحف الأخرى فغيرة منه وحقداً عليه . . فأنت فى جميع الأحوال لا ترى صورتك الحقيقية . . صورتك الجميلة فى السياسة وفى الرواية!

ولذلك يعيش الكاتب ويموت ولا يجد صورته الحقيقية ، ولهذا يحاول الكاتب

أن يكتب عن نفسه ويؤكد وينفى ويثبت . . وليس من المفكرين واحد لم يقل : أنا . . وأنا كتبت . . وأنا تعلمت . .

ويقال : إنه أنانى . . لقد اتخذ نفسه مركز الكون!

بل يجب أن يقول أنا وأنا . . ألف مرة . وهذا هو الفرق بين العلم والأدب، فأنت لا تقول أنا من رأيى أن ٢ + ٢ = ٤ . . فليس هذا رأيك، إنها بديهية، سواء قلت أو لم تقل . . ولكن الفنان والأديب والمفكر يقول: رأيت ولم أر . . ووجدت ولم أجد . . فالأدب هو ترجمة ذاتية لحياة ومشاعر عالم الفنان . . وكثير من الأدباء كتبوا «اعترافاتهم» أو قصة حياتهم . . كتبوها كما يريدون حتى لا تعبث الأقلام بحياتهم . .

طه حسين كتب الأيام .

والعقاد كتب فى بيتى .

والحكيم كتب سجن العمر .

وكثير من الأدباء العالميين أرادوا أن ينصفوا أنفسهم، فهم لا يتوقعون الإنصاف من أحد . . والشاعر القديم، ولا يزال كلامه صحيحا، قال: ومن لا يكرم نفسه لايكرم . .

وفى كتابى «فى صالون العقاد كانت لنا أيام» تسجيل لعالمنا فى مواجهة العقاد . . بل هروب من العقاد إلى من هو ألطف وأرق وأكثر أبوة وأوسع حضنا؛ إلى طه حسين . . وكان أسفى عظيما . . فقد شغلنا العقاد عن أن نرى ونقترب من طه حسين . . إنه الأستاذ والأب والحب أيضا . ووجدنا أن الصورة التى رسمها العقاد عن طه حسين ظالمة . . فليس طه حسين كما كان يصوره العقاد: ذلك الشيخ الكاهن الخبيث الحاقد على كل من هو أكثر علما وأعمق فكرا؟!

وشاعرنا وصديقنا الكبير كامل الشناوى عاش فى حياتنا شخصا ظريفا مرحا، ملأ ليالينا ضحكا وسخرية . . ولم نعرف إلا بعد موته كيف أنه كان الشاعر الفذ والمطرب الحزين والقلب الكسير . . وأن الشعر القليل الذى نظمه يعدل عشرات من الدواوين . . فقد كانت قصائده أساور من الماس وعقوداً ذهبية شائكة، ولكنها من ماس وذهب!

وقد شغلنا كامل الشناوى عن النظر إلى موهبته الشعرية الفذة . . هو الذى «برمجنا» على أن نضحك كلما رأيناه . . نضحك على الذى قاله بالأمس ويهمنا ماسوف يقوله اليوم . . وهو الضاحك الحزين ، والساخر الأليم والعاشق الفاشل . . وكل الشعراء الرومانسيين فاشلون ، ولولا هذا الفشل ما كانت قصائدهم الدامية الدامعة . .

* * *

إنما أردت أن أقدم المقدمات وأكتب كلمة أولى لكلمات أولى فى بعض كتبى . .

وهى كما ترى ليست مقدمة وإنما كان من الممكن أن تجىء فى نهاية الكتاب كما فعل الشاعر محمود حسن إسماعيل عندما وضع مقدمة ديوانه «أغانى الكوخ» فى نهاية الديوان . . وأدهشنى وأعجبنى ذلك . . ولم أكن قد قرأت قبل ذلك شيئا من مثل ذلك .

وسواء جاءت فى مقدمة المقدمات أوجاءت بعد المقدمات ، فقد رأيت بهذه المناسبة أن أقول ما فاتنى أن أقوله . .

وعندى حقيقة واحدة لاتتغير وهى أن الذى يفوتنى وفاتنى كثير جدا ، فلا يزال هناك ما يمكن أن يقال . . فلا تزال هناك بقية ما دامت فى العمر بقية . .

أنيس منصور

القاهرة ١٩٩٨ .

أرجـو أن تفـكـر فــى تفكيــرك (*)

إذا كان عندك وقت فاجلس فى غرفة مغلقة عليك، وحاول أن تغمض عينيك، لا لكى تنام، ولكن لكى توفر لنفسك الهدوء ولعقلك الطاقة على أن تفكر. ولن أذهب بك بعيداً، فالمطلوب منك أن تفكر فى نفسك.. لا فى الذى حدث أمس أو أول أمس.. ولا فى الذى سوف يحدث غداً، ولا فى كيف تعاقب من أساء إليك أو تكافئ من أحسن إليك.. أو فى كيف تتخلص من الذين يضايقونك، أو تزداد ارتباطًا بالذين تحبهم ويحبونك..

وليس الأمر سهلا..

فهناك مدراس فى التأمل، تطلب إليك أن تفعل ذلك مرة كل يوم ولمدة ثلاث دقائق.. فقط هذه الفترة القصيرة، أما الغرض من ذلك فهو أن تستريح عقليا ونفسيا بعض الوقت، أى أن هذه المدارس التأملية تطلب إليك أن تكسر «الدائرة» اليومية التى يدور فيها عقلك وجسمك.. فنحن - إن لم نكن نعرف - نشبه إلى حد كبير الأرض التى نعيش عليها.. فهى تدور حول نفسها وتدور أيضًا حول الشمس.. وكذلك كل الكواكب الأخرى.. والشمس أيضًا تدور.. وكل المجموعة الشمسية تدور حول الشمس وكلها تدور ضمن ملايين الملايين من المجموعات حول نفسها وفى الكون حول مركز لا نعرفه..

لماذا يدور كل شىء؟ الله أعلم!

(*) مقدمة كتابى: (القوى الخفية).

ولا أقول « الله أعلم » من باب التديُّن الشديد أو من باب الاختصار، كأننى أعلم ولا أريد أن أدخل بك فى التفاصيل، ولكن هذه هى الحقيقة . . فالله أعلم، والعقل الإنسانى لا يعلم إلا القليل جدا . .

وأنت تدور بعقلك حول عقلك أيضًا . .

ولكى أكون أوضح فى تصوير هذا المعنى، نحن مثل ثور يدور فى ساقية . . ندور دون نهاية . . صحيح أن الثور لم يختر الساقية ليدور فيها أو حولها، وإنما نحن الذين أرغمناه على ذلك . وكذلك العقل الإنسانى لم يختر أن يدور حول نفسه، ولكن من طبيعة العقل أن يدور ويلف حول شىء أو حول معنى لكى يفهمه . فالعقل لابد أن يدور، كما أن العين لابد أن ترى والأذن أن تسمع والأنف أن يشم واليد أن تمسك والساقين أن يتحركا . . فالعقل يدور بطبعه . . أو بتكوينه، أى أن الله جعله كذلك .

وكما أن العين لا تستطيع أن ترى نفسها . . فكذلك العقل لا يستطيع أن يفهم نفسه، ولكن لابد أن تنظر العين فى مرآة لترى نفسها، والعقل لابد أن يدرك غيره ليعرف حدود قدرته . .

ما الذى أريدك أن تفعله؟

أريدك أن تفكر فى نفسك . . أن تفكر فى عملية التفكير نفسها، كيف تتم؟ كيف أنقل إليك معنى من المعانى؟ وكيف تقبله أو ترفضه؟ كيف يعجبك اللون والصوت؟ وكيف تستطعم الطعام وتتذوق الموسيقى؟ . . وكيف ترفض ذلك كله؟ . . وكيف تخترع قصة لم تحدث؟ . . وكيف ترسم لوحة من خيالك؟ . . وكيف تؤلف موسيقى من وجدانك؟ . . وكيف تؤثر على إنسان فيحبك؟ وكيف تؤثر عليه فيكرهك؟ وكيف يستطيع زعيم أن يسحر الملايين وأن يجعلها تموت من أجله؟ نابليون؟ هتلر؟

ما الذى يحدث فى داخلك . . وما الذى تفعله للتأثير فى أفكار الآخرين؟ . . ما هذا الذى يجرى فى داخلك؟

كيف يحدث أن تنطق كلمة واحدة فى اللحظة نفسها التى ينطقها فيها إنسان آخر؟

كيف تحس وأنت نائم فى فراشك أن ابنًا لك أو صديقًا فى حالة خطر، فتنهض من فراشك وتتصل به فتجده كذلك . .

أو كيف تدرك الأم فجأة وهى مستغرقة فى النوم أن طفلها الصغير سوف يقع من الفراش . . ثم تنهض وتجرى إلى غرفته البعيدة عنها . . فتدركه قبل أن يسقط فعلا؟

كيف ينهض الأب يشكو من وجع فى ضرسه عند منتصف الليل . . ثم يأخذ قرصًا من الإسبرين وينام وهو مندهش لهذا الصداع المفاجئ لضرسه السليم . . وبعد أيام يتلقى خطابًا من أحد أبنائه الذين يعيشون بعيدًا عنه فيه أنه عند منتصف الليل شكا من صداع وأنه لم يسترح إلا عندما أخذ قرص إسبرين، ويقول الابن فى رسالته أو مكالمته التليفونية إن ضرسه مسوس ولابد من خلعه!

كيف يروى رواد الفضاء أنهم كانوا يتخاطبون بغير اتصال بينهم، وإنما كان الواحد منهم يخيل إليه أنه يسمع صوت الآخر فتتجه أيديهم معًا إلى إقفال صمام من مئات الصمامات، ثم يسأل الواحد منهم زميله :

هل طلبت منى ذلك؟

ويكون الرد : لم أفعل ذلك . .

ثم يسألون محطات المتابعة الأرضية : هل طلبتم منا أن نقفل صمامًا معينًا؟

ويكون الرد : لم نفعل ذلك!

إذن كيف سمع كلٌّ من رواد الفضاء صوتًا يطلب إليهم إغلاق صمام لو تركوه لأهلك السفينة؟

كيف تفسر لنفسك إذا ذهبت إلى مدينة لأول مرة شعورك بأنك رأيتها قبل ذلك . . ما معنى هذا الشعور؟

وما معنى أن تتصور وأنت فى هذه المدينة أنك إذا اتجهت يمينًا سوف تجد محلا للعب الأطفال، ثم تتجه يمينًا وتجد المحل، مع أنك لم تر هذه المدينة من قبل ؟

كيف تفسر أن واحدًا من الناس يستطيع أن ينقل أفكاره كلها إلى واحد آخر يبعد عنه مئات الأميال، وكل ما حدث بينهما هو أنهما اتفقا على أن يفكر كل منهما فى

الآخر فى لحظة واحدة، وفى هذه اللحظة يمسك واحد منهما ورقة مكتوبة ويقرأ ما فيها، فما كان من الثانى إلا أن كتبها على الورق. وبمقارنة ما كتبه هذا وما قرأه ذاك، نجد أن الكلام واحد تمامًا! كيف؟ ولماذا يحدث ذلك لبعض الناس وليس لكل الناس؟

كيف حدث أن عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر ثم خرج عن الخطبة ووجه حديثه إلى شخص ليس موجودًا.. ولما سألوه قال إنه رأى أحد قادة المسلمين فى خطر أمام قوات الكفار..

ولما سألوا القائد العربى قال: إنه سمع صوت عمر..

كيف رآه؟ وكيف سمعه؟

أذكر أننى ركبت القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، وأغفيت لحظات وصحوت مفزوعًا فقد رأيت فى نومى أن حقيبة قد سقطت فوق رأسى..

وبعد لحظات اهتز القطار فسقطت حقيبة أمامى، وبعيدة عنى. كيف؟

ماذا نقول عن قطة أخذوا منها صغارها، ووضعوا الأم فى غرفة من زجاج، وصغارها فى غرفة بعيدة عنها، ولكنهم راقبوا الأم والصغار فى وقت واحد.. وكلما وخزوا واحدًا من صغارها بدبوس انتفضت الأم مع أنها لا تراه ولا تسمعه.. ولما أبعدوا عنها صغارها ألوف الأمتار انتفضت الأم بعدد كل المرات التى وخزوا فيها الصغار؟

كيف نفسر تجربة قام بها بعض العلماء السوفييت عندما أخذوا صغار أنثى كلب البحر.. ونقلوها فى غواصة تبعد عن الشاطئ مئات الأميال، وعن سطح الماء ألوف الأمتار، فكانوا كلما وخزوا واحدًا من صغارها ارتعدت الأم.. فلما ذبحوا واحدًا راحت الأم تصرخ وتبكى - رغم المسافة الهائلة بين الأم وصغيرها؟

كيف نفسر ما يحدث إذا طلبنا إلى إنسان أن يتخيل أهرام الجيزة، ثم نطلب إليه أن يركز تفكيره فى ذلك وأن يفتح عينيه ثم نلتقط له صورة، وعندما يتم طبع هذه الصورة فإنك تجد هذه الأهرام قد ارتسمت فى عينيه؟ كيف رسمها فى عينيه ثم كيف نقلها إلى الكاميرا.. إلى الصورة؟

ما الذى يجعل النمل يهتدى إلى أوكاره؟

ما الذى يجعل الطيور تهاجر دون أن تخطئ من قارة إلى قارة، وكذلك الأسماك . . وتفعل ذلك ملايين السنين؟

بأى شيء يهتدى حمام الزاجل . . بالنجوم . . بجاذبية الأرض . . بالرطوبة فى الهواء . . بماذا؟

ما معنى أن ينظر أحد إلى ساعة فى يدك فيحطم زجاجها؟ ما معنى أن تبدى سيدة إعجابها بفستان سيدة أخرى فيطير عود كبريت من أقصى الغرفة ليستقر على الفستان فيحرقه؟ ما معنى هذا الحسد؟ ما معنى أن ترغب فى الإساءة إلى إنسان فتتحقق الإساءة بأن يتعثر فيقع، وبأن ينكسر ما فى يده؟

ما معنى أن يرفع إنسان يده فى الهواء ويشير إلى نجفة معلقة فإذا هى تتحرك عن بعد يمينًا وشمالا؟ . إنها ظاهرة الحسد نفسها . . فالحسد تحريك أو «تحريق» للأشياء عن بعد؟

ما هذا الذى فى داخلنا؟ فى عقولنا؟

ما الذى ينبغى للإنسان بعد أن يموت؟ وهل يموت الإنسان حقا؟ وإذا مات فأين يذهب؟ فهل تحل روحه فى جسم إنسان آخر أو حيوان آخر؟

ثم ما هى «روحه»؟

ما معنى استحضار الأرواح . . ما معنى الملائكة والشياطين والعفاريت ـ كلها أرواح؟

كيف تفسر أن يجيء طفل صغير ويقول لك : لقد عشت فى الإسكندرية من مائة سنة؟

ولا يزال البيت الذى ولدت فيه موجودًا، وكنت أبًا ومات أولادى وانتحرت زوجتى؟

ثم تذهب أنت إلى الإسكندرية لتجد البيت نفسه، وتسأل الذين يعرفون فيؤكدون لك أن كل المعلومات التى لديك صحيحة!

فكيف عرف طفل صغير؟ وكيف عاش وكيف مات ؟ إن كان قد مات، وكيف انتقلت روحه إلى جسم إنسان آخر؟ . .

ثم كيف تفسر ما تم فى جلسات استدعاء الأرواح؟ كيف يقول «الوسيط» وهو الإنسان ذو الشفافية الخاصة والاستعداد لأن ينقل إليك أشياء من عالم لا تعرفه، كيف تفسر أن يحدثك بلغات لا يعرفها هو . . وعن أشياء لا يعرفها هو . . وأن يشرح لك قضايا لا يعرفها ويستحيل أن يكون قد عرفها؟

ما معنى «الوسيط»؟ وهل معناه أنه وسيط بيننا وبين آخرين؟ . . فمن هم الآخرون؟ وكيف تتم هذه الوساطة؟

كل ذلك فى داخلك وبسبب ما هو موجود فى داخلك، ولكنك لا تعرفه؛ فليس لديك وقت لأن تجلس إلى نفسك، وحتى لو جلست فليس من الضرورى أن تعرف ذلك، فالمسألة ليست مسألة وقت، وإنما هى مسألة «قدرة» خاصة فأنا لو أعطيتك جهازاً خاصا للتلفزيون وأغلقت عليك الباب مدى الحياة، فهل تعرف ماذا يفعله هذا الجهاز؟ فلكى تعرف أسرار هذا الجهاز لابد أن تكون متخصصًا، ولكن إذا لم تكن كذلك، فالوقت والتأمل والتفرغ لا يكفى لأن تعرف أى شىء!

فهل أنت وأنا قد تخصصنا فى التفكير فى أعماقنا؟ هل نحن نعرف كيف نفكر فى أفكارنا؟

نحن نستطيع أن ننظر إلى شجرة . . ونقول: طويلة قصيرة خضراء . . برتقال أو توت . . فقط، ولكن عالم النبات يرى فيها أكثر مما نرى.

وكذلك إذا نظرنا إلى النجوم، نراها أجسامًا لامعة بعيدة! ولكن عالم الفلك يرى أكثر وأعمق.

وإذا نظرنا إلى أجسامنا، فإننا لا نعرف كيف تتدفق عصاراتها وتفرز غددها، ولا ما هو المرض والصحة، إلا إذا كنا أطباء . . فليس كل صاحب جسم قادر على فهمه أو علاجه.

وكذلك ليس كل صاحب عقل قادر على فهمه أو علاجه.

ولا كل صاحب عقل قادر على فهم عقله ولا معرفة هذه القوى التى تحركه وتتحرك فيه، وتنقل أفكاره إلى الآخرين . .

وكان أستاذنا العظيم سقراط يقول لنا : اعرف نفسك بنفسك!

وقد مات سقراط منذ ألوف السنين وهو يتصور أن نصيحته القليلة الكلمات هى أسهل وأبسط ما يمكن أن يقال لنا، والحقيقة أنها صعبة جدا وليس أصعب ما فيها أن يعرف الإنسان نفسه، ولكن الصعب جدا هو أن يعرف نفسه «بنفسه». فمن السهل أن أعرف جسمى عن طريق ما يقوله الأطباء، وأن أعرف الكواكب مما يكتبه الفلكيون . . وأن أعرف الأشجار والحيوانات من قراءة كتب النبات والحيوان . .

ولكن الصعب أن أعرف ذلك بنفسى.

فليس أصعب من أعرف أنا نفسى أنا، فلست مؤهلا لمعرفة عقلى بعقلى، لأن هذا يحتاج إلى تخصص، إلى علم.

حتى علماء النفس والفكر والمنطق والتاريخ لا يعرفون بالضبط ما هذا الذى يحدث فى داخل العقل الإنسانى . .

إنهم يفسرون التفكير الإنسانى فيقولون : إن الأفكار مثل الكهرباء . . أو المغناطيسية . . أو إن عملية التفكير تفاعلات كيمياوية . .

وإن العقل به خاصية غريبة هى للتفكير والإبداع، وبه ذاكرة تحفظ الأرقام والأحداث . . وقادرة على استرجاع كل شىء وتخيله . .

وإذا نحن كسرنا دماغ أى إنسان فإننا نجد المخ مجرد مادة رمادية اللون لا تختلف من أى إنسان إلى إنسان آخر . . ومع ذلك فعقول الناس مختلفة.

وقد ظن العالم الرياضى الكبير أينشتين أن شيئًا ما فى مخه يختلف عن سائر البشر، لأنه كان رجلا عبقريا. وبعد وفاته فتحوا دماغه، وأخذوا مخه، ولم يجدوا أى فارق بين مخه وبين مخ خادمه الذى يعمل فى بيته.

إذن ما هذا الذى يجعل إنسانًا عبقريا ويجعل إنسانًا غبيا ما دام المخ واحدًا فى لونه وحجمه ووزنه . . أى ما دام العقل واحدًا؟

إننا فى حيرة ، والحيرة هى بداية الهداية . . وفى قلق، والقلق هو بداية الاطمئنان . . والتساؤل بداية البحث عن إجابة . . والشك بداية المعرفة . .

والمعرفة هى بداية معرفة الإنسان لنفسه وبنفسه . .

إن العلوم الحديثة : علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والكيمياء والفيزياء والشريعة الدينية كلها تحاول معًا وفرادى أن تجد تفسيرًا لهذا السلوك الغريب من الإنسان . .

أو لهذه القدرات الخفية فى داخله . . والتى يفاجأ بها عندما يرى نوعيات غريبة من الناس . .

ويكون استنتاج الإنسان بعد ذلك أن هذه القدرات الخفية موجودة عند كل الناس ، ولكنها ظاهرة عند البعض وخافية عند البعض الآخر ، ولكننا يجب أن نعرفها من أجل تنميتها والاستفادة منها عند الجميع . .

وقد حاول العلماء أن ينقلوا مخ إنسان إلى إنسان آخر . .

فقد جربوا ذلك فى الحيوانات . . فكانت تجاربهم على الفئران؛ نقلوا إليها خلايا فئران أكبر سنا ، فكانت الفئران الصغيرة تخاف من أشياء لا تعرفها وإنما كانت الفئران الأكبر قد عرفتها . . ومعنى ذلك أن العلماء استطاعوا نقل «تاريخ» فأر إلى فأر آخر . . أى تجارب فأر إلى فأر آخر .

وقفز العلماء إلى فكرة نقل مخ أينشتين إلى علماء آخرين . . وبذلك يوفرون على العلماء التعب ويمدونهم بعناصر العبقرية . . وبذلك لا ينقطع تاريخ الإنسان ولا تجاربه . ولم تلفح هذه التجربة ، وبقى العقل لغزًا ، وقواه الخفية أكثر خفاء !

ثم ما الذى يجعل إنسانًا يرى أشياء ولا يراها غيره؟ ما الذى يجعل إنسان يجتذب الأشباح ، ولا يفعل ذلك إنسان آخر؟ ثم ما هذه الأشباح؟ هل أرواح أناس ماتوا . . أو هى أرواح تنتظر دورها لكى تدخل أجسام صغار البشر أو صغار الحيوانات؟

كيف نفسر البيوت التى تحترق لمجرد أن يوجد فيها بعض الناس ، كيف نفسر

احتراق الملابس الملاصقة للجسم دون الملابس الخارجية؟ كيف نفسر صوت الأطباق والسكاكين فى البيوت التى لا يسكنها أحد؟

إن العلماء اليوم يؤكدون لنا أن النباتات أيضًا تشعر بالحيوانات. . وأن الأجهزة الإلكترونية قد سجلت لغة للنبات تعلن عن قدوم العصافير أو الفراشات؟ كما أن الأجهزة الحديثة قد أكدت لنا أن النباتات إذا قطفنا منها زهرة أو قطفنا منها غصنًا فإنها تبكى أو تنزف. وقد تم تسجيل ذلك؟

وكيف أن الموسيقى تنعش النبات والحيوان؟

وكيف أن حنان هواة الورود يجعل الورد أكثر نضارة. . وكيف أن «الشخط والنطر» فى الزهور يجعلها تذبل!

إن الرسول عليه السلام يؤكد فى أحاديثه الشريفة أن النخيل تبكى! ولم نفهم ذلك، واليوم نصدقه.

ما هى هذه «اللغة» التى يتفاهم بها الكون كله؟. . ما هذه الموجات؟ ما هذه الأصوات، ما هذه العطور، ما هذه الإشارات التى تملأ الدنيا حولنا ولها معنى واحد: أن هناك عقلا وحكمة تستوعب الدنيا وتمسكها؟

إن العقل الإنسانى لغز كبير. . وإننا نحاول أن نفهمه. .

ولكن الوسيلة التى نحاول بها أن ندرك معنى العقل وقواه الخفية، هذه الوسيلة ضعيفة. . فنحن الوسيلة. . فنحن نبحث عن شىء فى داخلنا لا نراه. . ولا نعرف كيف نستخرجه لنراه أو نسمعه أو نشمه. .

كأننا نحاول أن نرى وجوهنا فى غرف مظلمة تمامًا تغطت جدرانها بالمرايا. . إننا نلمس المرايا. . وعلى يقين من وجودها. . ولكن لا يوجد لدينا شعاع ضوء يمكننا من ذلك!

فقط عندما يحدث لنا شىء غريب. . أو نرى إنسانًا غريبًا. . فقط ندرك أن هناك الكثير جدا الذى نعرفه ولسنا على يقين منه. . أو نحن على يقين منه، ولكننا لا نعرف كيف حدث. .

إننا فى أول الطريق إلى شىء مات فى أعمق أعماقنا!

وداعًا أيها الملل (*)

ما معنى أن يولد العفن فى تفاحة؟

معناه أن يولد الموت فى أحلى كفن، وفى أجمل نعش؟

معناه أننا نحمل الموت معنا فى كل خلايانا . . فكل خلية هى نقط وثوب لعزرائيل . . فما أكثر ملايين النقط التى يختفى فيها الموت فى أجسامنا، وفى حياتنا كلها!

ولكن فى حياتنا شىء آخر، ليس هو الموت، ولكنه نوع من عدم الشعور بالموت . . ولا بالحياة أيضًا!

شىء ناعم الملمس . . يسرى فى أجسامنا كأنه خدر . . كأنه ملايين النمل .

إنه يحول أيدينا وأرجلنا إلى أكياس من النايلون محشوة بملايين من ذرات الرمل . . أو النمل .

وهذا الشعور «بالتنميل» أو «بالترميل» . . أى الذى يجعلنا كالنمل أو كالرمل، هو الذى نسميه بالملل . .

والذى يشعر بالملل ليس هو الذى لا يرغب فى الحياة . . وليس هو الذى لا يرغب فى الموت .

لأن الذى لا يرغب فى الحياة، يرغب فى الموت . . والذى لا يرغب فى الموت يرغب فى الحياة . . فكلاهما يرغب فى شىء . ولكن الذى يمل، أو الذى يتململ هو إنسان لا يرغب حتى فى الرغبة .

(*) مقدمة كتابى : « وداعا أيها الملل» .

فالذى عنده ملل يشعر أنه ليس على صلة بالواقع . . أنه منعزل . . أنه معزول . . أنه منقطع . . أنه مقطوع . . وأنه لا توجد لديه وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى .

كأن هذا الإنسان المملول - إذا صح التعبير - بلا يدين ولا رجلين . . لا توجد عنده أطراف للاتصال بالدنيا حوله .

أو بعبارة أخرى : إنه يشعر بأن الواقع نفسه بعيد عنه . . كأنه ينظر إليه من العدسة الصغيرة فى النظارة المعظمة . . فكل شيء على مسافة منه . . والمسافة بعيدة ووسيلة المواصلات صعبة . . أو لا توجد وسيلة للمواصلات .

فالإنسان المملول إنسان فى حالة عجز عن الاتصال بالغير أو أنه إنسان عنده إحساس بأن الآخرين عاجزون عن الاتصال به ، ومعنى ذلك أن هناك نقصًا فيه هو ، أو نقصًا فى الواقع ، وأن هذا النقص جعله «قعيدًا» ، جعله جامدًا فى مكانه ، ربطه بمقعده وسمر مقعده فى الأرض ، كلما اقتربنا من الواقع ابتعد عنا ، وكلما اقترب الواقع منا ابتعدنا عنه ، أو شعرنا بأننا بعيدون عنه .

إن تنتالوس البطل اليونانى هو أحسن نموذج لهذه الحالة من العجز فقد حكمت عليه آلهة اليونان بأن يتعذب إلى الأبد . . إذ وضعوه فى بحيرة من الماء العذب وهو تحت أشعة الشمس . . وكلما ارتفع الماء إلى شفتيه ، وحاول الانحناء انحسر الماء إلى قدميه ، فإذا اعتدل فى وقفته ارتفع الماء مرة أخرى ، فإذا حاول أن يبلل شفتيه انحسر الماء . . وهكذا إلى الأبد . .

وحكمت عليه الآلهة أيضًا أن يتدلى من شجرة تفاحٌ ، وكلما مد يده إلى تفاحة ابتعدت التفاحة . . فإذا عادت ذراعه اقتربت التفاحة ، وإذا حاول أن يختطف التفاحة تباعدت عنه . . وهكذا إلى الأبد .

وحكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف . . وفى لحظة ينهار حجر فوقه ويمس شعره دون أن يصيبه فإذا وقف ارتفع الحجر فإذا جلس هبط الحجر . .

وهكذا ، يبقى تنتالوس فى حالة خوف أبدى .

ولكن تنتالوس لم يمل ، إنه كان يعلم أن هذا الحكم أبدى ، ومع ذلك لم يستسلم

لهذا الحكم ، فقد ظل يعلو ويهبط ، ويمد شفتيه ويمد يديه ويرفع عنقه . . كان هناك أدنى أمل أن يذوق الماء أو يتذوق التفاح أو يزول الخوف .

إن عيب تنتالوس أنه لا يعرف الملل . . لقد كان عاجزًا تمامًا . . فالتكرار لم يحطم إرادته ولم يحول أعصابه إلى عضلات ، لم يحول عضلاته إلى ملايين النمل ، إلى ذرات رمل ، لم يكن هو كيسًا من النايلون ملقى على الأرض .

إن تنتالوس بطل لأن جسمه لم يعرف العجز ، ولأن نفسه لم تعرف الملل .

إن الشاعر الإنجليزى مارلو قد كتب لنا فى مسرحية «الدكتور فاوستوس» هذا الحوار بين الطبيب فاوست وبين الشيطان مفيستوفليس :

فاوستوس : قل لى من هو إبليس ؟

مفيستوفليس : إنه قائد الأرواح .

ـ لم يكن ملاكًا قبل ذلك؟

ـ بل كان أحب الملائكة إلى الله .

ـ إذن كيف أصبح بعد ذلك أميرًا للأشرار؟

ـ بالغرور والوقاحة .

ـ وأنتم تعيشون معه؟

ـ نحن الأرواح الشقية التى سقطت معه وتآمرنا على الله معه .

فلعننا إلى الأبد؟

ـ وأين تعيشون؟

ـ فى جهنم .

ـ ولكنك لست فى جهنم؟ !

ـ هل الذى أحس برحمة الله وعرف السعادة الأبدية فى السماء ، ثم هو الآن محروم منها . . ألا ترى أن هذا أسوأ من جهنم ألف مرة!

إن هذا الشيطان على حق، فهو يعانى عذابًا أقسى من عذاب جهنم. ولكن هذا الشيطان لم يفقد الأمل، إنه لا يزال يدرك الفارق بين النعيم والجحيم، إنه لا يزال يتحسر على هذا الذى راح، إنه لا يزال يشعر بأنه أخطأ وأنه نادم على ما فعل.

ولذلك رأينا الكاتب الإيطالى بابينى فى كتابه عن «الشيطان» يعتقد أن إبليس والشياطين جميعًا سيدخلون الجنة يوم القيامة، لأنهم ندموا بما فيه الكفاية، ولأنهم تعذبوا بما فيه الكفاية.. ولأن لديهم أملاً فى رحمة الله، فلا يمكن أن تقف رحمة الله دون الشياطين، فرحمة الله لا حدود لها، وهى لذلك تتسع للإنسان وللشيطان.

فهو يرى أنه حتى الشياطين لم تفقد الأمل، وهى لم تفقد الأمل لأنها لم تعرف الملل، لأنها لم تمل من اليأس، لم تمل الجحيم لأن الجحيم المستمر لم يفقدها الشعور به، والشعور بغيره.. أى الشعور بالنار وبالجنة!

فالإنسان «المملول» هو الإنسان الذى مل الأمل ومل اليأس.. وهو قد مل كل شىء، لأن كل شىء لا يصل إليه، لأن كل شىء أقصر من أن يناله.. وهو أقصر من أن ينال أى شىء، وكل شىء أقصر من أن يتطاول إليه!

تمامًا كما نضع على أجسامنا لحافًا قصيرًا.. إذا سحبناه على أقدامنا تعرت رؤوسنا، وإذا غطينا به رؤوسنا تعرت أقدامنا.

فالواقع لا يعطينا.. لا يكفينا.. ولذلك فنحن نمله.. نحس بمرارته على شفاهنا، أو نحس به كالصمغ على أجسامنا.. إنه يقرفنا لذلك لانمد أيدينا إليه.. أو نحن الذى نقرفه، فهو لايمتد إلينا!

والفيلسوف الوجودى ياسبرز يقول: العلاقة التى تربطنى بمن حولى هى أننى على صلة ما بالذين حولى، ولابد أن تكون هناك صلة.. والإنسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده.

ولذلك فالذى يعيش بمفرده، أى بغير أن تكون له صلة بالآخرين، هو: الله سبحانه.. والحيوانات!

فالله ليس فى حاجة إلى أحد، ولذلك ليس على صلة بأحد لأنه قائم بنفسه.

والحيوان يستطيع أن يعيش بمفرده، لأنه عاجز عن الإحساس بغيره أو حتى الإحساس بنفسه.

ولكن الإنسان يستطيع أن يعش أيضًا بمفرده عندما يكون فى حالة ملل.

فهو يصبح معزولاً عن غيره، كأنه ليس فى حاجة إلى أحد. كأنه إله.. أو كأنه لا يشعر لا بغيره ولا بنفسه كأنه حيوان!

والملل يشبه إلى حد كبير انقطاع التيار الكهربى.. فانقطاع النور الكهربى يجعلنا نرى الدنيا التى حولنا فى حالتين متناقضتين.. فعندما نضىء الغرفة مثلاً، نرى كل شىء بوضوح.. المكتب والمصباح والمقاعد.. كل شىء فى مكانه وبلونه وبحجمه.. وعندما ينطفئ المصباح يختفى كل شىء فى الظلام.. وتغرق هذه الموجودات فى حالة من العدم المؤقت.. فالملل يشبه حالتنا عندما ينطفئ النور.. إن الملل ليس هو الظلام الذى يبتلع كل ما فى الغرفة، ولكنه الشعور باختفاء كل ما فى الغرفة.. الملل ليس هو الاختفاء نفسه، ولكنه شعورنا باختفاء شىء.

والملل يشبه أيضًا انقطاع الماء الساخن ونحن نستحم.. فقبل انقطاع الماء نشعر بالدفء والانتعاش ونحس كأن الماء يقوم بتدليك عضلاتنا وأعصابنا، ويغسل متاعبنا، ويلقى بها مع الصابون فى البالوعة فلا يكون لهذا كله إلا صوت غريب.. صوت الماء وهو يتمشى فى البالوعة.

وعندما ينقطع الماء نشعر بضياع الدفء، ونشعر بالبرودة..

فانقطاع الماء ليس هو الملل ولكن شعورنا بأن الدفء قد انقطع.. بأن بالوعة أخرى قد انفتحت وابتعلت شيئًا حارا مريحًا كان يغمرنا، هذا هو الملل.

وهذا الملل أيضا الذى يصيبنا يجعلنا أقل تذوقا للدنيا.. يجعل طعمها على اللسان غريبا.. ويجعل ألوانها فى العين غريبة، ورنينها فى الأذن غريبًا، وملمسها فى اليد غريبا أيضا.

فالملل هو الذى يجعل كل ما حولنا غريبا.. أو يجعلنا نحن غرباء فى هذا العالم.. وغرباء عنه..

فالشعور بالغرابة، والشعور بالغربة، والشعور بالاغتراب هو بداية الملل.

فالملل يجعل العين تأنف من الرؤية، ويجعل الأذن تعاف الاستماع، ويجعل أيدينا فى حالة غثيان من لمس كل ما حولنا.

ويحس الإنسان كأن مرضا أصاب الدنيا.. أنها بدأت تذوى وتجف وتتساقط.. إن الملل هو إعلان خطير عن بداية الخريف والشتاء فى عز الربيع.

والملل مرض شديد العدوى..

هذا المرض الذى أصابنى وانتقلت عدواه إلى كل ما حولى هو الملل.

فأنا فى حالة الملل، لا أعرف بالضبط إن كنت أنا المرض أو أنا المريض، ولا أعرف إن كنت أنا المريض الذى انتقلت عدواه إلى غيره أو أنا الضحية لمرض الآخرين!

والملل كالمرض، من الممكن أن يصيبنى دون أن أشعر به... وليس معنى عدم شعورى بالملل أننى لست فى حالة ملل، فمن الممكن أن يشكو الإنسان من أوجاع فى ركبته دون أن يعرف أن سبب هذه الشكوى تسويس فى أسنانه، أو يشكو من الصداع دون أن يعرف أن سبب الصداع هو ضغط الدم، أو التهاب فى المصران الغليظ.

إن الكثير من متاعب الأطفال والمراهقين سببها أنهم يشكون من الملل أو يشكون من السأم أو الزهق.. فالذى يشكو منه الطفل الصغير عندما يحطم أدوات البيت، ولا يقنع بالتوجيه من أمه أو أبيه ليس مللاً، ولكنه نوع من الملل إنه الزهق.. فهو ليس أكثر من رغبة فى تغيير شىء.. ليس أكثر من رغبة فى أن يجدد صلاته البسيطة بالعالم الذى حوله.

أما الذى يصيب الكبار، الذين تعددت صلاتهم بالعالم، وتعبوا من حياتهم، وأتعبوا حياتهم أيضًا، فليس زهقًا، ولكنه شىء أعمق وأعتقد: أنه الملل.

هذا الإحساس الذى يجعلنا نجد صعوبة فى أن نتصل بغيرنا.. فى أن تصل إلى غيرنا أنظارنا، لأن وسيلة المواصلات أو الاتصال بالغير هى اللغة، هذا الإحساس هو الملل فى أعلى درجاته.

فاللغة مربوطة بسلاسل اسمها المنطق، أو قواعد العقل . . حتى هذه السلاسل لا تربط اللغة، إنها تخنقها . إذن فالعقل هو خانق اللغة . . وعلى ذلك فأية لغة عقلية هي لغة مجنونة . . وأى معنى تنقله هو جثة معنى .

ولذلك فوسائل الاتصال بالغير ميتة . . فالإنسان حى، ولكن مواصلاته ميتة . . إنه جثث ألفاظ، وقبور معان، وعفن فكر .

ومن هنا ظهرت كل الاتجاهات الأدبية والفنية التى تقول إن كل شىء ممل . . كل شىء سخيف لا معنى له، وإذا كان له معنى فالمعنى تافه . . فلا معنى لشىء، ولا طعم ولا فائدة من الكلام عن شىء .

ولم يقل أدباء اللامعقول أو أدباء العبث غير أن الحياة مملة، وأنها عبث، أى بلا عقل، أى أنها موجودة بلا مبرر، فلا مبرر لوجودى أو لوجودك . . أو للوجود كله !

وعندما صدرت قصة «الملل» لأديب إيطاليا ألبرتو مورافيا استقبلها الناس بشىء من الفتور، وأحس المؤلف أن هذا الاستقبال هو أعظم تحية له ولقصته الطويلة .

فكأن الناس قابلوا الملل بالملل .

كأنهم وضعوا على وجوههم الأقنعة المملة، التى تناسب رواية تتحدث بمتعة عن حياة لا متعة فيها .

وبعد هذه الرواية ظهرت فى إيطاليا أفلام تتحدث عن الملل . . عن مدينة روما ـ وكل عاصمة أخرى ـ التى تتثاءب وتتلوى فى كسل . . إنها تتثاءب فيفتح اليأس بيوتهم، ويخرجون كأنهم مغص تتلوى به شوارع روما . . إنها تلفظ ساكنيها . . فى قرف يومى مستمر . .

وكل العواصم تتثاءب، وكل سكان العواصم فى قرف . . ومعظم المدن أصبحت تقلد العواصم ؛ ولذلك فالعالم يعيش فى عصر الملل .

وقد حاول مورافيا فى قصته «الملل» أن يقدم لنا فلسفة الملل . . وكيف أن هذه الفكرة قد ملأت حياته، وكيف أنه حاول التخلص منها بالتفكير فيها . . أى بالنظر إليها من بعيد . . أى بالتسامى عليها .

ومورافيا يؤكد لنا أن هذه مجرد فكرة خطرت له، وأن وقته لم يتسع لدراستها. . أو أن وقته يتسع ولكنه مل التفكير فى الملل.

فهو يقول لنا إن أول آية فى الكتاب المقدس تنص على : أنه فى البدء خلق الله السموات والأرض. .

وأنه شعر بالملل.

وبعد ذلك خلق آدم وحواء.

وآدم وحواء شعرا بالملل فى الجنة فارتكبا أول خطيئة. .

ثم ملأ الحياة على الأرض، فارتكب أحد أبنائهما أول جريمة، فقتل قابيل أخاه هابيل.

ونوح عندما نزل إلى الأرض مل الحياة عليها فاخترع النبيذ. .

وجاءت الإمبراطوريات القديمة الواحدة بعد الأخرى. . إمبراطوريات مصر، وبابل، والإغريق، والرومان.

ومن الوثنية خرجت المسيحية. .

ومن الكاثوليكية خرجت البروتستانتية.

ومن الملل من أوروبا ظهرت أمريكا.

ومن الملل من الكرة الأرضية ظهرت الأقمار الصناعية. .

ومن الملل من الإقطاع اشتعلت الثورة الفرنسية. .

والملل من الرأسمالية أدى إلى قيام الثورة الروسية.

ومن الملل من المثالية ظهرت الشيوعية. .

ومن الملل من الشيوعية ظهرت الوجودية. .

ومن الملل من المثالية والمادية والوجودية ظهرت اتجاهات اللامعقول فى المسرح وفى الشعر وفى الرسم. . فى أوروبا وفى أمريكا وأخيراً فى العالم العربى.

ثم ظهرت الفلسفة «البنائية» عند «كلود ليفى - إشتراوس» وغيره . .

ولابد أن تنتهى موجة اللامعقول بشىء جديد معقول جدا . . أو أكثر تطرفًا فى العقل والمنطق، أى لابد أن يظهر شىء معقول جدا بشكل غير معقول، أى لابد أن يعقل - أى يربط - العقل نفسه .

وليست جرائم الأفراد إلا بسبب الملل الذى أصاب المجتمع . .

وليست الحروب إلا بسبب الملل الذى أصاب الشعوب . .

فكما أن المجتمع يريد أن يتسلى . . يريد أن يفيق من ملله، فهو يستدرج أفراده إلى إطلاق النار، وإسالة الدم . فالمجتمع يلطم نفسه بيده لكى يصحو .

لقد كان الشاعر الألمانى شيلر عندما يغلبه النوم من التعب، يضع مصباحًا قريبًا من وجهه، فكلما غلبه النوم قرب رأسه من النار ليصحو . . فهو يوقظ نفسه بالنار .

وكذلك الشعوب توقظ نفسها بالنار . . توقظ نفسها بأن تحرق أفرادها، مئات الألوف من أفرادها، حتى لا يروح الباقون ضحية الملل، ضحية شعور يأكل كل شعور آخر . . ضحية سوس يتسلل إلينا ويأكلنا من داخلنا . . ضحية شىء غريب يدخلنا فيحولنا إلى قبور له . .

فكل ميكروب يتسلل إلى جسمى، إلى دمى، يصيبنى بمرض . . وهو فى الوقت نفسه يعمل على تحويلى من كائن حى إلى مقبرة لكائن حى . . إلى مقبرة لى . . إلى إنسان لا يحمل ملابسه وإنما يحمل كفنه . . إلى إنسان يمشى فى جنازة نفسه . . إلى إنسان هو الميت وهو النعش وهو المشيعون وهو المقبرة أيضًا!

هذا السوس الغريب، الذى يتسلل إلى داخلى هو الملل . . فالشعوب بدلاً من أن تقتل الملل تقتل الألوف من أبنائها . . تقطع رجلها بيدها، تقطع رقابها بعقلها . . تحرق الملل بالنار . . وتغرقه فى الدم .

وقد كان الرومان يطلقون الوحوش على المساجين . . ويتفرجون عليهم بالحماس نفسه الذى يتفرج به الأسبان على مصارعة الثيران . . ويتفرج به أبناء أندونيسيا على مصارعة الديوك . . ويتفرج به اليابانيون على المصارعة اليابانية . . لقد كان الرومان يعانون من الملل .

فلا بد أن يقتلــوا الملل . . ولابد أن تكون هناك دماء حية . . دماء حيوانات أو دماء بشر .

والملك شـهريار فى «ألف ليلة وليلة» كانت تروى له شهر زاد قصة كل يوم . . وكانت قصصها مسلية .

فقط ألف قصة وقصة . . ولكنها لا تستطيع أن تروى كل يوم قصة . . وحتى لو استطاعت ، فكيف يستطيع إنسان واحد أن يسمع من امرأة واحدة ألوف القصص . . إن القصة قد تكون مثيرة . . ولكن كيف تكون امرأة واحدة مثيرة دائمًا .

وإذا كانت المرأة مثيرة ، فكيف يكون الرجل هو نفسه مستمتعًا ممتعًا طوال الوقت؟ كيف لا يملها؟ كيف لا تمله!

ولذلك أنا لا أعتقد أن ألف ليلة وليلة بدأت عندما قتل الملك شهريار زوجته لأنه وجدها فى حضن أحد عبيده .

أنا أعتقد أن الملك شهريار كان يجب أن يقتل شهر زاد . . بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف .

فمقتل شهر زاد . . بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف هو البداية الحقيقية لقصة ألف ليلة وليلة . . فليس من المعقول أن يقبل رجل واحد قصة واحدة مسلسلة من امرأة واحدة .

وإذا كان الملك شهريار لم يقتل شهر زاد فى النهاية . . أو لم تقتله شهر زاد فى النهاية . . فسبب ذلك أنهما لم يعرفا الملل .

بل إن مؤلفى ألف ليلة وليلة لم يعرفوا الملل . . ولو عرف المؤلفون الملل ، لقتلوا شهريار أو شهر زاد .

أما نحن الذين نعانى الملل ، فلا بد من أن نبدأ قصة شهر زاد بأن يقتلها الملك فى النهاية .

وأنا أعتقد أن شهر زاد عندما كانت تتثاءب فى نهاية كل ليلة ، لم يكن هذا

التثاؤب نفسيا . . أو فلسفيا . . إنه تثاؤب جسدى . . إنها متعبة فقط . . هى متعبة أو المؤلف متعب .

ولابد من إنهاء هذه الحلقة واستئنافها فى اليوم التالى . .

فالتثاؤب فى ألف ليلة مضبوط مع صياح الديك . .

حتى الديك لم يعرف الملل !

ولكن ألا توجد وسيلة للخلاص من الملل؟

هل الملل قد أصبح كلون البشرة ، لايمكن أن يزول إلا بزوال صاحب البشرة؟

هل الملل أصبح كالبقع الموجودة فى جلد النمر . . لا أمل فى غسلها؟

أيوجد هناك أمل؟

هذا الملل يدل على أننا لم نمل بما فيه الكفاية . . أو على أن هناك نوعًا من المسام ، من الفتحات الصغيرة فى الكيس النايلون الذى اسمه الملل . .

حتى ألبرتو مورافيا عندما ضاق بالملل ، راح يفكر . . تمامًا كما فعل نوح قبل أن تغرق الدنيا . .

لقد صنع سفينة من الخشب ، والسفينة عبارة عن ألواح خشبية ، هذه الألواح موضوعة بعضها إلى جوار بعض . أى أن هناك فكرة فى رأس نوح ، وهذه الفكرة تجسدت على شكل سفينة .

وهذه السفينة ، أو هذه الفكرة الخشبية ، هى التى أنقذت نوح من الطوفان .

والطوفان الحديث اسمه الملل . . ونوح الجديد اسمه الحب . . فالحب هو الذى يصنع السفينة . . هو الذى يضم غصنًا جافا إلى جوار غصن جاف ويبنى فوقها بيتًا . . هذا البيت العائم هو السفينة .

وقد كانت سفينة نوح تضم كل أنواع الحيوانات والبذور . . لقد كانت السفينة دنيا صغيرة .

ففى مواجهة الطوفان والضياع، يجب أن نصنع دنيا صغيرة . . هذه الدنيا يجب أن نحيطها بأنفسنا . . أو نجعل هذه الدنيا هى أنفسنا . . فنحن الدنيا . . نحن دنيا أنفسنا . . نحن غاية لأنفسنا . . نحن الوسيلة الوحيدة لإسعاد أنفسنا وإنعاش أنفسنا أيضًا .

فكما نبنى السفينة، تكون رحلتنا عبر الطوفان .

إن مورافيا وجد أن الحل الوحيد للهرب من الملل، أو لأن نمل مللنا هو أن نحب . . أن نجدد صلاتنا بالعالم الخارجى . . أن نحس أن هناك صلة . . وأن كل شىء فى متناولنا . . وأن كل ما فى الدنيا هو عبارة عن يد ممدودة لتصافحنا . . إن كل ما فى الدنيا شفاه فى انتظار تقبيلنا لها . . فالفرار من الملل هو أن نفكر فى الملل .

والتفكير فى الملل هو محاولة للتسلل فى داخل جدرانه الناعمة .

وإذا تسللنا فى داخل جدرانه الناعمة . . وإذا تسللنا إلى أعماق الملل ووسعنا هذه الفتحة . . أصبحت هذه الفتحة هى البالوعة التى يتسرب منها الرمل والنمل، من داخل الكيس النايلون الذى هو أجسامنا ونفوسنا .

إن أروع ما قاله إنسان فى علاج الملل، هو ما أنشده الشاعر الألمانى ريلكه حين قال :

قل لى يا شاعر ما الذى تفعله فى هذه الدنيا؟

إننى أحبها !

وهذه الأشياء الكريهة الشريرة، كيف تحتملها، وكيف تقبلها؟

إننى أحبها!

وهذه الأشياء التى لا اسم لها ولا معنى لها، كيف تختار أسماءها ومدلولاتها؟

إننى أحبها!

وهذه النجوم البعيدة الهائلة، وهذه القوى الصامتة المخيفة فى هذا الكون كيف تعرف طريقها إليك؟

إننى أحبها!

لأنه يحبها . . لأنه يجدد الصلة بها . . لأنه يجعل الصلة تتحول إلى وشائج حارة خفاقة . . لأنه جعل للدنيا قلبين يخفقان فى وقت واحد . . لأنهما يؤديان لحنًا واحدًا . . ورغم أنه متكرر ، فإنه تكرار لا يولد الملل .

إنه كلمعان النجوم . . متكرر . . كدقات القلب متكررة . . ولكن عن طريق هذه الدقات المتكررة تنبع أكثر العواطف اختلافًا . . وأكثر العواطف التهابًا . . وأكثر العواطف قدرة على إنتاج أجمل وأعمق وأبقى ما صنع الإنسان!

فأنا أحب . . وأنت تحب . . وشهرياء الملك يحب . إذن : لا أنا ولا أنت ولا هو سنعرف الملل !

ولكن هو الحب وحده يكفى؟

ربما . . .

ولكنى أتأمل (*)

قل لى من فضلك : ما السبب؟

وفكر الرجل طويلا وتلفت يمينا وشمالا ، ثم اتجه ناحيتى وقال : لا شىء . . إنها راحة البال!

ولابد أن يكون الرجل قد توقع منى أن أصفق وأن أرقع بالصوت وأقول : وجدتها!

وكانت دهشتى عظيمة جدا أن أجد فى الدنيا أحدا يفسر كل سعادة الناس حولنا فى أوروبا بأنها راحة البال ، أى أنهم جميعا قد انتهوا من كل مشاكلهم وهمومهم واستراحوا ، أما نحن فعلينا أن نضع رءوسنا فى مكان أقدامنا وأن نلعن الحظ الأسود الذى جعل منا أفارقة أو آسيويين . .

وعدت أسأله : من فضلك . . قل لى معنى راحة البال ، وكيف استطاع الأوروبيون والأمريكان وكل الشعوب التى لم تنزل عليها الكتب المقدسة أن تجد الوصفة الذهبية للبال وراحته جيلا بعد جيل ، وأنهم بذلك لا يستحقون الجنة ، فقد دخلوها فى الدنيا . . أما نحن فلن نستحقها .

نحن فى مصر نزيد مليونا كل تسعة شهور ، الحكومة تعيسة بذلك والشعب سعيد بهذه القوة ، بهذه الزيادة . لابد أنه سعيد وإلا كيف تفسر من يقول من حين إلى حين بأن عدد سكان القاهرة وحدها يساوى عدد سكان كل دول الخليج . فما المعنى؟ إنه سعيد بالعدد ، ولكنه لا يفكر كيف يعيش الملايين العشرة المصريون وما

(*) مقدمة كتابى : «ولكنى أتأمل» .

هو مستوى المعيشة، وكيف وصل إلى المستوى الرفيع من الحياة والخدمات أشقاؤنا فى الخليج، ولكنه لا يفكر، أما الدولة فهى تعيسة العقول والأقلام والأجهزة والميزانية؛ فمواردنا لاتزيد بهذه الصورة المتوالية.

أما قضية القضايا فهى شعب فلسطين - فى الأرض المحتلة وفى البلاد العربية وغير العربية، نحن جميعا مجمعون على أن ظلما فادحا وقع على الشعب الفلسطينى، وبسبب ذلك حاربنا وتشردنا ولا نزال فى حالة لا هى حرب، ولا هى سلم، ولكنها أسوأ من الحالين. . فنحن فى حرب مع بعضنا البعض وفى خوف من أن يسالم بعضنا البعض. . فلا نريد أن نتقارب ولا أن نتباعد. . وإنما تكون وحدتنا مثل مجتمع القنفذ - نتقارب ولكن لا بالدرجة التى تنغرس أشواكنا فى جلودنا. . فبالله عليك إذا كانت هذه حالنا فكيف يكون الحل، إذا كنا نحن المشكلة التى تريد أن تحل المشكلة . . فأين هى راحة البال؟!

دعوة للابتسام (*)

الدنيا كالمرأة ابتسم لها تبتسم لك!

* * *

مؤكد : لن يرتفع سعر الابتسام، ولن تنخفض قيمته!

* * *

ابتسم الآن، فقد لا تقدر على ذلك غدا!

* * *

الابتسامة تضيء العقل وتدفئ القلب!

* * *

إذا لم تستطع أن تبتسم فحاول أن تقلد الذين يفعلون ذلك!

* * *

من يبتسم للناس، لا يلتفون إلى ملابسه القديمة !

* * *

أنت لست فى حاجة إلى أن تعرف اسمى لكى تبتسم لى !

* * *

(*) مقدمة كتابى: « دعوة إلى الابتسام» .

إذا كان قلبك باسما، ظهر ذلك على وجهك!

* * *

أنت تحتاج إلى تحريك ٢٦ عضلة لكى تبتسم و٦٢ عضلة لكى تتجهم!

* * *

(ابتسام) كلمة أولها : أب وآخرها : أم!

* * *

من كل اللوحات التى رسمها الفنانون فى كل الدنيا لم تبق إلا لوحة واحدة لسيدة (تبتسم). . هذه الابتسامة حيرت الناس. . الفنانين والموسيقيين وعلماء النفس والمؤرخين، لأى شىء تبتسم هذه السيدة فى اللوحة التى رسمها العبقرى الإيطالى ليوناردو دافنشى. . السيدة اسمها موناليزا واللوحة اسمهــا (جيوكندا) أى المبتسمة. .

قالوا : إنه الفنان كان يأتى لها بالفرق الموسيقية لكى تسمعها وتبتسم. .

قالوا: إن السيدة كانت حاملا. . وابتسامتها الرقيقة هى دليل سعادتها. .

وقالوا: تستطيع أن تراها من أية زاوية ثم تجدها تبتسم . . وصعوبة هذه اللوحة أن الابتسامة رقيقة لدرجة من الصعب رسمها. . فلا هى ضحكة ولا هى شروع فى ابتسامة. . كيف حدث ذلك؟ وكيف استطاع القلم أن يضبط الابتسامة قبل أن تكون ضحكة. . أو حتى لا تكون ضحكة. . وقالوا كثيرا. . ولكن بقيت الابتسامة لغزا. . ولكن من المؤكد أنها جميلة بديعة عميقة. .

وكان آلهة الإغريق يحسدون البشر على أنهم يموتون، وهم قد زهقوا من الخلود. . وكانوا يحسدون البشر على أنهم يبتسمون. . ويخربون ويمرضون ويحبون ويكرهون. . ولذلك كان آلهة الإغريق يحولون أنفسهم إلى بشر لكى يصرخوا ويتخانقوا ويستمتعوا بما فى حياة الناس من تغيرات فى السلوك والجوع والعطش والنوم والأرق والحب والكراهية. . والابتسام والاكتئاب. . ولكن الآلهة رغم قدرتهم على كل شىء. . عجزوا عن الابتسام. . إنهم إذا ضحكوا زلزلوا

الجبال وأحرقوا الغابات، وإذا صرخوا . . وإذا بكوا . . ولكن الذى لم يقدروا عليه هو أن يبتسموا أن يضيئوا الوجه . . ويفتحوا نوافذ النفس ويواربوا القلب ويجعلوا للدنيا معنى آخر ولونا آخر . .

وكانت الملكة فكتوريا مكفهرة مكتبئة لمتاعبها النفسية والجسمية . . وأتوا لها برجل يضحكها لعلها تكون مقبولة لدى الناس . . ولكنها ترى وتسمع ولا تضحك . . بينما الناس حولها يكتمون ضحكهم . . لأنهم لا يريدون أن يعلو صوتهم على صوت الملكة . . وفى يوم قدم مضحك الملكة استقالته لأنه عاجز عن إضحاكها . . ولكن الحاشية طلبوا إليه أن يأخذ إجازة، وفى هذه الإجازة يبذل أقصى ما يستطيع فى انتظار نكت ومواقف ترغم الملكة على الضحك، وجاء الرجل فى اليوم الموعود ووقف على رأسه ثم على رجليه ثم نام الأرض وبدأ يخلع ملابسه من تحت والناس يضحكون . . ثم قرر أن يخلع ملابسه كلها والناس يصرخون ويفزعون من الكارثة التى سوف تقع ، إن هو فعل ذلك . . ثم جلس يبكى على خيبته وانحنى لكى يخرج . . ووقفت الملكة لتقول: ولكن شيئا لم يعجبنى!

فهى قادرة على أشياء كثيرة إلا على الابتسام!

ويقال إن أبا هريرة سأل الرسول عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال: إنى وإن داعبتكم لا أقول إلا حقا!

وقال أبو الدرداء عن الرسول ﷺ : ما رأيت رسول الله ﷺ قال شيئا إلا وهو يبتسم . .

وقال الرسول : إن الله يحب السهل الطلق . .

أى الباسم الطلق الوجه . .

وكان الرسول يداعب الأطفال ويجلس إليهم على الأرض وكان يقول: إن كان لأحد منكم صبى، فليتصابى له!

ورغم الأعباء الهائلة التى يحملها الرسول فإنه قادر على الابتسام . . أراد أن يكون قدوة، فمهما كانت الهموم ثقيلة والأعباء جسيمة، والرسالة خطيرة، فمن

الممكن أن يبتسم أو من الواجب أن يفعل كذلك تهوينا لهمومنا، وحرصا على ألا يفر الناس منا . .

وإذا كان الضحك يطيل العمر ، فإن الابتسام يضيف إليه سنوات أخرى . . فالضحكة انفجار مائة ابتسامة معا . . أو هى تسارع ألوف الابتسامات ونموها وتعاظمها ثم انفجارها على شكل قهقهة عالية . .

وفى تاريخ الأساطير الإغريقية أن رساما أسمر (زويكسيس) رسم لوحة لشخص يضحك . . فبعد أن فرغ من اللوحة ظل ينظر إلى هذه اللوحة ويضحك . . ويضحك حتى مات من الضحكة . .

ولو جعلها لرجل يبتسم، لعاش كما عاش دافنشى طويلا وعاشت لوحته بعده . .

أما زويكسيس فلا عاش ولا عاشت لوحته!

فإن وجدت مايجعلك تبتسم فيما سوف تقرأ، فذلك يرضينى، وشكرا . .

لعلك تضحك (*)

مقياس حضارة الشعوب : قدرتها على أن تضحك !

* * *

الحظ يضحك لمن يضحك على نفسه كثيرا !

* * *

إذا لم تضحك على نفسك كثيرا ، أعطيت للآخرين هذه الفرصة السانحة !

* * *

غلط : أن تضحك دقيقة وتبكى ساعة !

* * *

المرأة التى تضحك لنكت زوجها ، إما أن النكت مضحكة فعلا ، وإما أنها زوجة مخلصة !

* * *

من يضحك لنكت رؤسائه ليس مجاملا وإنما هو إنسان عملى جدا !

* * *

الضحك مع الناس وليس عليهم !

* * *

(*) مقدمة كتابى : «لعلك تضحك» .

الضحك : ملح الطعام!

* * *

يوم لم أضحك فيه، يوم من عمرى ضاع!

* * *

الضحك : موسيقى الروح!

* * *

من يضحك يجد الناس حوله، ومن يفكر، يجد نفسه وحيدا!

* * *

وكان العالم المصرى د. أحمد زكى يقول : اضحك ترقص معدتك!

أى أن الضحك يقضى على التوتر والتقلصات . . وكلها تساعد العقل على أن يستريح والمعدة على أن تهضم . . وكل الذين يشكون من اضطرابات المعدة هم العصبيون . . هم الذين لم يعرفوا كيف يكون الضحك وعلى أى شىء . .

وكما يتكلم الناس بدرجات مختلفة . . فكذلك يضحكون . . يقهقهون . . يقفزون . . يصرخون . . يرقصون . .

وكلها محاولات لإطلاق طاقات مكتومة . . فك مؤثرات عضلية . . وتقلصات عصبية . . وفى النهاية يكون لهم الاسترخاء الذى هو دليل على الهدوء التام والراحة الشاملة . . وهى حالة تشبه حالة الشفاء من كل داء . . أو حالة تفكك كل العقد . . فلو حدث ذلك كل يوم أو أسبوع كان ذلك أحسن وأرخص وأكبر دواء لكل داء.

وكما أن هناك أناس يتذوقون الطعام، فهناك آخرون لايجدون فيه متعة . . وهناك أناس يتذوقون النكتة والقفشة والعبارة المضحكة، والكاريكاتير الساخر، وهناك آخرون يمرون على كل ذلك دون أن يروه أو يسمعوه . . فلم يعتادوا على التذوق، ولم يعتادوا على أيسر أنواع الراحة : الضحك!

ولـم يمتعنى ويوجع قلبى مثل كتاب «الإمتاع والمؤانسة» للمفكر التعيس أبو حيان التوحيدى، فهذا الكتاب مؤلف عن مجموعة من الندوات يتحدث فيها أبو حيان التوحيدى الفيلسوف المفلس هو حاقد على دنياه ـ ومعه حق، وكل الناس حاقدون عليه، ومعهم حق. . فهو لم ينل من الدنيا ما يستحقه، والعلماء حاقدون على علمه الغزير وأفكاره العميقة. . وهو رجل «يتسول» لقمة العيش بفلسفته وبأن يكون مسليا للأمير. .

ولكن الذى يوجع القلب أكثر هو أن هذا الرجل قبل أن يفرغ من ندوته ومناقشاته الفلسفية يطلبون إليه أن يقول للأمير نكته قبل النوم!

فالأمير على حق لقد أجهد رأسه وتعب، ويريد ألا يحمل كل هذه المشاكل معه على المخدة فلا ينام. . وهو يريد أن ينام. . ولابد من نكتة تزلزل الهموم وتسقطها عن دماغه، حتى يستريح رأسه على المخدة. . والحل هو نكتة يرويها الرجل نفسه الذى أوجع دماغه بالفلسفة. . فيتحول أبو حيان التوحيدى من فيلسوف إلى متسول. . أراجوز يجب أن يضحك الأمير حتى ينام، ولا يهم أن ينام أبو حيان وأولاده الذين هم أشد حقدا على الدنيا من أبيهم!

والذى يضحكنا لا يخلو من معنى. . والمعنى أن لكل شىء جانبا يبعث على الضحك من أخطائنا أو من اندفاعنا أو من غباوتنا. . فنضحك من الصورة التى بدت أمام كثير من الناس. . فأنت تجد شخصا سقط فجأة على الأرض. . ونهض من الأرض يضحك على ماحدث له. . إنه بسرعة استعار موقف الآخرين وبدلا من أن يجدهم يضحكون عليه. . فإنه ينضم إليهم ويضحك على نفسه. .

فالضحك يهون علينا مشاكل الدنيا. . إنه مثل «ماسحات المطر» فى مقدمة السيارة. . يجلو الزجاج لكى نرى أوضح. . والضحك مثل التثاؤب يعدى. . أى ينتقل منى إليك انتقالا غريزيا. .

ففى هذا الذى سوف تقرؤه ما يدعو إلى ذلك. . فإن حدث، فقد نجحت، وإن لم يحدث فسوف أحاول مرة أخرى. . أو حاول أنت مرة أخرى. .

وليست الدينا كلها نكتة كبيرة. . ولكنها لاتخلو من ذلك. . إن لم يكن ذلك فى كل ساعة. . ففى كل يوم. . إن لم يكن فى كل صفحة ففى كل عشرين!

لأول مـرة (*)

لو أحـد يقـول لى مـا هذا الـذى يحـدث فى المدينة المنورة. حـاولت أن أعـرف بالضبط، ولكن لم أستطع . . شىء غريب عجيب يحدث لأى إنسان إذا ذهب إلى المدينة . . أو حتى فى الطريق إليها . .

إن أهل المدينة أنفسـهم يرون أن كل شىء عندهم يبعث على الشـفـاء وراحـة البـال . . والصحة والعافيـة . . ترابهم وهواءهـم . . وماءهم وسمـاءهم . . وإذا أكلت التمر . . واحدة أو عشرين . . فكل شىء قد جعله الله مصدرا للشفافية والنور . . فقد كافأهم الله على أنهم احتضنوا الرسول ﷺ . . حـتى كـمل الإسلام بينهم وعلى أرضهم . . فعاد الرسول إلى مكة المكرمة . . وهو يقول: لا هجرة بعد الفتح.

أى لا هجرة من مكة أو المدينة إلى أى بلد آخر . . فقد نصر الله الإسلام ولم يعد أحد يخاف أن يجاهر به . . إن أهل المدينة قد ناصروا الرسول وساندوه، فجعل الله كل ما يمسكه أهل المدينة خيرا لهم وبركة لضيوفهم.

* * *

جلست مع عـدد من الشبـان العلمـاء والأدباء فى مكان بعـيـد عن المدينة . . الأرض بسـاط أخضـر . . وجبل أحـد قطعة من الظلام بين السمـاء والأرض . . والنجوم قريبة تكاد تقع علينا . . والسماء عميقة . . ما هذا الذى فوقنا . . كل هذه الأجسـام السماويـة قطـع من نار تدور بعضهـا حـول بعض من الأزل إلى الأبد . .

(*) مقدمة كتابى: «لأول مرة».

أحجار تتوازن فوق . . بيننا وبينها ألوف . . ملايين السنين الضوئية . . فلا أحد يعرف أبعاد الكون ولا متى كان أوله ولا متى يكون آخره .

وكان الفيلسوف الألماني كنت يقول : إن الذى أشعر به فى أعماقى أعظم من هذا الكون . . فالله أسمعه وأراه فى داخلى . . وليس هذا الكون إلا صورة متواضعة جدا من هذا الجمال والجلال فى وجدانى !

وكان أستاذنا العقاد يقول : إن هذا الكون كله ليس أقوى من حشرة صغيرة . . قل لى كيف خلقها الله بهذا الكمال وبهذه الدقة . . إن عظمة الله تبدو فى أصغر مخلوقاته . . معجزة من المعجزات . . من الذى يستطيع أن يخلق جناح بعوضة ؟ !

وكان الأستاذ العقاد يقول : إن معجزة الخلق والإبداع وحكمة الله وقدرته المطلقة تظهر فى الحيوان المنوى . . هذا الكائن الضئيل جدا الذى ينقل صفات الأب والأم والجنس البشرى كله . . كيف؟ وأين ينقلها؟ وكيف ينظمها؟ ومن يشرف عليها حتى يكتمل الجنين فيجيء له صوت أبيه ويشبه أمه . . ومزاج أبيه فى الطعام والشراب؟ كيف حدث ذلك؟ ما هو هذا العقل الجبار الذى يشرف على تكوين الحيوان المنوى والبويضة . . ثم كيف يرتب الخلايا المتنوعة . . هذه الخلايا للمخ وهذه للأظافر . . ولون العين وحجم الشفتين . . أين يوجد (العقل المدبر) لكل غدد الإنسان وكل عادات الأبوين . . وكل مكتسبات الجنس البشرى فلا تلد سيدة بطة أو ثعبانا أو شجرة . . وإنما تلد إنسانا يجمع صفاتها وصفات زوجها . . بل أحيانا تكون له صفات أبيها أو خالها؟ كيف؟

الجواب : هذه هى عظمة الله !

وكان للقمر لون وحجم هو الآخر لم أرهما من قبل . . فلم يحدث إلا نادرا جدا أن جلست فى الصحراء أتفرج على السماء . . ولم يحدث أن ذهبت أتفرج على القمر . . إن السنين تمضى بنا ليلا ونهارا ولا يحدث أن أرى شروق الشمس أو حتى غروبها . . فأنا فى ساعة مبكرة جدا أنكفئ على الورق وأظل كذلك حتى تعلو الشمس أمتارا عن الأرض . . ولم أر شروق الشمس إلا نادرا ولا غروبها إلا قليلا . . أما القمر هلالا وبدرا فهو مفاجأة كل شهر . . وأرى القمر من نافذة

السيارة أو على زجاج النوافذ . . ولكنهم هنا فى الصحارى يرون السماء يكادون يلمسونها بأيديهم .

قال لى أحد الأدباء : ما هذا الذى نشرته الصحف العالمية عن خلق الكون؟ وأن العلماء يعرفون الآن يقينا كيف خلق الله هذا العالم . . ومتى؟ أى كلام هذا؟ هل يستطيع أحد أن يقطع بذلك؟

ولم أنطق. فالإجابة طويلة، وكلها احتمالات . . ومن السابق لأوانه جدا أن أقول كلاما محددا، وكل معلوماتى هى التى نشرتها المجلات والكتب العلمية . .

ـ قل لنا !

ـ أنا أقول؟ أنا فقط أنقل ما قاله علماء الفلك والفيزياء . . وسوف أحاول أن أجعله بسيطا دون أن نضيع معا فى تفاصيل لا أول لها ولا آخر .

قلت وأنا أنظر إلى القبة السماوية . . وقد تناثرت بينها البقع البيضاء اللامعة . . واضحة . . وبعضها أقل وضوحا . . ولا أول لها ولا آخر . . وهذه البقع المتقاربة هى التى نسميها (المجرة) . . والمجرة تضم ألوف ملايين النجوم التى تشبه الشمس . . وحول كل نجم عشرات الكواكب مثل الأرض . . وفى الكون ألوف ملايين ملايين المجرات . . ولو انطلق نجم مثل الشمس فى أى اتجاه وبأية سرعة فإنه لن يصطدم بأى نجم آخر ـ فإلى هذه الدرجة اتسع الكون فوقنا وتحتنا وحولنا . . تماما كما لو قلت لك : إن أية نملة فى أستراليا مهما سارت فى أى اتجاه وبأية سرعة ولأى وقت فلن تصطدم بنملة أخرى فى القاهرة ! واضح الكلام؟

ـ نعم . .

ـ إذن أنقل ما قاله العلماء . . من خمسين عاما ظهرت نظرية تقول إن هذا الكون كانت له بداية . . وهذه البداية عبارة عن انفجار كبير . . انفجار مادى . . هذا الانفجار أدى إلى تناثر المواد الملتهبة مع الغازات فى الفضاء . . وظلت هذه المواد تتباعد بسرعة هائلة . . ملتهبة . . ثم تعرضت للبرودة فتجمدت . . ودارت حول بعضها البعض تتوازن وتتجاذب . . ألوف ملايين السنين . . وكانت هذه النظرية مجرد فرض علمى . . أى أنه لابد أن يكون للكون بداية . . ولابد أن المواد أو المادة

الأولية التى خلق الله منها الكون كثيفة جدا . . صدر لها أمر بأن تنطلق وأن تنفجر ساخنة شظايا بسرعة هائلة . . فحدث الانفجار . . وكانت الشظايا مجرات ونجوما وكواكب . . بعضها ما يزال ساخنا وبعضها قد أصبح باردا وجوفه ساخن ـ كالأرض مثلا . . ولأن الانفجار كان هائلا . . والغازات سريعة ـ تطوحت المادة فى جوانب لا نهاية لها فى هذا الكون . . واضح؟

ـ نعم . .

ـ وبقيت هذه النظرية مجرد فرض علمى معقول لبداية الكون . . ولم تظهر نظرية أخرى تقول إنها باطلة أو إنها خرافية . . ولكن العلماء حاولوا فى الأعوام الخمسين الماضية أن يجدوا تفسيرا آخر، ولكنهم لم يجدوا، فسلموا بهذه النظرية مؤقتا إلى أن يهتدوا إلى حل لمشكلة بداية الكون . . أو بداية الخلق . . حتى الشهور الأخيرة !

ـ فماذا حدث؟

ونظرت إلى السماء فوجدت النجوم كأنها تقترب أكثر وأكثر تريد أن تسمع ما نقوله نحن عنها وعن ميلادها من ألوف ملايين السنين وموتها بعد ألوف ملايين السنين . . فالنجوم كالحيوان وتولد وتنمو وتزدهر وتذبل ثم تموت . .

قلت : وكان الأمريكان قد أطلقوا منذ ثلاث سنوات سفينة فضاء تدور فى فلك حول الأرض ارتفاعه ستمائة كيلومتر . . والسفينة ترصد درجات حرارة الكون والإشعاعات فى الفضاء الخارجى وتسجل الأصوات . . وتبعث بملايين الصور إلى محطات المتابعة الأرضية فى أمريكا وأستراليا . . ولم يجد العلماء شيئا جديدا. وفجأة حدث أعظم اكتشاف فى هذا القرن . . أو فى كل القرون . . لقد أرسلت السفينة (صورة تذكارية) للكون بعد أن خلقه الله بمئات ألوف السنين.

ـ يعنى؟

ـ يعنى أن السفينة أرسلت معلومات عن انفجار حدث بعيدا جدا؛ المسافة بين السفينة ومكان الانفجار عبارة عن رقم ستة وأمامه واحد وعشرون صفرا من الأميال . . أى ألوف ملايين السنين الضوئية ـ السنة الضوئية هى حاصل ضرب

١٨٦ ألف ميل (سرعة الضوء فى الثانية) × ٦٠ ثانية ×٦٠ دقيقة ×٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوما . . الصورة التى التقطتها السفينة هى عبارة عن شكل المادة وهى تتباعد إلى الوراء وبسرعة واحدة متسقة منظمة، وهذا هو أخطر ما فى الاكتشاف. ومعنى السرعة الواحدة أن الانفجار ما يزال قويا وأنه لم يضعف بعد بسبب أنه قد بدأ قبل ذلك بألوف ملايين السنين . . والصورة التى التقطتها المركبة الفضائية (كوب) تؤكد أن الانفجار العظيم قد حدث منذ ١٦٠ ألف مليون سنة . . وأن هذه الصورة قد وصلت المركبة الفضائية بعد خلق الكون مباشرة - أى بعد حوالى خمسة عشرة ألف مليون سنة، وأن الانفجار ما يزال قويا . . وأن شظايا الانفجار تتحرك بسرعة هائلة لم تضعف بعد . . وأن الغازات ما تزال فى درجات حرارة مئوية بالملايين . . وأن سرعات الغازات أضعاف أضعاف سرعة الضوء . . وأن مادة الكون التى انفجرت بهذه الصورة الجبارة لابدأن تكون صغيرة جدا . . وأن انفجارها كان عنيفا جدا لأن المادة الأولى للكون كانت لا متناهية الكثافة . . فاحتاجت إلى انفجار جبار لكى يفكك ذراتها ويكون انطلاق لا يتصوره العقل . . ومن يدرى ربما حدث انفجار آخر بعد ألوف ملايين السنين، وذلك أن ينكمش الكون وتتجاذب المواد لتكون أصغر وأصغر وأصغر كما كانت عند بداية الكون . . ويولد الكون مرة أخرى ويكون الانتشار والازدهار وإلى غير نهاية !واضح؟

- نعم . .

- لابد أن أوضح هذه الصورة التى يعجز العقل عن تصورها أو إدراكها . . نفرض . . نفرض أن هذا الكون عمره سنة واحدة . . نفرض . . إذن فالله قد خلق الكون فى الثانية الأولى من الدقيقة الأولى يوم أول يناير . . واضح؟

- نعم . .

- أى أن الانفجار العظيم للمادة الأولى التى استخدمها الله فى صنع هذا الكون قد نفخ فيها فتفجرت فى أول ثانية من أول دقيقة من أول يوم فى شهر يناير . . هل نعرف متى ظهر الإنسان على سطح هذا الكوكب؟ لقد ظهر الإنسان قبل ثلاث دقائق من منتصف ليلة ٣١ ديسمبر . . وظهرت كل حضارة الإنسان فى الثانية الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . أى أن عمر الحضارة الإنسانية كلها لا يزيد على

ثانية ونصف فى عمر هذا الكون . . كل الذى أنجزناه وقاتلنا من أجله . . وحاربنا وانتصرنا وانكسرنا على الأرض وفى الماء وفى الهواء . . وكل عظمة الإنسان فى العلم والأدب والفن . . كل ذلك عمره ثانية ونصف فقط . . واضح؟

ـ نعم . .

ـ لابد من توضيح آخر . إذن أين نحن من هذا الكون كله . . أى الكون الذى نعرفه . . أى الكون الذى نقلته لنا سفينة الفضاء . . فلابد أن أجزاء أخرى لا أول لها ولا آخر فى الكون لم تصلنا . . فالمادة الأولى التى خلق الله منها هذا الكون مادة مظلمة . . إذن لا يزال فى هذا الكون ما لا ندرى من المساحات والمسافات المظلمة ، فالكون أضعاف هذه الصورة المتواضعة التى تلقيناها أخيرا . . والتى أطلقتها أصابع الله ـ سبحانه ـ إلى جوانب الفضاء اللانهائى فى امتداده . . أين نحن . . من مثل هذه؟

ومددت يدى إلى تمرة من تمور المدينة المنورة وقلت : بل نحن مثل هذه . . مثل هذه النواة التى فى داخل التمرة . . إذا ما قورنت بجبل أحد الذى وراءنا . . ونحن نسكن هذه النواة . . وكل تاريخ الإنسان وحضاراته القديمة والجديدة . . كلها تتصارع فوق هذه النواة . . أما سفينة الفضاء هذه فليس إلا ميكروبا يدور حول النواة ويلتقط صورة لجبل أحد . .

كل الذى أقمناه وندافع عنه ثم نخترع لأنفسنا ما لا نهاية له من النظريات العلمية والفلكية والأخلاقية . . ثم نخترع أسلحة الدمار . . كل ذلك يتحرك على سطح هذه النواة . . أما الكون حولنا فهو مثل هذا الجبل الهائل الضخم الأشم . . نحن هكذا والكون كله هكذا . .

وكان الإنسان يتصور ـ واهما ـ أن الله قد خلق الكون من أجل أن يتفرج عليه الإنسان إذا اتسع وقته؟! فقط هذه الأكوان للزينة؟! لتكون فى شرف استقبال نظرات الإنسان . . الحقيقة نحن كائنات ضئيلة جدا فوق بلحة نطلق حولها فى سعادة وغرور ميكروبا يدور حول البلحة ويمد خراطيم هزيلة وعدسات بدائية تلتقط ما يصدر من إشعاعات وموجات صوتية تنبعث من جبل أحد ومن جبال أخرى لا نراها ولا نعرفها . . فجبل أحد ليس إلا التكوين الهائل الذى بعث

بإشعاعاته إلى أجهزة الرصد الدقيقة البديعة التى ابتدعها الإنسان ووضعها فوق هذا الميكروب . . أما ما وراء الجبل؟ وكم عدد الجبال الأخرى؟ ومتى ظهرت؟ ومتى تكونت؟ وكيف هى؟ فلا يزال الميكروب عاجزا عن معرفتها . . لأن سكان البلحة لم يهتدوا إلى أجهزة بالغة الدقة . . واضح هذا الكلام؟

ـ نعم . .

ـ لابد من توضيح آخر . . فالإنسان رغم ضآلته . . فإنه لا شك يشعر بالعزة والكبرياء . . فهو رغم هذه الضآلة ورغم أنه حديث العهد بالظهور على مسرح هذه البلحة فى هذا الكون اللانهائى ، فقد استطاع أن يعرف . .

والإنسان حيوان عنده استطلاع وخيال وكبرياء . . وفى الوقت نفسه يشعر هذا الإنسان بأنه تافه جدا إذا ما قورن بهذا الكون . . وإذا ما أدرك أن فى الكون ألوف ملايين ملايين الكواكب الأخرى ـ مثل الأرض ـ تدور حول ما لا عدد له من النجوم مثل الشمس . . وفى هذه الكواكب أشكال وألوان من الحياة العاقلة . . أعقل وأعظم من الإنسان . . أو فى مراحل سابقة على تكوين الإنسان . . فليس وحده فى هذا الكون ويستحيل أن يكون كذلك . . تماما كما لو قال النمل الذى يجرجر صرصارا : نحن الكائنات الوحيدة فى هذه الأرض ، أو كما لو قالت أشجار الليمون نحن الأشجار الوحيدة على هذه الأرض . . أو فى كل الكواكب الأخرى . . فقدرة الله لا حد لها . . والذى نراه فى أنفسنا وفى تكويننا والأكوان حولنا ، ليس إلا صورة متواضعة جدا لعظمة الله التى لا حدود لها ! واضح؟

ـ نعم . واضح وباق . . ويبعث على الإيمان بعظمة الله .

ـ لابد من توضيح أخير . . ما الذى جعلنا ننتقل إلى الكلام عن الكون وعظمة الله؟! إنها هذه الصورة الرائعة حولنا . . إنه هذا الشعور الباهر لأعماقنا والذى لا يجده الإنسان إلا فى المدينة المنورة . . هو الذى أطال أعناقنا ووسع عيوننا وفتح عقولنا لتتلقى هذا الفيض اللانهائى من النور والصفاء والاقتراب من السماء التى أحسسنا أنها تقترب منا أكثر وأكثر ـ فسبحان الله ما أعظمه وأحكمه !

يسقط الحائط الرابع (*)

إما أن ترى أو تموت !

بهذه العبارة لخص الأب بيير دى شاردان فلسفته فى الحياة .

لأن حياة الإنسان هى أن يرى ، أكثر وأوضح . وقد ظل الإنسان ألوف السنين يرى ويحاول أن يرى ، وأن يوسع مجاله البصرى ، وأن يجد له أبعادا تحت الأرض أو تحت الماء أو فى الفضاء . .

وأهم من ذلك أنه حاول أن يرى أبعاده هو وأعماقه هو . . وقد طالت نظرات الإنسان إلى نفسه حتى لم يعد يرى غيره فى الدنيا ، لقد تحول العالم حوله إلى مرايا . . يرى فيها الإنسان نفسه ، أو تحول العالم كله إلى صور وتماثيل للإنسان ؛ فهو لا يرى إلا صورته وإلا همومه هو ، وإلا طموحه هو .

فالإنسان هو الجهاز الوحيد لرصد حركات الإنسان . . ولرصد حركات الحيوانات والحشرات والكواكب والنجوم .

فالإنسان هو الذى يرى غيره ويرى نفسه . .

ولا توجد عندنا - حتى الآن - وسيلة أخرى لمعرفة العالم حولنا ، أو العالم فى داخلنا ، إلا عن طريق الإنسان .

وكل محاولة لخلق مجتمع إنسانى أكثر تماسكا ، هى محاولة لزيادة المعرفة الإنسانية ، وتعميق العلاقات الإنسانية .

(*) مقدمة كتابى : «يسقط الحائط الرابع» .

والمعرفة معناها أن ترى . . وتعميق المعرفة معناها أن ترى أعمق .

فالمعرفة هى الرؤية والعلم هو المعرفة المنتظمة ، أى الرؤية ذات الأبعاد المتماسكة الأطراف .

ولكى نرى أوضح يجب أن تضبط العدسة . . يجب أن تتأكد من سلامة بؤرة العين التى ترى بها . .

والعلم الحديث ليس إلا تطويرا فى صناعة العيون .

فالعدسات عيون . . العدسات المقربة والعدسات المكبرة . .

وقد انشغل الإنسان بالنظر إلى الخارج عن النظر إلى نفسه . . لأنه تعب من النظر إلى نفسه .

ومعرفة الإنسان بالعالم البعيد الذى حوله ، جعله يشعر بأنه ضئيل بالقياس إلى العوالم الأخرى . . عوالم النجوم والكواكب وعوالم الحشرات والنبات . .

وجعله أيضا يشعر بأنه رغم ضآلته فهو قادر على أن يعرف . .

على أن يرى أبعد بملايين السنين الضوئية . . وأن يرى أجساما تقاس بجزء على عشرات الألوف من المليمتر !

واتجه الإنسان إلى أن يرى العالم كأنه الإنسان غير الموجود . .

أى العالم فى غياب الإنسان نفسه .

أى العالم دون تدخل من عين إنسانية ، كأن كل شىء فى مكانه ، هادئ هدوء الجبال ، مضطرب كالبحر ، ملتهب كالنجوم . . سواء أكان هناك إنسان أم لم يكن !

وهذا هو العالم كما يراه الإنسان بالعين «المجردة» . . عن إنسانيته . . عن مخاوفه ومطامعه وغروره . .

وعندما أصبحت للإنسان هذه العين المجردة ، تقدم فى العلوم .

ولكن بعينه غير المجردة ، أى بعينه المرتبطة بهواه ، ارتاد مجالات الفن والدين . .

والفارق بين الإنسان والحيوان هو : أن الحيوان «ينظر» ولكن الإنسان «يرى» . .

وعن طريق الرؤية يعرف الألوان والأشكال.

والإنسان عن طريق الرؤية أصبح يتحكم فى الحيوان وفى الإنسان أيضا.

وعن طريق الرؤية إلى داخله أصبح فنانا . .

وعن طريق الرؤية إلى خارجه أصبح عالما . .

إن تماثيل الإغريق كانت بها عيون من زجاج . . عيون بلا حدقات، كأنها عيون مقلوبة تنظر إلى داخل النفس الإنسانية . .

مقلوبة . . سوادها فى الداخل وبياضها فى الخارج. ولذلك كانت عيون فلاسفة وشعراء . .

وتماثيل الرومان كانت لها عيون بها حدقات، وفى داخل الحدقة يوجد ثقب . . كأنه عين أخرى . .

هذا الثقب هو «إنسان» العين . . هو «الننى» . .

لقد كانت عيون الرومان مفتوحة على العالم الخارجى . . مرتين . . لأنها عين فى داخلها عين!

وقد انتقل هذا الثقب الصغير فى العين إلى كل شىء حول الإنسان . . لقد أصبح كل شىء مثقوبا . . كل شىء له أبعاد . .

وكانت هذه المحاولات لثقب العالم الخارجى، هى بداية الحضارة الإنسانية . . بداية العلوم الوضعية . . أى العلوم التى تهتم بالأشياء الموضوعة هناك . . أى الموضوعة بعيدا عن الإنسان . . كأن الإنسان لا يراها . . أو كأنه يراها ولا يستطيع أن يغيرها أو يتدخل فى حركتها ونموها . . وإنما هو «يصفها» فقط . . يصفها كما هى «موضوعة» أمام عينيه . .

والعين هى وسيلة الإنسان لأن يفكر وأن يعيش، فهى المصباح وهى الضوء.

وفى اللغة - وكل لغة - تقول: رأى . . رؤية . . رؤيا . . وتراءى . . ورواء . . وارتأى . .

وتقـول أيضـا : نظر . . نظرية . . وانتظر . . واسـتنظر . . ومناظرة . . ونظارة . . ونظير . .

وتقول : عين . . وأعيان . . وعاين . . وتعيين . . وتعين عليه . .

وكلمات أخرى كثيرة كلها مأخوذ من العين والرؤية والنظرة . .

والفيلسوف إشبنجلر يرى أن الإنسان تطور على بقية الحيوانات الأخرى بيديه، أو بحاسة اللمس . . أو لأن أصبعه تختلف عن مناقير الطيور ومخالب الحيوانات وزعانف السمك . . وتختلف عن أصابع يدى وقدمى القرد، فأصابع الإنسان من الممكن أن تنثنى وأن تتقارب .

وعن طريق هذه الأصابع «تناول» الإنسان كل شىء حوله . . تناوله وتداوله . .

وإذا كانت العين ـ كما يقول إشبنجلر ـ هى التى كشفت لنا العالم المنظور . . أو العالم النظرى . .

فإن اليد، وأصابع اليد، وقدرة اليد على اللمس والملامسة، قد كشفت لنا العالم اليدوى . . أو العالم العملى . .

وبالعين واليد معا، تكتمل الصورة النظرية واليدوية للإنسان .

والإنسان، لأنه قادر على أن يحرك أصابعه، استطاع أن يصنع أدوات حياته . . فالإنسان هو الحيوان القادر على أن يصنع أدوات الحياة .

ليس لأنه قادر على تحريك أصابعه . .

ولكن لأنه قادر على أن يحرك أصابعه فى نور عينيه .

وبغير العين تصبح حركاته فى الظلام . .

فإن كانت اليد تصنع السفينة، فإن صناعة السفينة شىء وعلم الملاحة شىء آخر . .

وصناعة أدوات الموسيقى شىء، والعزف شىء ثان والتأليف الموسيقى شىء ثالث . .

وصناعة الأدوات عمل يدوى . .

والملاحة والموسيقى علم نظرى . .

ولا علم بغير معرفة . . ولا معرفة بغير رؤية . . ولا رؤية بغير عين !

* * *

وأحسن نموذج لتصوير العين المجردة هى قصة «أخوات ليبيا» التى تحدثت عنها الأساطير الإغريقية، فهى أسطورة ولكنها مليئة بالحقائق.

أخوات ليبيا لهن اسم آخر هو: أخوات الجورجون . . ثلاث أخوات لهن منظر قبيح جدا: الوجوه مستديرة والشعر على شكل حيات والأسنان بارزة . . واللسان يتدلى إلى الأمام.

ويقال إن لهن عينا واحدة يتداولنها ويرين بها . .

ويقال أيضا إن لهن عيونا عادية وأنيابا عادية . .

ويقال أيضا إن إحدى بنات ليبيا واسمها ميدوزا قد ضبطتها الإلهة مينرفا فى حضن رجل فى أحد معابدها، وثارت مينرفا على هذه الإهانة، فحكمت على ميدوزا بالموت، بينما أختاها خالدتان، وجعلت كل من تنظر إليه ميدوزا هذه يتحول إلى حجر.

كل ما تقع عليه عيناها يتحول إلى حجر . .

وبذلك تصبح حياة ميدوزا صخرية جافة جامدة.

فكل ما تقع عليه عيناها هو تماثيل من بشر، أو حيوانات من حجر . . وبذلك تصبح وحيدة، فى مقبرة حجرية ليس فيها إنسان ولا حيوان.

ولم تكتف مينرفا بهذا بل قررت أن تقضى على ميدوزا فأرسلت لها أحد الأبطال ليقتلها، وحذرته أن تقع عينا ميدوزا عليه . .

وسلحته بمرآة أو بدرع شديد اللمعان، فإذا اتجهت إليه ميدوزا سلط عليها هذه المرآة، وبذلك لا تقوى ميدوزا على النظر إليه.

وذهب صاحب المرآة ليقتل ميدوزا فوجدها نائمة وحولها جثث حجرية لكل من وقعت عيناها عليه، وقطع عنق ميدوزا، وحمل هذا العنق إلى الإلهة . .

وحتى بعد أن ماتت ميدوزا فإن كل من ينظر إلى عينيها يتحول إلى حجر .

وعندما تساقطت دماء ميدوزا تحولت هذه الدماء إلى ثعابين امتلأت بها صحراء ليبيا وكل إفريقيا . . ثعابين تعيش فى الرمال وبين الصخور . . حيوانات تزحف على الحجر .

وميدوزا هذه هى نموذج للعين المجردة . .

للعين التى لم يعد لصاحبها قلب ولا عاطفة . . ككل عين فى رأس إنسان ليس فنانا . .

إنسان مجرد من العواطف الإنسانية . .

إنه واحد من العلماء . .

فالعلماء ينظرون إلى كل ما حولهم على أنها أشياء جامدة . . الحيوانات أشياء . . والناس أشياء .

إن نظرة العلماء هى نظرة ميدوزا تحول كل شىء إلى حجر . . إلى جثث .

إنها نظرة بقصد «تشييء» العالم الخارجى . .

وبعد ذلك وزنه وقياس طوله وعرضه ودرجة حرارته ، ومعرفة ذبذبته ونوع الذرة التى يتكون منها ، وحساب طاقته . . إنه مجرد شىء .

وإذا كانت الأساطير تصف الجرجون بأنها ليست ثلاث أخوات فقط ، وإنما هى جنس آخر من النساء . فإن كل العلماء ينتسبون إلى هذا الجنس !

ولا يمكن أيضا أن تكتمل صورة الإنسان إذا كان يرى بعين واحدة . .

أو إذا كان الناس جميعا يرون بعين واحدة هى عين العلماء . . أو بعين واحدة هى عين الفنانين .

ولكن بالاثنتين معا . . بالفن والعلم . .

وقد صور الأديب الألمانى هوفمان فى «أقاصيصه» أن ساحرا إيطاليا كان يضع منظارا سحريا على عين شاب . . فلا يكاد يتلفت الشاب حوله حتى يجد كل شىء

جميلا رائعا . . لقد استطاع الساحر الإيطالى أن يجعله يراقص دمية من قماش وخشب على أنها أجمل فتاة فى الدنيا . .

أما السبب فهو المنظار الذى يضعه على عينيه، وعندما خلع المنظار بدت الدمية على حقيقتها . .

وهذا المنظار هو الفن والخيال . .

أما العين المجردة عن المنظار، فهى عين العلم . . عين الجرجون. والصورة الكاملة، هى عين «من فن وعين من علم» !

والعدالة عندما تضع عصابة على عينيها، فإنها ترمز إلى أن القاضى يجب أن يكون مثل الجرجون . . كل ما يراه يتحول إلى شيء . . إلى حجر . . أى كأنه لم يعد إنسانا . . لا هو إنسان، ولا الذى يحاكمه إنسان . .

فالعدالة لا ترى أحدا من الناس . . أى لا تفرق بين أحد من الناس . .

والحقيقة أن العصابة الموضوعة فوق عينى العدالة ليست إلا حبلا شنقت به إنسانية القاضى، وإنسانية المتهمين أيضا . .

فليست هذه العصابة فوق العين، وإنما هى رمز لعصابة أخرى شنقت القلب وصلبت العواطف . . وأعدمت الإنسانية . .

ولم يكن غريبا من الرئيس «لنكولن» أن يقول فى خطابه الافتتاحى للبرلمان إننى لا أرى أحدًا . . إننى أرى بعينى الدستور . . أى إننى لا أرى أحدا !

فهو قد وضع العصابة حول عينيه هو، وترك العدالة هى التى ترى.

والعدالة لا ترى ولا تفرق بين أحد من الناس !

إنه الجرجون أيضا يرتدى ملابس رجال القضاء ورجال العلم !

ومع ذلك فمن الصعب على القاضى أن يكون جرجونا إلى الأبد.

فالجرجون شكل للوظيفة الاجتماعية التى يقوم بها . .

وشكل لوظيفة العلماء أيضا . .

وكثيرا ما ترك القاضى نصوص القانون وحكم بعين غير مجردة . . بعين إنسانية . .

وكثيرا ما أدرك العلماء أن علمهم ضد الإنسانية ، فنزعوا عيون الجرجون ونظروا إلى أنفسهم وإلى الإنسانية بعيون غير مجردة . . بعيون إنسانية . .

وإذا كانت النزاهة العلمية معناها أن يتنزه الإنسان عن الغرض . . فليس من النزاهة أن يتنزه الإنسان عن إنسانيته .

وبذلك يصبح حجرا يتحكم فى الإنسان . . ويصير حيوانا متوحشا، لا يحاكم الإنسان وإنما يحكم عليه !

* * *

لقد كان سارتر أروع من شرح «النظرة» . .

فأنا عندما أمشى فى حديقة ، أشعر بحرية لا نهائية . . كل شىء حولى أراه بوضوح ، الأزهار والأشجار ، والرمل والزلط ، ولون الخشب والعصافير وهى حائرة بين الأغصان . . وأحيانا أغمض عينى ثم أعاود فتحهما من جديد كأننى أريد أن أطمئن على العالم الذى حولى وعلى أن كل شىء فى مكانه . .

إننى أرى الألوان والأبعاد وأعرف القريب والبعيد . . والقصير والطويل والأوراق الذابلة والأوراق النضرة ، أميز بين العصافير والغربان والحمام . . عالم هائل الصفات والأشكال والأحجام والأبعاد . .

عالم كل ما يربطنى به أننى أنظر إليه . . أننى أراه . . أن كل شىء منظور . . كل شىء مرئى . .

أنا أنظر إذن فأنا موجود . .

فوجودى هو حريتى فى النظر إلى ما حولى . .

ولكن عندما يظهر إنسان فى هذه الحديقة ، مجرد ظهور إنسان معناه تحديد لحريتى . . لم أعد حرا . . لم أعد أنا الحر الوحيد . . لم أعد أنا الحرية . . فهناك إنسان آخر يستطيع أن ينظر ناحيتى . . أن ينظر إلى . . وأن أتحول أمام ناظريه إلى

شىء . . إلى شجرة إلى حجرة . . إنه ينظر ناحيتى . . ينظر إلى ملابسى . . إلى وجهى . . إلى شعرى . . إلى جلستى . . ويحكم على بما يشاء . . وأنا لا أعرف ما الذى يقوله، ولا أعرف ماذا يدور فى رأسه . . إنه يقلقنى؛ يصيبنى بالحرج . . إنه قد سرق منى عالمى . . سرق منى حريتى.

لقد تحولت أنا أيضا إلى شىء . .

وأصبحت كأية شجرة عاجزا عن الدفاع عن نفسى . .

وفى قصة «وقف التنفيذ» لسارتر يقول دانيل:

«ماذا يقول عن . . جبان . . يائس . . كأن الليل هو الآخر ينظر لى . . كأن النجوم عيون الليل . . إننى لم أعد أنظر إلى شىء . . إننى منظور . . كل شىء ينظر لى . . إننى شفاف . . إننى مشغوف . . ما الذى شفنى، ما الذى جعلنى شفافا، لأننى لم أعد وحدى . . لم أعد وحدى».

ويقول أيضا: «أريد أن أطفىء العين التى فى داخلى، لا أريد أن أرى نفسى . . إن عينى توجعنى . . تلهبنى» . .

وفى مسرحية «الذباب» لسارتر يقول الملك أجيست:

«منذ توليت العرش وكل ما قلت وما فعلت كان بقصد أن أجعل لنفسى صورة، وأن يضع كل رعاياى هذه الصورة فى رءوسهم، تحت جلودهم، وأن يشعروا دائما أننى أنظر إليهم، أراقبهم، أحاكمهم. . وألا يشعر أى واحد منهم أنه بمفرده. بل إننى معه دائما. . أحاكمه على كل أفكاره، على أكثر أفكاره خصوصية وسرية، ولكنى وقعت فى المصيدة التى نصبتها للشعب، لقد أصبحت أرى نفسى تماما كما يرانى الشعب، إننى عندما أنظر فى أعماقهم القائمة، لا أجد إلا صورتى التى رسمتها بنفسى، إننى أرتجف، ولكنى لا أستطيع أن أرفع عينى عن هذه الصورة . . يا إلهى من أنا؟ إننى لم أعد سوى خوف الناس منى» !

ويقول سارتر أيضا فى كتابه عن الشاعر «بودلير» : «إنه كان يجد العيون تنظر إليه ؛ كل العيون فى كل مكان. كل هذه العيون تحاكمه ، ولكنه لا يعرف على أى أساس يحاكمونه ، بمقتضى أى قانون. كل هذه العيون أدانته دون محاكمة وحاكمته دون قانون ولعنته ولم يعرف ما الذى قالوه. إنه كان عاجزا عن الدفاع عن نفسه» !

وعيون الآخرين . . ونظرات الآخرين هى أقسى درجات العذاب.

إن مسرحية سارتر «الجلسة سرية» ليست إلا جحيما من نوع خاص . . فأشخاصها أناس فتحوا عيونهم، بعضهم على بعض . . أصبحوا فى غاية الشفافية . . عراة الجسم والنفس . . فهم جميعا سجناء ، كل واحد منهم سجن الآخر بين رموش عينيه. سجنه فى عينيه. لقد تناولوا النظرات ، وتبادلوا السجن ، وتحولوا جميعا إلى أحجار بلا حياة . . بلا إنسانية . . بلا حرية . .

كل واحد منهم أصبح مثل الجرجون . . النظرة الواحدة هى سلب للحرية، أى سلب للوجود.

ويقول سارتر أيضا : مجرد النظرة معناها أن ثقبا كبيرا فى هذا العالم قد انفتح ، وأن هذا العالم بدأ يتسرب من هذا الثقب . .

والسبب هو أن الآخرين ينظرون لنا . .

والنظرة تنطوى على الخوف . . أى أن نظرات الآخرين تهددنا . . تخيفنا، وفى الوقت نفسه تجعلنا نشعر بالخجل كأن الآخرين ضبطونا متلبسين بفعل شىء . .

فالذى يرانى أنظر من ثقب الباب ، يصيبنى بالخجل ، فقد ضبطنى أفعل شيئا . . ضبطنى متلبسا . . نظر إلى . . وحكم على . . وقال كلاما كثيرا لم أسمعه.

فلا أملك إلا أن أجرى أو أتوارى . .

ولكى أدافع عن نفسى من عيون الآخرين . . ونظرات الآخرين يجب أن أنظر إليهم، أن أقاوم النظرة بنظرة أخرى ، أن أقاوم تهديد حريتى بتهديد لحريات الآخرين.

إن الجورجون عندما كانوا يسلطون عليها المرايا كانوا يحاولون أن يبطلوا

مفعولها . . فهم ينظرون إليها قبل أن تنظر إليهم . . يحجّرونها قبل أن تحجّرهم، ينزعون منها حريتها قبل أن تقضى على حريتهم . .

وحواء عندما تغطت بورقة التوت، كانت تضع درعا لوقايتها من عينى آدم . .

فقد أحست حواء فجأة أن رجلا ينظر إليها . .

فتغطت . .

وأحس آدم أن حواء تنظر إليه فتغطى هو الآخر . .

لقد شعرت بالعار من ارتكاب خطيئته . .

وشعر هو أيضا بالعار نفسه . .

ولكن عار الاثنين بالنسبة إلى الله، فهما لا يستطيعان أن ينظرا إلى الله، كما نظر إليهما، لا يستطيعان أن يتغلبا على شعورهما بالعار والخزى أمامه.

لقد ارتكبا حماقة فى الجنة . . وكان لابد من العقاب . . وجاء العقاب هو شعورهما بالعار كل أمام الآخر . . ثم شعورهما بالعار الأبدى أمام الله.

تماما كما حدث لميدوزا بعد ذلك، عندما ارتكبت حماقتها المعروفة فى المعبد، فكان لابد أن تلقى أقسى درجات العقاب وكان عقابها هو المنفى . . أى أن تصبح وحيدة فى العالم . . وأن تتأكد وحدتها نظرة بعد نظرة، فكلما رآها أحد من الناس مات فورا . . أن تعيش وحدها وسط مقابر لا نهاية لها . . تقوم فيها بدور القاتل . . والحانوتى معا ! بل إنها حانوتى العالم كله !

ونحن عندما ننظر إلى ما حولنا، فإن هذه النظرة تتلون باهتمامنا نفسه.

فأنت عندما تكون على موعد مع صديق، ويتأخر هذا الصديق فإنك تتطلع إلى وجوه الناس، إلى الوجوه الشبيهة به، ولا يستلفت نظرك إلا الملامح القريبة من ملامح الصديق، فكأنك قد طبعت صورته على عينك، ولم تعد ترى سواها . . وتصبح كل هذه الوجوه بلا معنى وبلا دلالة . . فقط يصبح لها معنى خاص عندما تقترب من ملامح هذا الصديق . . فكأنك بهذه النظرة «تجمد» كل الوجوه فى وجه واحد، وكأنك أنت أيضا تجعل العالم كله بلا معنى من أجل معنى واحد،

وكأنك تريد أن تضع صورة الصديق على العالم كلـه فلا تـرى سـواه . . أو تراه فى كل مكان . .

والعلماء ينظرون إلى الدنيا نظرة خاصة . .

والفنان ورجل الدين والجندى والجاسوس والسياسى والتاجر والمومس والزنجى واليهودى . .

كل واحد يضع على عينيه إطارا واحدا ، يرى الدنيا من خلاله ، أو يرى الدنيا فيه ، أو يراه هو الدنيا ؛ بعض الوقت أو كل الوقت !

إن الكاتب الأمريكى لويس ممفورد فى كتابه عن «نشأة المدينة الحديثة» يقول إنه قرأ قصص «الديكاميرون» لبوكاتشيو ، وهى عبارة عن مائة قصة قصيرة يرويها سبع نساء وثلاثة رجال فى عشرة أيام أمضوها فى ضواحى نابلى هربا من الطاعون ، وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع عشر .

وهذه القصص تعتبر من أروع الأعمال الأدبية فى العالم وتعتبر البدايات الحقيقة للقصة القصيرة المثيرة .

وكل ما استلفت نظر الكاتب ممفورد هو أن الناس فى القرن الرابع عشر كانوا عندما يشعرون بالتعب ، فإنهم يهربون إلى الضواحى . ومن هنا ظهرت ضرورة الضاحية بالنسبة لسكان المدينة !

هذا هو الذى استنتجه الكاتب من مائة قصة قصيرة . ولعله أدرك أهمية هذه القصص وخطورة هذا العمل الفنى العظيم ، ولكن انشغاله بالبحث عن نشأة «الضواحى» هذا الانشغال هو الذى جعله يرى فقط هذه العبارة ضمن عشرات الألوف من العبارات ! فقط هذه الجملة ، وكأن بوكاتشيو لم يكتب حرفا واحدا ، وكأنه لم يكتب شعرا ولا نثرا ، ولا أحب ولا فشل فى حب ، ولا عاش ولا مات . فقط هذه العبارة !

وجاء فى كتاب «الطب المصرى القديم» للدكتور حسن كمال أن هومير فى «الإلياذة» وصف ١٤٧ جرحا «حربيا» من بينها ١٠٦ جرحا من الحراب وكانت نسبة الوفيات فيها ٨٠٪ و ١٧ جرحا بالسيف انتهت كلها بالوفاة و١٢ جرحا من

المنجنيق بلغت نسبة وفياتها ٦٦,٧٪ ولهذا أصبحت نسبة الوفيات من كل الإصابات ٧٧,٦٪ .

ومن المؤكد أن أحدا من الذين قرءوا الإلياذة أو الأوديسة لم يخطر على باله أن هناك أمراضا أو جروحا أو حتى يفكر فى أنواع الإصابات أو نسبتها المئوية !

ولكن هذه الأمراض هى التى تستلفت عين الطبيب، وهى التى تجعله يمسك الورقة والقلم ويحسبها .

والنكتة التى تقال عن رجل رأى سفينة الفضاء التى ركبها جاجارين أول رائد إلى الفضاء الخارجى، فقال : يا بختك . . أنت تعيش فى غرفة بمفردك !

مثل هذا الرجل لم يدرك بوضوح الانتصار العلمى العظيم الذى حققه العلماء . . ولم يدرك الشجاعة النادرة التى يتصف بها جاجارين . . وإنما كل الذى أثار اهتمامه هو أن إنسانا يعيش بمفرده فى سفينة . . أو فى غرفة ! مثل هذا الرجل لابد أنه مشغول بالبحث عن مسكن ! وهو يرى الدنيا كلها من خلال هذا الاهتمام !

فالدنيا كلها عنده نوعان : أناس يجدون مسكنا وأناس لا يجدونه . . وجاجارين هو أحد السعداء الذين حصلوا على مسكن خاص !

إنها النظرة الخاصة . . وهى أيضا تجمد العالم كله . . فلا تجعلنا ندرك منه إلا ما يثير اهتمامنا . .

فكل إنسان له جانب خاص من العالم ينظر منه . . وينظر إليه . . وهو فى الوقت نفسه يجعلنا ننظر إليه من زاويته هو . .

فالذى يهتم بالفلك لا ينظر إلا إلى النجوم والكواكب . . ولا يهتم إلا بها . . وهو فى الوقت نفسه يجعلنا ننظر إليه فى هذا الجانب أو من هذا الجانب . .

وكلما حرص الإنسان على أن يرى الناس، حرص فى الوقت نفسه على أن يراه الناس . .

وكلما حرص الإنسان على أن ينظر أبعد وأعمق، حرص أيضا على أن ينظر إليه الناس أبعد وأعمق . .

* * *

والكاتب الفرنسى هنرى باربيس فى قصة «الجحيم» يصور لنا شخصا لا نعرف اسمه من أول القصة إلى آخرها، نزل فى أحد الفنادق، وهذا الشخص لا هو سعيد ولا هو حزين، لا أحد يسعد به ولا أحد يحزن عليه. إنه فى حاله، وحاله هذا ليس إلا وجوده فى غرفة، وإلى جوار هذه الغرفة غرفة أخرى كل يوم تستقبل نزيلا جديدا . . وقد ذهبت به رغبته فى الاستطلاع إلى درجة أن يقف فوق سريره وينظر من ثقب فى أعلى الحائط إلى ما يجرى فى داخل الغرفة المجاورة. إنه ينظر دون أن يراه أحد. إنه يمارس حريته دون أن يتهدده أحد بالنظر إليه.

وفى إحدى المرات رأى خادمة تسوى الفراش وتقلب فى خطاب وتقرأ الخطاب، وتقبله. لابد أن يكون هذا الخطاب من صديق، ويستحيل أن يكون هذا الخطاب من أحد أقاربها، فالأقارب لا يبعثون عادة بخطابات تستحق القبلات . . وبعد ذلك يرى النساء والرجال من فوق السرير . . وأحيانا يتخيل كأنه يراهم ويعانقهم . . أى أنه يتخيل أنه يراهم . . كأن واحدا آخر ينظر إليه . .

وتنتهى قصة عذاب هذا الشخص الوحيد الحزين الذى يغمره الندم والوحدة فى كل مكان بأن يلتقى بأديب معروف مشغول بقصة طويلة، ويسأله الناس عن هذه القصة، وتكون المفاجأة أن هذا الأديب يقرأ على الحاضرين قصة رجل كان ينظر من فوق سرير إلى الغرفة المجاورة عن طريق فتحة فى الحائط !

ليس بطل قصة «الجحيم» هو الذى ينظر من خلال فتحة فى الحائط . . كل إنسان له حائط أمامه . .

وحائط وراءه.

وكل إنسان يحرص على أن يجعل فتحة الحائط ضيقة أو واسعة . . قريبة أو بعيدة . . كل الوقت أو بعض الوقت . .

أو يحاول أن يتسلق الحائط، أو يهدم الحائط . . أو يبنى حائطا آخر . . أو يتفرج من فتحة فى حائط على شخص آخر يتفرج من فتحة فى حائط آخر . . !

فى الجزء السادس من كتاب سارتر «مواقف» يتحدث عن الصين، ويسخر من فهم الفرنسيين للصين؛ فهم لا يعرفون الصين إلا عن طريق المعلومات التى يرويها التجار والبحارة ثم السياح . . وألبومات الصور الشهيرة. فماذا يقول هؤلاء الناس

عن الصين . . إنهم يتحدثون عن ألوانهم الصفراء وعيونهم المنحرفة وأطعمتهم وعن البيض الفاسد الذى يأكلونه وعن طريقة حلاقة الشعر عندهم . .

ومعلومات أخرى عن الصين . . لا علاقة لها بالصين، وإنما هى «صورة» عن الصين، وليست هى الصين ولا الشعب الصينى. فالفرنسيون يختلفون عن أبناء الصين، ولكن هل اختلاف أربعين مليون فرنسى عن ٧٠٠ مليون صينى، تعنى أن الحق إلى جانب الفرنسيين؟ هل يعنى هذا أن أسلوب الفرنسيين فى حياتهم وفى أفكارهم هو الأسلوب السوى، وأن الصينيين منحرفون كعيونهم؟

إن الفرنسيين لا يعرفون الصين وإنما فقط يعرفون «صورة» عن الصين . . صورة عابرة مهزوزة. وهم يتصرفون مع أبناء الصين، لا وفقا للحقيقة ولكن وفقا لهذه الصورة، ثم يطلبون من أبناء الصين أن يقربوا من الصورة . . أن يطابقوا الصورة بدلا من أن يتعب الفرنسيون - وغيرهم - ولو قليلا فى الاقتراب من أصل الصورة . . من الصين !

فالناس لا يرون وإذا رأوا فهم يرون من خلال اهتمامات . . من خلال عيون الآخرين . .

إنها مرة أخرى عيون الجورجون . .

ثلاث أخوات يرين بعين واحدة . . يتبادلن العين . . تماما كما يتبادل الفرنسيون عينا واحدة لرجل سافر إلى الصين وينظرون بعينه . . !

ولقد حاول الكاتب السويسرى ماكس فريش فى إحدى رواياته التى عنوانها «ليكن اسمى جانتبين» أن يصور هذا المعنى فجعل بطل روايته هذه وهو جانتبين رجلا يدَّعى أنه أعمى ويعيش فى عالم كله يراه ويفهمه، ولكنه مصر على أن يكون أعمى لكى يرى بحرية. وتزوج هذا الرجل من ممثلة حسناء على علاقة بعدد كبير من الرجال، وأنجبت له طفلا وهذا الطفل مشكوك فيه طبعا، وتردد مع زوجته فى كل الأماكن التى تذهب إليها السيدات . . محلات التمثيل وصالونات الحلاقة . . ورأى نساء عاريات، ولم يشعر أحد بحرج أمامه لأنه أعمى . . ورأى الرجال وهم يعاكسون زوجته . . رأى عالما آخر لأنه أعمى !

فلأنه أعمى يفتح المجتمع له كل الأبواب . . فالأبواب مفتوحة للعميان ، ولكن هذا الأعمى استطاع أن يرى ما لا يراه غيره من المبصرين . .

لأن المبصرين يرون من خلال صور . . من خلال صور جاهزة . . ومن ضمن هذه الصور : أن الأعمى لا يرى أى شيء . . وأنه لا ضرر من أن يكون الأعمى فى كل مكان ، وأن المبصرين يرون كل شيء . .

وقد استطاع شخص واحد أن يخدع عشرات الأشخاص . . أن يجعلهم جميعا من العميان ، وأن يكون هو وحده المبصر . .

وقبل ذلك حاول ماكس فريش أن يناقش «الصور» الجاهزة التى يتداولها المجتمع ، أو النظرات الثابتة التى تتجمد عندها عيون الناس ؛ فتناول فى مسرحية له اسمها «أندورا» ـ وهى اسم استعاره من إمارة صغيرة على حدود إسبانيا وفرنسا .

وفى هذه المسرحية رأينا شخصا اسمه أندرى ، وهذا الشخص يقال إنه لقيط ويهودى وإن أحد المدرسين قد تبناه ، ويعامله المجتمع على أنه لقيط ـ مثلا ـ أى أنه إنسان لا خير فيه ، إنسان يحب الفلوس . . إنسان بلا قيم . . إنسان خائن بطبعه . . انتهازى . . وكل هذه صفات جاهزة موجودة فى المجتمع وفى انتظار أى لقيط ، فلا يكاد يظهر حتى تلتصق به هذه الصفات .

ويحب هذا الشاب ابنة المدرس الذى تبناه ويتفقان على الزواج ، ويحدث عدوان على دولة أندورا وتجرى محاكمات لأمثال هذا الشاب . وفى هذه الأثناء تجيء أم هذا الشاب وتؤكد للناس أنه ابنها ، أى أنه ابن المدرس وأخو الفتاة التى يحبها ويجيء القسيس ويؤكد له أنه ابن شرعى . . وأنه مسيحى . . ولكن هذا الشاب يرفض إلا أن يكون كما يراه الناس : لقد رأوه لقيطا ، وقد حرموه من دخول الكنيسة فسيكون كما يراه الناس ، لن يكون جبانا كوالده الذى لم يعترف به أول الأمر والذى لم يستطع أن يصارح الناس بأنه ابنه . .

وتنتهى المسرحية بإصرار هذا الشاب على أن يكون تماما كما أراده الناس أى تنطبق عليه كل الصفات الجامدة . . كل القوالب الجامدة . . كل الصور التى تعلقت على جدران المجتمع . ورغم أن الناس قد اعتذروا له الواحد بعد الآخر على سوء فهمهم له ، إلا أنه أصر على أن يظل دليلا قاطعا على سخافة الناس . . وعلى ضيق الناس . . وعلى أن الناس لا يرون بوضوح . . وإنما يرون من خلال فتحات

ضيقة . . هذه الفتحات قد توارثوها . . وظلوا ملتصقين بها ، ولم يحاولوا أن يسدوها أو يوسعوها أو يغيروها أو يناقشوها . .

لم يحاولوا أن يهدموا الحوائط الفاصلة بين الناس . . لم يحاول أحد . . وإنما ظل الناس ضحايا نظراتهم الجامدة . . نظراتهم الجرجونية .

* * *

إن الكاتب الأمريكى «فانس باكار» فى كتابه «الإقناع الخفى» ـ وهو من أجمل الكتب التى تكشف عقلية المواطن العادى فى أمريكا ـ يصور لنا كيف يفكر المواطن الأمريكى . . أو بعبارة أصح كيف يفكر «المستهلك» الأمريكى . وهو يهتم بالمواطن الأمريكى باعتباره مستهلكا .

إن المستهلك الأمريكى خاضع لحملات من الدعاية القوية الذكية والشريرة أيضا . .

إن الشركات فى أمريكا تستخدم كل الوسائل للتأثير على المستهلك بالسينما والتلفزيون والإذاعة والصحف . . إن هذه الشركات تختار له كل الوسائل التى تؤثر عليه . . والتى تجعله فى الوقت نفسه عاجزا عن الاختيار . إن كل الشركات تستخدم علماء النفس وعلماء النفس الجنائى ، والخبراء فى الألوان والأذواق ، وعلماء فى دراسة الشعوب ، وعلماء فى الاجتماع . . كل هؤلاء العلماء لهم مهمة واحدة هى أن يمسحوا السوق ، وأن يتصلوا بالمستهلكين وأن يعرفوا أذواقهم وأن يعرفوا رغباتهم . وبعد ذلك يفكرون فى أحسن الوسائل للتسلل إلى المستهلكين . .

وكل سلعة لها شعار خاص ، وهذا الشعار على شكل حكمة ، أو على شكل نكتة ، ومكتوب بشكل خاص .

والإعلانات فى التلفزيون وفى السينما وفى الصحف وفى الشوارع وفى صناديق البريد وفى كل ورقة يلمسها أى مستهلك ، وعلى سيارته وعلى القلم الذى يمسكه ، كلها لا تترك له فرصة لكى يفكر . . بل تجعله عاجزا عن التفكير . . فلا يملك إلا أن يترك غيره يفكر له . . غيره يرى له ، أى أن مهمة هذه الشركات هى أن تصنع العيون التى تريدها ، وتثبتها فى مكانها من رأس المستهلكين . .

إنها لعبة أخوات الجرجون نفسها . . تبادل العين الواحدة . . واحدة فقط ترى والباقيات ينتظرن ليجيء دورهن فى الرؤية . . فإذا جاء الدور كانت العين صناعية . . عينا من نوع خاص . . لا ترى إلا ما يعجب الشركات . .

تماما كما حدث عندما كنا نشاهد الأفلام البارزة، كان لابد أن يوزعوا علينا نظارات من نوع خاص على باب السينما، ونضع هذه النظارات على العين، وبها وحدها نستطيع أن نرى الشاشة ذات الأبعاد، ترى الكرة على الشاشة وهى تكاد تسقط فى صالة السينما . .

فإذا نزعنا المنظار الذى وزعوه علينا . . أصبحت المناظر المعروضة أمامنا عادية جدا . .

ويقول «فانس باكار» فى كتابه عن الإعلانات والشعارات التى تستخدمها شركات السيارات مثلا: لا تنس أن كل هذه الصفات الخاصة بالسيارات، هى فى الوقت نفسه صفات خاصة بمن يشتريها قبل أن يشتريها وبعد أن يشتريها. وهذه الصفات قد اختارها الخبراء . . خبراء العيون الصناعية التى يضعونها فى رءوس المستهلكين دون أن يشعر مستهلك واحد بذلك، فإذا شعر فلا وقت عنده للتفكير !

مثلا . . مثلا . .

كاديلاك : متكبرة . . باهرة . . لرجل الأعمال الذى فى منتصف العمر . . أبهة . . وتدل على أنه من ذوى الدخل الكبير . . تدل على المسئولية . .

فورد : سرعة شيطانية . . لذوى الدخل الممتاز . . للشباب . . واثقة من نفسها . . لكل الطبقات . . عملية . .

دى سوتو : محافظة . . مسئولة . . تدل على السيادة . . الطبقة المتوسطة . . معتدة بنفسها . . وتدل على صاحب الدخل الممتاز . .

ستوديبيكر : نظيفة . . مدللة . . مثقفة . . رشيقة . . للمحترفين . . والشباب . .

بونتياك : تدل على الاستقرار النفسى . . فى منتصف الطرق . . للمتزوجة . . والأم والوفاء . . ومحافظة . . ومشغولة . .

مركورى: تاجر . . واثق من نفسه . . مودرن . . أب . . سريع . . متفائل . .

وكل إنسان يلمس فى نفسه أية رغبة فى أن يكون مسئولا . . أو هو بالفعل مسئول فإنه يختار السيارة التى تناسبه . . والشاب يختار السيارة التى تناسبه والمرأة والأم كذلك .

إن هذه الشركات قد اختارت الصفات التى تعجب الناس . . ثم أطلقت هذه الصفات على السيارة نفسها . . فالسيارة هى التى تختار الزبون . .

والسيارة هى التى تختار طبقته ومركزه وحالته النفسية . .

وشركات السيارات وغيرها هى التى اختارت النظرة . . هى التى اختارت الزاوية . . واختارت العين التى ينظر بها المستهلك إلى العالم الخارجى . . وأقنعت هؤلاء المستهلكين بأنه لا شىء يدل على شخصيتهم قدر اختيارهم لهذه السيارات وغيرها من السلع الموجودة فى الأسواق . . !

ويقول المؤلف الأمريكى أيضا: إن الخبراء لاحظوا أيضا أن أكثر الناس تعصبا لنوع معين من السجائر لا يستطيع أن يفرق بين سيجارته هذه وبين أية سيجارة من أى صنف آخر . . لو أعطيت له سيجارة فى الظلام . . أو أعطيت له مادة سجائر أخرى غير التى يدخنها . .

ومع ذلك يتمسك بسيجارته رغم أنه لا يفرق بينها وبين أى نوع آخر !

إنها النافذة التى وضعته أمامها شركات السجائر والسيارات . . إنها العين التى ركبت دون أن يدرى . . إنها القوالب التى انحشرت فيها أفكاره سرا !

وعندما يشعر المستهلك بعجزه أمام هذه الإعلانات الكثيرة، وأمام هذا السيل الهائل من الكلام والصور والادعاءات والصرخات، فإنه يتوقف عن التفكير . . يستسلم ويبحث عن الشىء الذى يربحه . . يختار أسهل شىء . . أو يختار أكثر الأشياء إقناعا له . .

ولما كان عاجزا عن المناقشة، فإنه يتعكز على أية عبارة . . فإنه يختار أية نظارة . . أية عين ينظر بها ومنها.

فالإنسان مهما يكن عاجزا فإنه لابد أن يرى . . لابد أن يرى بنفسه أو بغيره . . بعينه أو بعيون الآخرين . . !

* * *

وشيء غريب حدث في المسرح أيضا . .

ثقوب عديدة واسعة حدثت في الحائط الرابع للمسرح . .

فمن المفروض أن الممثلين يظهرون أمامنا وكأنهم لا يشعرون بوجودنا . . مفروض أن هناك حائطا فاصلا . هذا الحائط من تصورنا ومن افتراض الممثلين ؛ نحن اتفقنا قبل أن ندخل المسرح ، وعندما جلسنا فيه ، على أن هناك حائطا فاصلا بيننا وبين الممثلين . . كأننا نتفرج على أناس سرا . . وكأنهم منعزلون عنا لا يدرون بنا . .

حائط من البلاستيك . . حائط فاصل وفي الوقت نفسه ليس فاصلا . . حائط نايلون . . يفصل ولا يفصل . .

ومضى على المسرح ألوف السنين والحائط في مكانه . . بين الممثلين والمتفرجين . . نحن نراهم . . ومفروض أنهم لا يروننا . . نحن لنا عيون . . وهم بلا عيون . . تماما كالتماثيل الإغريقية ذات العيون الزجاجية . . فقط عيون ولكن بلا حدقات .

ولكن مع الرؤية الحديثة . . ومع توسيع مجالات الرؤية في العلوم والآداب والفنون . . ومع إشاعة البلاستيك في البناء والنايلون في الأزياء كان لابد أن نضع للممثلين عيونا يرون بها . . يرون بها ألوف الناس الذين يتفرجون عليهم . .

لم يعد الممثلون يتلصصون على المتفرجين . .

لم يعد المتفرجون في مأمن من نظرات الممثلين . .

فمن الممكن أن ينظر الممثل إلى المتفرجين وهم جالسون . . ويتابع دخولهم وجلوسهم ، ثم يتخذ موقفه التقليدي «ويمثل» . . أي ينعزل ويقف مستندا على الحائط الشفاف بيننا وبينه ، إنه في أول الأمر يقف أمام الحائط أو يخترقه . . ويحرص على ذلك ، ثم يعود إلى الاختفاء وراءه . .

لقد انتقلت العيون إلى الممثلين . .

إن مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لبيراندللو قد مزقت الحائط الفاصل بين الممثلين والمتفرجين. لقد دخل الممثلون من الصالة وكأنهم ليسوا ممثلين . . وإنما كأنهم أناس أخطئوا طريقهم إلى مكان آخر غير المسرح . . ولكن ظهورهم على المسرح واندماجهم فى الدور، وتحركهم فى الإطار الذى وضعه المؤلف يجعلنا ندرك فورا أنهم عادوا من جديد إلى الوقوف وراء الحائط الفاصل بين الممثلين والمتفرجين . .

إن مسرحية «بلدتنا» لثورنتون وايلدر التى ظهرت من أربعين عاما يتحدث فيها الممثل للجمهور، بل إنه يقف أمام المسرح ينتظر المتفرجين حتى يجلس آخر واحد منهم، وينظر إليه ويتابعه . . كأنه ليس ممثلا . . وكأن الحائط لا وجود له . .

إن الممثل يرى . .

هذا شيء جديد . . فى حين أن الممثل عادة يرى داخل المسرح فقط . . ولكنه لا يرى الصالة . .

ثم يعاود الحديث إلى الجمهور . . أى يعاود النظر إليه . .

ومسرحية «اللعب الزجاجية» لتنسى وليامز يقف فيها الممثل يتحدث أيضا إلى الجمهور . . ثم يدخل ضمن الممثلين . . أى أنه يرى . . يرانا . . ثم يغمض عينه عنا . .

وفى مسرحية «الزنوج» للكاتب الفرنسى جان جنيه يؤكد أن هذه المسرحية ليست إلا محاكمة للرجل الأبيض، ويجب أن يشعر المتفرج الأبيض بأنه فى محكمة. فالمسرحية كتبها رجل أبيض للبيض، فإذا فرضنا أن المتفرجين لم يكن من بينهم رجل أبيض واحد . . يجب أن يأتى المخرج برجل أبيض وأن يستقبله بحفاوة خاصة، وأن يسلط الضوء عليه أثناء عرض الرواية . . لأن الممثلين جميعا يمثلون له وأمامه وضده، فإذا رفض أى إنسان أبيض أن يقوم بهذا الدور، فعلى المخرج أن يأتى برجل أسود وأن يضع على وجهه قناعا أبيض وأن يتلقاه بالحفاوة وأن تركز

عليه الأضواء. فإذا رفض رجل أسود أن يقوم بهذا الدور، فعلى المخرج أن يأتى بدمية بيضاء وأن يحتفى بها وأن يسلط عليها الأضواء . .

ومعنى ذلك أن الحائط الرابع لم يسقط فقط وإنما انتقل الممثلون إلى الصالة . . أو أن الحائط الرابع قد التف حول المسرح كله . .

فالممثلون ليست لهم عيون فقط يرون بها المتفرجين . . بل إن الممثل له عين يرى بها الممثلين أيضا ويرى بها المتفرجين وهم يتفرجون على الممثلين ويرى الممثلين وهم يتفرجون على المتفرجين . . وفى استطاعة هذا الأبيض الجالس فى الصالة أن يدخن هو وحده . . وأن يقلب فى صحيفة . . وأن يشرب القهوة . . وأن يظهر كل أنواع عدم الاكتراث للمحاكمة التى تجرى أمامه . . وتجرى عليه . .

ومسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» . . بلا ستارة. لا ستارة ترفع ولا ستارة تهبط . . وإنما الجمهور يدخل فيجد نفسه أمام مسرح مفتوح . . أو يجد نفسه مباشرة وقد اهتم بالمسرح . . وقد رأى، أو وهو «منظور» من الممثلين فليس هو الناظر الوحيد . . وإنما الممثلون هم النظارة . .

ومسرحية «بلدتنا» بلا ستارة . .

ومسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر بلا ستارة . .

لقد سقط الحائط الرابع . . بين الممثل والمتفرج . . أو بين المؤلف وبين المتفرج . . إنه المؤلف يقترب من القارئ والمتفرج . .

فالمؤلف يكتب للناس عن الناس . . يكتب للناس عن أنفسهم . . وهو ليس فى حاجة إلى أن يكون أبعد ليكون أوضح . . وإنما هو فى حاجة لأن يكون أقرب . . فهو قريب إلى نفسه . . وهو قريب إليهم . . فهو صادق مع نفسه، ولذلك فهو صادق مع الناس . .

وكل محاولة للاقتراب من إنسان، هى محاولة للتسلل وراء «حائطه الرابع» محاولة لرؤيته بلا تمثيل . . لرؤيته على حقيقته.

وكل لقاء مع كاتب . . مع فنان عن طريق الحياة معه أو فى أعماله الفنية، هى

محاولة لتوسيع فتحة فى الحائط الرابع . . وهى تحويل للحائط الرابع إلى جدار شفاف . .

والفن ليس إلا نوعا من الاعتراف . . أى نوعا من إزالة الحائط الرابع بين الفنان وبين الناس، فيحدثهم عن نفسه . . بلا تحفظ . . بلا حواجز . . سواء نشر الفنان اعترافاته وهو حى . . أو نشرها بعد وفاته . .

فإذا نشر الفنان اعترافاته وهو حى، كان معنى ذلك أنه لا يخشى أن يصارح الناس . .

فإذا نظر إليه الناس، نظر إليهم أيضا . .

وإذا رآه الناس عاريا، واجههم . . فهو قد استعد لهذه اللحظة . . لهذه المواجهة . .

وإذا نشر اعترافاته بعد وفاته، فمعنى ذلك أنه لم يقو على مواجهة الناس . . لم يقو على نظرات الناس، إنه فضل أن يفقأ عينيه حتى لا يراهم، أن يموت . . ومعنى موت الفنان قبل أن ينشر اعترافاته، أنه قرر أن يحرم الناس من متعة إلصاق العار به . . أنه فوت على الناس لذة تعذيبه . .

فنشر اعترافاته بعد موته . .

والفيلسوف سارتر نشر كتابه «كلمات» وهى اعترافات . . أو ترجمة حياته . .

ونشرت «سيمون دى بوفوار» اعترافاتها فى «مذكرات فتاة متزنة» وفى «قوة الأشياء» وفى «قوة العمر» وفى «وفاة هادئة جدا» . .

وطه حسين نشر «الأيام» . .

والعقاد نشر «فى بيتى» . .

والمازنى نشر « قصة حياة» . .

وسومرست موم نشر « الخلاصة» . .

وهمنجواى نشر «المأدبة المتحركة» . .

ونشر توفيق الحكيم «سجن العمر» . .

ونشر زكى نجيب محمود «قصة نفس» . .

وقبل ذلك نشر أندريه جيد «يومياته» . .

ونشرت ماريا بشكرتشيف «مذكراتها» . .

وروسو نشر «اعترافاته» . .

والقديس أغسطين نشر «اعترافاته» . .

ولكنها محاولات لرفع الحائط الرابع بين الكاتب والقارئ . . وبين الكاتب ونفسه . .

ولا يزال أمل الفنان أن يرفع الحائط الفاصل بينه وبين الناس . . وبينه وبين الأشياء . . ليرى أوضح وأعمق وأبعد . . وليحاول أن يربط بين مفردات الكون كله . .

وأهم من ذلك كله وأصعب هو أن يحاول الإنسان أن يرى نفسه أوضح . . فلا يزال هو مركز الرؤية، ومصدر الرؤية، ووسيلة الرؤية، والغاية من الرؤية . .

أن يرى الإنسان غيره وأن يرى نفسه . . هذا هو كل العلم وكل الفن . . والغاية من كل علم وكل فن . .

والإنسان يحاول أن يمسح العدسة التى يرى بها وأن يضبطها . . وأن يغيرها . .

فليس العلم الحديث أو العلم فى كل عصر إلا تطويرا لصناعة العدسات أو لصناعات العيون التى ننظر بها إلى غيرنا . . وإلى أنفسنا . .

* * *

ولا تزال أعز آمال الإنسان أن تسقط كل الحوائط . .

بين الناس . .

وبين الأشياء . .

لا حائط رابع ولا ثالث ولا أى حائط ولا أى عائق . .

إنه أمل يتراءى للإنسان . .

ويحاول أن يراه أوضح وأصدق وأعمق . .

هنا . . فى هذه الصفحات ، أو فى صفحات أخرى ظهرت أو سوف تظهر !

أنتم الناس أيها الشعراء (*)

خدعوها بقولهم: حسناء
والغواني يغرهن الثناء

أتراها تناست اسمى لما
كثرت فى غرامها الأسماء؟

إن رأتنى تميل عنى كأن لم
تك بينى وبينها أشياء

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء

ففراق يكون فيه دواء
أو فراق يكون فيه الداء

يوم كنا - ولا تسل كيف كنا -
نتهادى من الهوى ما نشاء

وعلينا من العفاف رقيب
تعبت فى مراسه الأهواء

جاذبتنى ثوبى العصىَّ وقالت:
أنتم الناس أيها الشعراء!

فاتقوا الله فى قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهنَّ هواء

«أحمد شوقى»

(*) مقدمة كتابى: «أنتم الناس أيها الشعراء».

«ياصاحب الجلالة أقدم لك رجلا سوف يهبك الخلود، ولكن أرجو أن تعطيه رغيفا حتى يتمكن من أداء هذه المهمة !»

قالها الناقد الفرنسى داسبريو (١٦٦٣ ـ ١٧١١) وهو يدفع أمامه أحد الشعراء ليعمل فى بلاط الملك.

ويقال إن الملك نظر إليه طويلا وعريضا وعميقا وسأل: ما الذى يأكله الشعراء؟

فقيل له: ما يأكله كل المواطنين.

فسأل: فمن أين يأتون بهذا الكلام الغريب إذا كانوا يتناولون الطعام نفسه؟

فقيل له: هذه هى الموهبة التى انفردوا بها !

فسأل: ولماذا لم يعطهم الله بعض المال حتى لا يمدوا أيديهم إلى الملوك؟

فقيل له: هذا هو مصدر تعاستهم.. والتعاسة هى أحد ينابيع الشعر.. فإن لم يجدوا التعاسة عند غيرهم، ابتدعوها لأنفسهم !

قال الملك: دعنى أفكر قليلا فى هذا الذى قلت.. إذن هذا الشاعر سوف يدخل قصرى فيسخط على الملك الذى ليس شاعرا، وعنده كل شىء.. ويسخط على الحاشية التى عند الملك، ولا رأى لها ولا عقل.. ويسخط على عشيقات الملك اللاتى أعطاهن الله الجمال وأخذ منهن العقل.. إذ كيف يركعن عند قدمى الملك، ولا يركعن عند عظمة الشاعر.. إن كان هذا هو المقصود من وجود الشاعر بيننا فإنى أوافق على أن أكون مصدر تعاسة ليقول شعرا.. ولكن أين يجد الشاعر سعادته.. كيف يجد سعادته فى تعاسته؟..

فقيل له: لا تشغل بالك كثيرا يا صاحب الجلالة.. إن الشاعر كالسمك يعيش ويموت فى الماء.. ونحن الناس العاديين يغرقنا الماء.. الشاعر نوع من الطيور.. يعيش على الهواء، ويموت به أيضا.. إنه بشر ولكن ليس كالبشر.. إنه كأنصاف الآلهة وإن لم يكن كذلك !

فى اللغات الأوروبية يصفون الشاعر بأنه كالبجعة.. لأن أبولو إله الشعر كان يتحول من حين إلى حين إلى بجعة، لكى ينظم شعرا ويتغنى به.. ويقال إن

البجعة تطلق أجمل صيحاتها عندما تموت . . فالشعر دليل على أن الشاعر قد قارب النهاية ، وكل الشعر هو نشيد الوداع ، فكأن الشعراء ولدوا ليموتوا وتعيش ألحانهم بعدهم إلى الأبد . .

ويقال إن الشاعر مثل «طائر الشوك» ذلك الطائر الغريب الذى يظل يطير بعيدا بعيدا . . دون طعام أو شراب . . حتى يرهقه الطيران . . ويختار من كل الأشجار شجرة كثيرة الأشواك . . ومن كل الأشواك أطولها وأعلاها . . ويروح يلقى بنفسه على هذه الشوكة الطويلة . . ويظل يفعل ذلك حتى تنفذ الشوكة إلى قلبه ، فيطلق آخر وأروع صيحاته .

لقد قال كلمته عند قمة شجرة ، ومات فى قمة اللياقة الغنائية . . لقد ادخر ما تبقى من قوة لكى يفجر بها الدم والشعر معا . . ولآخر مرة!

* * *

أما كيف يهبط الشعر على الشاعر ، أو كيف يتدفق منه النغم أو كيف يكون هو الجمال والموسيقى؟ فإن الشعراء لا يعرفون . . فالوردة لا تعرف كيف هى جميلة ، والشمس لا تدرى كيف هى مضيئة . . بل كيف أن الشمس التى هى مصدر الحياة ، ليست بها حياة . .

هل هم ملهمون؟ هم يقولون ذلك . . ولكنهم أيضا لا يعرفون ما هو الإلهام . . يقولون عفاريت الشعر تتسلل إلى قلوبهم . . إلى عقولهم . . فلا يكاد الشاعر يجلس وحده . . أو ينام حتى تغافله الشياطين فإذا هو يقول كلاما جميلا . .

وأين تسكن هذه العفاريت؟ يقول العرب فى وادى عبقر . . ومن هنا جاءت كلمة العبقرية . .

وكان العالم الإغريقى فيثاغورث يرى أن الكواكب كلها موسيقية العلاقات . . فالله قد ربط الكون كله بموسيقى واحدة . . والكون كله فى انسجام دائم . . والشعراء هم الكورس فى هذه السيمفونية الكونية . .

وكان الفيلسوف أفلاطون يرى أن على كل كوكب شاعرا أو موسيقيا يعزف اللحن الذى اختاره الله له . . فالكون أوركسترا حفظت لحنا أزليا أبديا . . وفى سفر «أيوب» بالكتاب المقدس هذه الآية العجيبة : إن نجوم الصباح تغنى معا !

والشعراء مثل دودة القز . . لا يفرزون إلا خيوطا من حرير . . ثم يموتون . . إنهم ينسجون أكفانهم وقبورهم أيضا . لماذا؟ إنهم لا يعرفون كما أن دودة القز لا تعرف . .

ويوم جمع الإمبراطور نيرون شعراء مملكته سألهم : كل واحد يتقدم خطوة ويقول بسرعة : ما هى صناعته . .

واندهش الإمبراطور كيف أنهم جميعا بلا صناعة ومع ذلك يجدون طعاما وشرابا ويحترمهم الناس ، فطردهم وطلب إليهم أن يختاروا لهم عملا وإلا قتلهم ، ثم استدعاهم ، ووجد كل واحد منهم قد نظم قصيدة ، ولما عاد يسألهم : إن كانوا تعلموا شيئا مفيدا ؟ فقال أحدهم : ولكن شعرى يشفى من الصداع وأوجاع البطن ؛ جربت ذلك على كثيرين . .

فنهض نيرون وضرب رأسه بالحائط ، وقال : عندى صداع . . أسمعنى شعرك !

وأسمعه أبياتا لم تخفف عنه وجع الدماغ ؛ فأمر بإيداعه السجن .

وقال شاعر آخر : إن أبياتى تجعلك ترى القبيحة جميلة وتجعل دنياك أروع مما هى .

فأمر أن يأتوا له بأقبح امرأة فى قصره ، وجاءت كالقرد ، فأمسك الشاعر قيثارته وراح يغنى إحدى قصائده . . وحارت عينا الإمبراطور بين الشاعر والمرأة الدميمة . فلم يلاحظ تغيرا فى ملامحها ، وسأل الناس حوله : هل ترون ما أرى؟

قالوا : نعم .

سأل : هل جعلها الشاعر جميلة؟

قالوا : أبدا .

فسأل الشاعر : وهل أنت تراها جميلة؟

قال الشاعر : فى غاية الجمال .

قال نيرون : الآن تزوجها أمامنا جميعا .

فصرخ الشاعر : فى عرضك يامولاى !

وأشار نيرون أن يحبسوها معه حتى يندم على ما قال ويتوب عن نظم الشعر !

ولما سأل نيرون شاعرا لطيفا رقيقا باسما أنيقا : وأنت شاعر طبعا؟

قال : أمرك يا مولاى !

سأله : هل تحب أن تكون شاعرا؟

قال : أمرك يامولاى !

سأله : وكيف تنظم شعرك؟

قال : لا أعرف كيف ، ولكن أنام وأصحو من نومى فأجدنى أتغنى بأبيات لا أعرف كيف جاءت ولا من أين . . فأصدر نيرون أمره : بأن هذا شاعر . . وأن الشعر لا يجىء إلا أثناء النوم !

ويقال إن الشاعر الإغريقى إيمنيدس دخل أحد الكهوف ونام به ٥٧ عاما وخرج وقد نظم شعرا كثيرا ، وأعجب من ذلك أنه كان قد حفظ كل ما قاله الشعراء خارج الكهف ، مع أن أحدا لم يقترب منه ولا هو من أحد . . فكل ذلك قد جاءه فى النوم!

ويقال إن الضابط الفرنسى روجيه دليل ، قد دخل فراشه يوم ١٤ أبريل سنة ١٧٩٢ ، ونهض من نومه ليجد أنه قد نظم أنشودة «المارسييز» ولحنه أيضا ـ وهو نشيد الثورة الفرنسية والنشيد الوطنى الآن ـ .

والشاعر الإنجليزى كولريدج كتب قصيدته الطويلة «كوبلا خان» سنة ١٧٩٧ أثناء النوم . .

والفيلسوف الإنجليزى العظيم برترلاند رسل ، لم ينظم شعرا قط ، ولكنه اندهش عندما صحا من نومه وأمسك قلما يكتب قصيدته الوحيدة فى ستين بيتا ، جاءته فى النوم ، ونقحها أثناء النوم . . ولما صحا كتبها مرة واحدة !

وكان أمير الشعراء أحمد شوقى يكتب معظم القصيدة . . فإذا أراد أن يكتب

مطلعها . . فإنه يستسلم للنوم . . فإذا صحا كان قد وجد مطلع القصيدة وأبياتا أخرى وخاتمتها أيضا . .

أما شاعرنا الرقيق اللطيف البحترى فإنه كان يمشى بين البيوت وبين الخيام ويتحدث إلى نفسه، كأنه يشجع نفسه على إكمال قصائده فيقول: ما أعظمك . . ما أروعك . . ما أصدقك . . هات يا سيدى هات !

وبعد أن يقيم حفلات التكريم لنفسه، يجلس إلى جوار أى حائط وينام فإذا القصيدة كلها قد حضرت . .

وكان الشاعر الفارسى الفردوسى يقول: ما أتعسنا نحن الشعراء . . فقراء إذا صحونا، آلهة إذا نمنا !!

وقد نظم الفردوسى (٩٤٠ - ١٠٢٠) ملحمة «كتاب الملوك» فى ستين ألف بيت . . بدأ فى نظمها سنة ٩٩٩ عن ملوك الفرس فيما بين ٧٠٠ ق. م و ٧٠٠ م . .

وللفردوسى هذا البيت وهو يقارن بين الشعراء والملوك:

الشعراء ملوك يرقصون أثناء النوم، والملوك ينامون أثناء رقص الشعراء !

عندما قابلت شاعرنا الرقيق إبراهيم ناجى وجدته يتمتم. فسألته: ماذا؟

قال: إننى ألحن وأغنى لنفسى وسعيد باستقبال الجماهير للشعر والغناء والموسيقى !

ثم يضحك !

كنا فى الكويت.

وارتجل الشاعر الرقيق صالح جودت أبياتا، ثم استدرج كل الموسيقيين معنا، واحدا واحدا، وطلب إلى كل منهم أن يرتجل لحنا مناسب . . كما ارتجل هو هذه الأبيات . . وكان أكثر الموسيقيين من مصر والعراق وسوريا والبحرين . . ورأيت الدموع فى عينى صالح جودت.

ثم همس فى أذنى: عندى مشكلة؟

قلت : ما هى؟

قال : إن اللحن الذى يتردد فى أذنى ولا أعرف كيف أنقله لهؤلاء الموسيقيين أروع . . إننى كفيلسوف العرب الفارابى !

وكان الفارابى إذا جاءه لحن نهض من طعامه أو من نومه وراح ينقر على الأبواب والنوافذ . . ولكنه لا يعرف كيف ينقل هذه النغمات الموسيقية إلى أحد . . وكان يفعل ذلك فى أى وقت، حتى ضاق به الناس . . فكثيرا ما فاجأ ضيوفه رجالا أو نساء أو الوزراء أو الخليفة بأنه نهض وراح ينقر على دماغه أو على وجهه . . ولذلك كان يطلب إلى خادمه أن يتسلل من وراء ظهره ويربط يديه معا حتى لا يمارس هوايته أو محنته العجيبة . .

ونظرت إلى صالح جودت أسأله عن المعنى فقال : المعنى؟ إننى أريدك أن تربط يدى ورجلى حتى لا أخلع الجزمة . . إلخ !!

ونحن لا نعرف الشاعر هوميروس «١١٠٥ ـ ٧٠٠ ق. م؟!» ولا مئات الشعراء فى جاهلية الأدب العربى والأدب الإغريقى أيضا . . ولكن هوميروس هو الذى وسع عقله كل أساطير الإغريق . . ولم يفلح إنسان واحد فى أن يسيطر على كل آداب الإنسان وفلسفته كما استطاع هذا الرجل . . وكان إذا روى أساطير الأولين لا يعرف الذين يستمعون إليه إن كان صاحيا أو نائما . . فهو أعمى . . وله عين مفتوحة والأخرى مطبقة . . وكان إذا فتح فمه تزاحم النحل على شفتيه يمتص رحيق الأبدية .

أما شاعر الهند طاغور «١٨٦١ ـ ١٩٤١» فيقال إن الطيور كانت تحط على يديه وتضع رءوسها بين أصابعه تستمع إلى موسيقى الجمال والجلال . .

ويقال إن أمير الشعراء الألمان هيلدرلين «١٧٧٠ ـ ١٨٤٣» عندما نظم ملحمته الشهيرة باسم «هيبريون» كان يرفع يده اليسرى إلى أعلى . . ويضع رأسه عليها . . ويقول : إنه يسمع الأبيات فى ذراعه ثم يكتبها ؟!

وكان من عادته إذا نام يرفع ذراعيه إلى أعلى، وللسبب نفسه . . وقد أصابه التهاب رئوى بسبب أنه كان ينام إلى جوار الحائط لكى يضغط بجسمه على إحدى ذراعيه لتظل مرفوعة إلى أعلى؟!

وأحس الشعراء بأنهم ملهمون . . يهبط عليهم الوحى . . أو نوع من «الفيض الشعورى واللاشعورى» كأنه الوحى . . وكأنهم أنبياء . . أو هم كذلك . . والمتنبى أعظم شعرائنا كان يقول بذلك . . بل إنه ذهب إلى أن الله سبحانه قد أنزل عليه الوحى وأنزل عليه قرآنا . . ووجدنا من يصدقونه . . ثم إنه اعتقد أنه يستطيع أن يأتى بالمعجزات كإنزال المطر فى مكان ولا ينزل فى مكان آخر . . أو أن يقتل كلبا أو أى حيوان أو أى إنسان .

وفى شعر المتنبى الكثير الذى يدل على إيمانه بأنه أعظم الشعراء وأعظم الناس . . وله أبيات شهيرة للدلالة على ذلك يقول فيها : إنه فى أعلى مكان وأعظم من أى عظيم وكل ما فى الدنيا لا يساوى عنده شيئا . يقول :

أى محل أرتقى؟ ... أى عظيم أتقى؟
وكل ما قد خلق الـ ... ـله وما لم يخلق
محتقرة فى همتى ... كشعرة فى مفرقى !

ـ أو يقول :

أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسهام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله ... غريب كصالح فى ثمود
ما مقامى بأرض «نخلة» إلا ... كمقام المسيح بين اليهود !

وكذلك شاعرنا الفيلسوف أبو العلاء المعرى قد تأله وأنزل على نفسه القرآن ـ آيات يحاكى بها الشكل القرآنى ، وكان ملحدا ، وقد هجاه شعراء آمنوا بعظمته ولكنهم كفروا بادعائه النبوة :

كلب عوى بمعرة النعمان ... لما خلا عن ربقة الإيمان
أمعرة النعمان ما أنجبت إذ ... أخرجت منك معرة العميان !

وقد اعتدنا أن نقرأ للشعراء يقولون : أنا خلقت . . أنا نظمت الكون . . لولاى ما كانت الشمس والقمر . . أنا أنا أنا . . حتى تحتوى كلمة أنا على الكون من أوله لآخره !

هو يقول ونحن لا نستنكر ذلك.

لقد أعطينا الشاعر «رخصة» أن ينظم النجوم وأن ينزل القمر على الأرض، ويجعل الجبال ذهبا والأنهار فضة، ومحبوبته أجمل مخلوقات الله، أو لم يخلق الله غيرها.. وأعطينا الشاعر «رخصة» أن يعربد وأن يضيق وأن يكفر وأن يدعى الألوهية، سواء كان صادقا أو كاذبا..

وجعلنا فى هذه «الرخصة» شرطا أن يجىء شعره جميلا.. جميل الصورة والنغمة.

هو يقول: أشربت المحيط خمرا، وعانقت ألف جميلة..

فإذا سحبنا الرخصة من أى كاتب لا يجرؤ أن يقول شربت كأسا من الخمر ولا أن يقول عانقت وقبلت.. فقط الشعراء!

ويدهشنا كثيرا أن نجد الناثر يقارن بين محبوبته والقمر.. ونراه مخرفا إذ كيف يقارن بين الجمال الإنسانى وهذا الحجر البارد يدور حول الأرض.. ولكن نطرب للشاعر عندما يقول المعانى نفسها:

رأيت الهلال ووجه الحبيب ... فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتى فيهما ... هلال السما من هلال البشر
ولولا التورد فى الوجنتين ... وما راعنى من سواد الشَّعَر
لكنت أظن الهلال الحبيب ... وكنت أظن الحبيب القمر

ولم يعرف الأدب العربى تعيسين مثل أعظم شعرائنا المتنبى وأكبر مفكرينا أبى حيان التوحيدى.. فكان المتنبى شديد الطموح شديد الغرور يرى أنه أحق الناس بكل ما يملكه الناس.

وكان أبو حيان أتعس وأشقى المفكرين فى زمانه؛ لا طعام ولا شراب ولا مكان ولا مكانة.. وكان يبيع أدبه ونفسه من أجل لقمة العيش.. وكان هو الآخر مغرورا ـ فالغرور ليس إلا تعويضا ذاتيا عن الهوان الذى يلقاه من الناس.. تعويضا يدفعه لنفسه فيقول لنفسه أنا أعظم.. أنا أعمق.. أنا أحق، ثم إننى لا أساوى شيئا فى هذا العالم الحقير؟!

وعندما وصف أبو حيان التوحيدى المفكرين السابقين عليه قال: تعبوا وما أغنوا. ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا ما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا فغلغلوا - أى أنهم تعبوا فما نفعوا أحدا، وداروا حول المعانى ولما يبلغوها، وعندما مشطوا الشعر جعلوه منكوشا . .

ولم يكن ذلك إلا إحساس أبى حيان التوحيدى، فلا الشعراء ولا الأدباء ولا الفلاسفة استطاعوا شيئا . . بينما هو الذى يستطيع، لم يكسب قوت ساعته ولا ستر بناته . .

وكذلك كان المتنبى يعمل بالقطعة عند الملوك والأمراء . .

ولذلك عندما سألوا المتنبى عن معجزته الشعرية قال: هذا البيت:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بد!

وكان يحتقر كل الناس ويعاديهم، وفى الوقت نفسه كان لابد أن يصادق الغنى والأمير - فهو فى حاجة إلى المال والسلطة وعظيم التقدير . .

وللمتنبى أبيات أعظم وأروع وأحكم . . مئات . . ألوف الأبيات، ولكن هذا البيت ينطبق على حاله تماما: عظيم بين حقراء . . ملهم بين الذين ينامون نهارا، ويعربدون ليلا ويريدون الشعراء ببغاوات تستدرج لهم النوم ومزيدا من الخمر والغانيات!

وقد هاجمه الشعراء فقالوا عنه:

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ   ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع بالكوفة الماء   وحينا يبيع ماء المحيا!

- والحق مع المتنبى - فقد أعطيناه رخصة بذلك . . وعندما يقول الشاعر:

إن نفسى تذوب فى كل يوم   حسرات ومن جفونى تسيل

- أو يقول:

وليس الذى يجرى من العين ماؤها   ولكنه نفسى تذوب فتقطر

- أو يقول :

دمعي جرى من جفوني يوم بينهم ‏ ‏ ‏ فلست أدرى أدمعى كان أم روحى؟

- أو يقول بشار بن برد :

حشاشتى ودعتنى يوم بينهم ‏ ‏ ‏ وسابقتهم وخلتنى لأحزانى
وقد أشاروا بتسليم على حذر ‏ ‏ ‏ من الرقيب بأطراف وأجفان

- أو يقول المتنبى :

حشاشة نفسى ودعت يوم ودعوا ‏ ‏ ‏ فلم أدر أى الظاعنين أشيع
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس ‏ ‏ ‏ تسيل من الآماق والسم أدمع

وإذا قالوا فإننا نصدقهم . . مع أن الشاعر فعل ذلك وسوف يفعله عشرات المرات . . وليس معقولا أن يموت فى كل مرة يوم سفر المحبوبة يوم البين . . ولكنه يميت نفسه ويحييها كما يريد . ونحن نصدقه .

كما أنه ليس منطقيا أن نحاسب مخمورا منتشيا على ما يقول ، فكذلك الشعراء سكارى العشق الإلهى ، والجلال السماوى ، والفتنة الجسدية . .

ولما قرأ العالم الإنجليزى بامبريدج الذى اخترع علم السبرنطيقا قصيدة الشاعر تنيسون يقول فيها : فى كل يوم يموت شيخ يولد طفل وتمضى الحياة - فقال إن هذا ليس صحيحا ، فلو مات كل يوم رجل وولد طفل ، لظل عدد سكان الأرض كما هو . . ولكن الصحيح أن يقول الشاعر . . فى كل يوم يموت شيخ ويولد ٢ , ١ من الأطفال . هذه هى المعادلة الصحيحة !

فهذا العالم الرياضى الكبير مثل رجل جلس مع رجل مخمور وراح يحاسبه على كل ما يقول كأنه لم يشرب ولم تدر رأسه ولم يرقص ولم يطرب . . فهذا العالم الرياضى لم ير الصورة الجميلة ، ولم يستمع إلى موسيقى الشاعر وإنما ضبطه وقد ارتكب خطأ فى علم الحساب !

* * *

والشاعر ينسى هذه الرخصة التى منحناها له ليتحدانا بحقه فى أن يقول ويصول

ويجول بين السماء والأرض عملاقا عبقريا ماردا لا يطاوله ولا يلاحقه ولا يبلغه ولا يدانيه أحد . . أى أحد !

مع أن المتنبى - وكثيرا من الشعراء أيضا - كان شديد الخوف والفزع . . فعندما اشتبكت عمامته فى أحد الأغصان . . وهو فوق حصانه جعل يصرخ قائلا : قتلونى . . الخونة . . المجرمون . . إنهم يتربصون بى . . يتآمرون على عظمتى !

ولم يكن هناك أحد وإنما هى الصدفة . . أن يمر بحصانه تحت شجرة وطبيعى أن تشتبك أطراف العمامة بأطراف الشجرة !

ويوم هاجم المتنبى بعنف أحد خصومه بعث إليه بمن يطارده ويقتله ، وقد قتلوه ، وكان فى نية المتنبى أن يهرب لولا أن خادمه استنكر ذلك فقال له : كيف تهرب وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى   والسيف والرمح والقرطاس والقلم !

إن المتنبى رب الورق والقلم . لاشك فى ذلك . . ولكن لا الخيل تعرفه ولا الحرب . . وهو لا يصدق ذلك . . ولكن خادمه أحرجه . . ولم يشأ أن يبدو كاذبا أو مبالغا . إنها لحظة صدق فرضت عليه ، فتوهم أنه المقاتل المحارب ، فسقط ميتا ، مسكين هذا العبقرى لقد صدق بيتا واحدا من ألوف أبياته الجميلة ! !

أوراق على شجر (*)

لم يترك الريف أثرا فى حياتى إلا الخوف . .

ولا أعرف أى نوع من الخوف . . ربما كان الخوف العام . . الخوف من اليوم والغد والناس والتجربة الجديدة . . والمغامرة . .

واتخذ الخوف شكل الخجل . . وارتدى الخجل أثواب الدين . . وهدانى الدين إلى القراءة . . وكنت قد حفظت القرآن الكريم دون أن أفهم حرفا واحدا منه ؛ فقد كنت فى التاسعة من عمرى ، ولكن القرآن الكريم أعاد لى اعتبارى ، وأعطانى وزنا وحجما . . بل أعطانى أكثر مما أستحق . . فقد كان يكفى جدا أن يقال فى الريف : إنه قد حفظ القرآن الكريم .

وعندما يسمع أى إنسان هذه العبارة فإنه يحملق بعينيه ويتراجع إلى الوراء ليقول : ما شاء الله . . ما شاء الله كان .

ويكون التراجع إلى الوراء والنظرة المبهورة مزيجا من الإعجاب والخوف من الحسد ، وأن يتمنى كل واحد أن يكون له ابن مثلى . .

وأعاد لى القرآن حب القراءة وحب الكلام الجميل والأداء الجميل . . فأدخلنى القرآن الكريم بسهولة فى زمرة الناس الكبار . . وأفسح لى مكانا بينهم . . أيا كان هؤلاء الناس . . ألست أحفظ القرآن الكريم؟ . . ألست أعجوبة بين أبناء الأفندية ـ وقد كان أبى رحمه الله أفنديا يلقى عظيم الاحترام من الناس . . كان رجلا مهيبا مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن رئيس الوزراء ، وكان جميل الوجه والصوت ،

(*) مقدمة كتابى : «أوراق على شجر» .

وكان شاعرا رقيقا، ومحدثا بليغا وحافظا للقرآن الكريم ومرتلا له أيضا . . وكان يحب الناس حوله، فأحبه الناس وفتحوا له بيوتهم وقلوبهم . . وألقوا عنده مشاكلهم وعادوا أكثر اطمئنانا وأمانا . .

وبوالدى ومعه وبسببه وحبا له وجدت نفسى أمام عشرات الكتب الدينية والأدبية وبدأت حياتى مع الورق . . مع الورق الأبيض والأصفر . . ومع الساعات الأولى من كل يوم أقرأ مع والدى وأستمع له أكثر الوقت . . وارتبطت حياتى بالكلمة والورق . . بالكلمة الجميلة والصوت الجميل، وعشقت الفن والأدب، وتحددت حياتى تماما : أستمع وأغمض عينى وأنتشى وأحلم .

واعتدت أن أغمض عينى أكثر مما أفتحهما لقد اعتدت أن أستمع إلى الكلام الحلو وأحفظه قبل أن أتعلم القراءة والكتابة، ويوم حفظت القرآن الكريم والهمزية النبوية و«لامية» العرب للشاعر الطغرائى والبردة النبوية للبوصيرى ونهج البردة لشوقى، لم أكن أكتب اسمى إلا بصعوبة .

ولذلك فأنا أستعيد الأشياء بتذكرى لرنين حروفها ورنات نبراتها . . وأتذكر الأشياء برائحتها، فأنا عندما أتذكر الآن قرية «نوب طريف» مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية، فإننى أتذكر صوت وابور الطحين، ورائحة البرك التى اختلط فيها الماء الراكد برائحة البترول وصوت كلب متقطع غليظ أجش قد تهجم على فى إحدى المرات وكاد يفترسنى لولا أن عيارا ناريا قد أرداه قتيلا، فقد أدركنى أبى فى آخر لحظة !

* * *

ولو عدت بذاكرتى إلى أيام طفولتى التى أمضيتها فى الريف متنقلا بين القرى والمدن بين أمتعة أبى وأمى، وكانت قليلة يضعونها فى جانب من السيارة : فإننى لا أذكر لون الأشجار ولا الأزهار ولا الطيور . . ولا أعرف كيف كانت تطلع الشمس على الريف . . ولا كيف كانت تغرب . . ولا لون الضباب صباحا . . ولا كيف تتسابق الديوك والعصافير والغربان والكلاب على رؤية الشمس . . ولا كيف تتسابق الخفافيش والقطط على رؤية النجوم . . لا شىء من ذلك . . فقد أعمانى الخوف عن رؤية جمال الطبيعة . .

أو أن الخوف العام قد جعلنى أتوارى من كل الذى أحبه ولا أعرفه، فى قراءة الكتب من أى نوع ومن أى حجم ومن أى مصدر . . وأذكر عندما كنت طفلا أخذت أجمع الكتب من بيوت أقاربى ومن أى بيت، وبمنتهى حسن النية، حتى نبهنى أبى إلى أن الذى أعمله يجب أن أستأذن فيه . . وكنت قبلها أتصور أن الكتب كالشوارع مرافق عامة . . وخدمات عامة . . ومن حق كل راغب فيها أن يأخذها ودون إذن من أحد . .

وكنت قبل ذلك لا أعرف حدودى وحدود الآخرين . .

ولم أجد كتابا واحدا أقول عنه : كتابى .

فقط عندما جاء ترتيبى الأول فى الثانوية العامة . . فقط سافرت من المنصورة إلى القاهرة لأتسلم جائزتى من وزير المعارف فى ذلك الوقت ـ أحمد نجيب الهلالى باشا ـ وكانت الجائزة خمسة وعشرين جنيها وبعض الكتب من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر . . من بينها كتاب من تأليف أندريه موروا «دزرائيلى» من ترجمة حسن محمود. والكتاب عمل أدبى فنى سياسى فى المقام الأول.

وكتاب «فاوست» للشاعر الألمانى جيته وقد ترجمه شعرا ونثرا د. محمد عوض محمد . . وهو أيضا من عيون الأدب . .

ومسلسلة «قصة الفلسفة اليونانية» فى جزء واحد «وقصة الفلسفة الحديثة» فى جزأين. وهذه الكتب من تأليف أحمد أمين وزكى نجيب محمود، وهى من أمتع وأجمل ما قرأت، وكانت فاتحة للشهية، ثم إنها استدرجتنى إلى الفلسفة حتى تخصصت فيها. وعرفت فيما بعد عندما التقيت بدكتور زكى نجيب محمود، أنه هو مؤلف هذه الكتب الثلاثة، وأن أحمد أمين، وهو عالم جليل، قد وضع اسمه أمامه لأنه هو صاحب المطبعة وهو الأكبر سنا ومكانة فى ذلك الوقت . . ثم إن هذا هو الشرط الأول لنشرها، إن هذه الكتب شرف يجب أن يدعيه آخرون كثيرون . .

حتى هذه الكتب الثلاثة قد جاءت خلاصة جميلة لكتاب باسم «قصة الفلسفة» لكاتب أمريكى عظيم اسمه ول ديورانت . .

وقد عرفت بعد ذلك ول ديورانت وزوجته إريل، وجلست إليهما، ولم أجد أمتع ولا أروع من حديث معهما إلى الأبد . .

ورأيت في زكي نجيب محمود وول ديورانت علامتين على طريق تفكيري وأسلوبي . . هكذا تكون القدرة على نقل المعاني الصعبة في عبارة سهلة جميلة . ووجدت متعتي الحقيقة في تدريس الفلسفة في الجامعة . . فقد كنت أحب ما قرأت وأحب ما قلت . . وكان هدفي، ولا يزال، وأملي ولا يزال: أن أكون واضحا سهل العبارة وجميلها إن استطعت، وأن أكون في متناول أقل الناس تخصصا . .

وأصبحت الكتب هي حياتي، والكتاب سبيلي وأسلوبي وأملي وشرفي . . وعذابي أيضا . .

فقد شغلت به عن الدنيا كلها . . فقد كان الكتاب دنياي . . وتبددت طاقتي في القراءة ومن قبلها أموالي . . وأصبحت ثروتي المعروفة هي أكثر من أربعين ألف كتاب ـ هذا إن رأى أحد أن هذه الكتب ثروة . . ولكنها ثروتي وسدي العالي الذي يعطيني الطاقة والضوء ويحجب عني الدنيا أيضا .

* * *

ومن الغريب أن أول قصة كتبتها كان عنوانها «لو كنت شجرة على ترعة» .

وبعد أن كتبت القصة لسنوات فكرة في موضوعها وعنوانها . .

إنني لم أكن سعيدا حتى أستعيد الحياة في الريف، أو حتى أذكرها وإذا ذكرتها أن أستعيدها . .

ولكني، من شدة الألم والعذاب، تمنيت أن أكون شجرة على ترعة . . ما الذي وجدته في هذه الصورة، لا أعرف الآن بالضبط، ولكني تمنيت أن أكون هناك وبعيدا قائما حيا لا أنتقل فقد تعبت من التنقل، فقط أن أظل بلا حركة . . أن أنام واقفا وأن أموت واقف وأن أدفن في مكاني . . تماما كالأنبياء يدفنون حيث يموتون . . ولابد أنني تصورت الترعة ضرورية، كمصدر للحياة . . أي أعيش على مائها وأموت على شاطئها . .

ومن الغريب أننى أخذت الطيور التى تقف على أغصانى ، والناس الذين يتمددون في ظلى . . ولم أفكر طويلا فى المرض الذى سوف يأتينى بالموت ، لأننى لا أخاف الموت ، فقد رأيته كثيرا وخطوة خطوة يزحف على أعز الناس : أبى وأمى ومن قبلهما أختى وأخى وخالى وبعض طيورى وكلابى وقططى . . ورأيت صورا من الموت فى فراق زملاء الدراسة وجيران البيت . . والدنيا كلها وهى تفر ورائى وأنا أنظر لها من نافذة السيارة وفى غبارها !

وعندما أصدرت الشاعرة الفرنسية الصغيرة مينودرويه ديوانها بعنوان «أيتها الشجرة أنت صديقتى» . . أقبلت عليه . . ولم أجد لى فيه نية . . ربما لأنها صغيرة . وربما لأنها من المدينة وليست من الريف . . وربما لأنه ليس من نظمها .

فقد افتضح أمر الفتاة الصغيرة ، وعرف العالم أن أمها أديبة مغمورة فأرادت أن تكون مشهورة ، فنظمت ديوانا نسبته إلى ابنتها . .

ولم تهزنى أغنية مثل أغنية «اجعلنى شجرة فى غابتك» للمطربة الأمريكية شارون تيت التى قتلها زوجها وآخرون ، هل لأنها جميلة . . هل لأننى رأيتها مرة واحدة ووجدتها تقول كلاما يمنعنى الحياء أن أقول إن هذه أفكارى . . رغم أنها من أمريكا وأنا من مصر . .

والحقيقة أن الأغنية تقول : «اجعلنى شجرة فى غابتك . . ثم اجعلنى بعد ذلك كل غابتك . . ثم اجعلنى شجرتك فى صحارى الحياة . . واتركنى أتمدد فى أمان ظلك ، ودفء حنانك . . اجعلنا شجرة واحدة . . أنت الفروع وأنا الورق . . أنت الزهور وأنا الطيور . . اجعلنى صورة لشجرة على حائط الأبدية» .

أذكر عندما كنت تلميذا فى الجامعة كتبت مقالا فى مجلة كلية الآداب بعنوان :

ما الذى كنت تتمنى أن تكون . . جوابى : ألا أكون !

وعندما قرأت ذلك المقال أزعجنى هذا التشاؤم ، ولكنى راجعت نفسى وأصدقائى كيف كانت حياتنا فى الجامعة فى ذلك الوقت ـ ولما عرفت التفاصيل ؛ وجدت أنه من الطبيعى أن أقول ذلك . . فلا كان طريقى على قدمى من مدينة إمبابة إلى الجامعة سهلا . . ولا كانت عودتى إلى البيت ليلا وسط الحقول وبالقرب من

أفران الفول المدمس حيث يلقون بالتراب الملتهب، فنمشى فوقه فينفجر بالشرار فتحترق ملابسنا . . ويكون للشرار شكل العفاريت أو الثعابين أو الكلاب . . ولا كان نومى تحت سقف يتحلل ترابا طوال الليل . . ولا كان نومى هادئا والصحف والكراريس على وجهى تتلقى التراب عنى . . ولا مخدتى لينة تغوص فيها أذناى فلا أسمع أنين أعز الناس: أمى وأبى . .

* * *

وأغرب من ذلك أننى كتبت فى نهاية المقال أقول: «آه لو كنت شجرة . . بلا عينين ولا أذنين وإنما أتغذى بالهواء وبالطين ولا أسمع الأنين . . آه لو كنتها . . مع الأسف لن أكون . . فيا ليتنى لم أكن !».

ولكن لم أنس شجرة رأيتها فى غابات كيرالا فى جنوب الهند . . رأيت عند حافة إحدى الغابات أشجارا ذات أحجام هائلة . . الجذوع ضخمة وفجأة يلتوى الجذع ثم يعود فيرتفع مرة أخرى . . ثم يرتد على نفسه. لماذا؟ لم أفهم أول الأمر . .

ورأيت أشجارا تميل بجذوعها الضخمة حتى تلامس الأرض، ثم لا تزال تنهض شامخة. وكأنها تستدرك ما فاتها، أو كأنها ثارت على هذا الهوان والانحطاط فعادت سامقة عالية واتجهت أغصانها إلى أعلى . .

لماذا؟

لا أدعى أننى اهتديت إلى المعنى بسهولة، ولكن اهتديت، فهذه الأشجار ما كان ينبغى لها أن تكون كذلك . . فالطبيعى أن تكون الأشجار عمودية على الأرض . . أى متوازنة مع جاذبية الأرض، وفى الوقت نفسه يجب أن تتسابق فى الاتجاه نحو الشمس . . ولكن هذه الأشجار حاولت وهى صغيرة أن تفعل ذلك، أو أن تنساق لقوانين الطبيعة فاعترضتها أشجار أخرى، وعطلت قوانين الطبيعة، ولذلك انحرفت الأشجار وحاولت أن تجد مخرجا من هذا الضيق، والتوت، ومضت سنون وهى تحاول، وعندما وجد نموها الفرصة، اعتدل واتجه فى مساره الطبيعى.

ولكن الذى يرى الأشجار بصورتها هذه يقول: مريضة . . منحلة . . منحرفة. ولكن الذى يعود إلى تاريخها، فإنه يجد لها العذر؛ لقد أرغمت على الالتواء والانحراف . . ففى تاريخها مقدمات انحرافها وأسبابه. وهنا «تاريخ» الشجرة مثل «تاريخ الإنسان» عذرا بعيدا أو سببا معقولا خافيا عنا حتى نجده. فإذا وجدناه وضعناه فى مكانه من تسلسل الأحداث.

* * *

وكانت متعتى وأنا طالب فى الجامعة أن أذهب إلى حديقة الأسماك فى الزمالك . . وأن أرتمى على العشب تحت الشجر وأنام. ولا أعرف كيف كان يجىء النوم بهذه السهولة - إنه لم يعد يفعل ذلك الآن . . كأننى أخذت كل نصيبى من النوم فى وقت مبكر، سحبت رصيدى، وأنا اليوم أعيش على «فوائد» هذا الرصيد!

وكنت أندهش كيف أننى عندما أصحو من النوم أجدنى مغطى بأوراق الشجر وعدد لا يحصى من النمل الأسود، والذى يدهشنى حقا أن النمل لم يكن يلسعنى . . وكنت أحاول أن أجد له أثرا على جلدى أو على وجهى . . كأن النمل والشجر وأوراق الشجر تريد أن تعمق عندى شعورى بالندم . . لأنى لم أصادق الأشجار ولم أعرف ظلها منذ وقت طويل!

ولا أنسى ذلك المعنى الذى ظل يهزنى فى الماضى سنوات طويلة عندما سافرت إلى مدينة تيبنجن بألمانيا الغربية، فى هذه المدينة عاش الفيلسوف هيجل العظيم، وعاش أمير الشعراء الألمان هيلدرلن . . وفى هذه المدينة حديقة اسمها «حديقة التأوهات» قرأت اسم الحديقة، ونظرت إلى أشجارها، وهبت الريح قليلا، وتخيلت أن الأشجار تئن، وأن الأوراق تتوجع، وأن الطيور تتعانق . . هكذا تخيلت. ووجدت لى مقعدا، وجلست أنظر إلى النهر الصغير . . نهر السافراخ . . وتركزت عيناى - دون وعى منى - على بيت صغير . . وعاودنى حلمى القديم: لو كنت شجرة على ترعة . . أو عند هذا النهر . . بالقرب من هذا البيت . . أعيش وأتساقط فى موضعى . . فلا رآنى أحد ولا رأيت، ولا سمعنى أحد ولا سمعت، ولا عايشت أحدا ولا عشت!

وعرفت فيما بعد أن هذه الحديقة سميت كذلك لأن روادها من طلبة الجامعة . . أى روادها من العشاق الذين يتأوهون . ورأيت العشاق ولم أجدهم يتأوهون ، فقد مضى زمن العاشق الولهان المعذب . إن العشاق فى عصرنا ليس عندهم وقت للحب ، وإنما كل وقتهم للجنس ، وليس الحب إلا اسما مهذبا قديما ، ولكنى وجدت الذين يتأوهون هم الآباء والأمهات الذين لا يعجبهم ما يفعل أبناؤهم . . أو الأجداد الذين يتأوهون لأوجاعهم الجسدية . . أو آهات لأناس مثلى جاءوا من العالم القديم ، يستكثرون على أنفسهم أن يكونوا بشرا ، ويطلبون من الله أن يجعلهم شجرا أو حجرا !

أما البيت الذى تمنيت أن أنمو عنده وأذبل فهو بيت الشاعر العظيم هيلدرلن . . عاش فيه أربعين عاما ، ولما فقد عقله ، عاش الأربعين الأخرى فى مستشفى الأمراض العقلية !

* * *

ولما سافرت إلى اليابان ذهبت إلى جزيرة اللؤلؤ التى يملكها ميكوموتو ، الذى ابتدع زراعة اللؤلؤ - أى وضع نوعًا من الحصى فى داخل حيوان اللؤلؤ لكى يفرز حولها مادة اللؤلؤ اللامعة ، وهذه الحصاة تساعد الحيوان الصغير على إنجاز عمله بسرعة . . رأيتهم يفتحون بطن اللؤلؤ ويضعون الحصاة . . ثم يعيدونه إلى قاع المحيط الهادى وسط الشباك ويتركونه سنوات لكى يفرز هذا السائل النقى حول الحصاة ، لما رأيت ذلك صرخت من أعماقى قائلا : يا أنا . . يا أنا !

أنا ذلك الحيوان . . أنا الذى ألقوا به فى المحيط . . أنا الذى فتحوا بطنى ووضعوا فيه ما لا أريد . . أنا الذى أبكى دموعا نقية . . أنا ذلك الفنان الذى أجعل من دموعى فضة لامعة ، زينة بعد ذلك !

فهذا الحيوان يفرز مادة لامعة ، هذه المادة تعزل الحصاة التى أوجعته . . تعزلها عن بقية جسمه . . فالذى يقوم به الحيوان هو نوع من العزل الصحى . . أى يعزل الحصاة بعيدا عن جسمه حتى لا تؤلمه . . وحتى يتفادى الوجع . . ولكن غيره يتاجرون فى دموعه . .

إن البكاء اللامع حباته . . ولكن حبات الدموع اللؤلئية تجارة الآخرين . .

آه لو كنت هذا الحيوان . . أبكى على نفسى وعلى مهل، بعيدا فى أعماق المحيط الهادى . . فلا أنا أعرف ما الذى أفعله . . ولا يهمنى أن يعرف ذلك أحد . . المهم أن أكون هناك، على راحتى على حريتى . . فى صمت أعيش وإلى الصمت أعود . . ذرة حية فى كون لا أول له ولا آخر . . يعيش فيه الذين يعلمون أنهم حيوانات تفرز لؤلؤا . . أو حيوانات تبيع لؤلؤا . . فالكل يتسابق فى تصيد الآخرين . . ولكن الذى نصيده يصيدنا . . والذى نشتريه يبيعنا . . والذى يبيعنا يشتريه الآخرون !

* * *

ولما سئلت: وما الذى أعجبك فى أستراليا؟

لم أجد ما أقوله. فهى بلاد ككل البلاد، ليست لها مزايا خاصة، فمدنها أوروبية أمريكية، ثم أمريكية تماما، والبلاد واسعة وأخلاق الناس ضيقة، وقد أقفلوا أبوابهم فى وجه السود والصفر . .

ويوم ذهبت إلى أستراليا سنة ١٩٥٩ كنت المصرى الوحيد، وتمنيت أن يجىء المصريون إليها، وجاءوا بعشرات الألوف، وقد ساعدت مئات منهم على الهجرة إليها . . وهاجروا وهم سعداء، وأنا أيضا.

ورأيت فى حديقة الحيوان غرابا أبيض، وكان العرب يرون أن الغراب الأبيض شىء مستحيل، ولذلك قال الشاعر القديم:

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب
وصار البر مرتع كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب . .

أى أن المستحيلات هى أن يكون الغراب أبيض، وأن يمشى السمك على الشاطئ وأن يعوم الذئب فى البحر، ولذلك فهو لن يعود إلى أهله . . وصرخت من أعماقى: لم يعد هناك مستحيل يا عرب !

وكانت صرخة سياسية، ولم تكن صرخة وجودية - أى لم تعد صرختى وحزنى

على نفسى وإنما على أهلى ووطنى، فقد كنت بعيدا وحيدا أرتاد القارات الخمس وليس معى إلا جسم نحيل، وقلب ثقيل !

حتى أصدرت الكاتبة الأسترالية كولين ماكيلو قصتها عن أستراليا وتطور أهلها فى نصف قرن بعنوان «طيور الشوك» عن أسرة مغامرة تعيش فى ظروف قاسية، وقد أغراها النجاح بالبقاء، والبقاء أغرى إحدى بناتها بالحب المستحيل الذى يضيف إلى هذه الملحمة نارا وشرارا وعذابا . .

والصفحة الأولى من القصة الطويلة ترون تحكى عن أسطورة تقول إن طائرا يغرد مرة واحدة فى حياته، وعندما يغرد هذه المرة يكون تغريده رائعا ساحرا حتى إنه عندما يسمع نفسه وهو يغرد فإن هذا يقربه للموت . . كأنه أحس أنه بلغ درجة الكمال وليس بعد ذلك إلا الموت . . تماما كالثمرة التى تسقط إذا نضجت . . ويجد هذا الطائر قوة خفية تدفعه إلى أن يهجر عشه . . ولا يزال يتنقل من شجرة إلى شجرة ومن غابة إلى غابة باحثا عن شىء لا يعرفه . . ولكنه مدفوع إلى حيث لا يدرى . . وأخيرا يجد ما يريد . . أو يجد ما قد أريد له . . لقد وجد شجرة الشوك . . ويظل يتنقل من أغصانها، حتى يعثر على أقوى وأطول شوكة فيها، ثم يلقى بنفسه عليها - أى يغمس الشوكة فى قلبه . . وينزف دما وهو يردد أحلى أغنياته . . حتى يتحول الصوت إلى صدى، والجسم الرقيق إلى رفات . . ولكن الكون كله يصغى إليه، فقد دفع حياته ثمنًا لأروع أغانيه . . ما أفدح الثمن . . ولكن الطائر لا يسقط . . وإنما يموت أرفع موتة . . فالشوكة التى قتلته، ما تزال عالية شامخة ترفعه علما للجمال والجلال معا - أو هكذا تقول الأسطورة !

ولم أعد أحلم بأن أكون ورقة على شجرة . . أو شجرة . . فإن هذه الصورة الرائعة المروعة قد أطارت ما تبقى من النوم فى عينى . . فلم أتخيل أن تكون الصورة هكذا شامخة، ولا أن يكون الفنان هكذا عاليا فى الحياة وفى الممات . .

آه لو كنت شجرة بلا أشواك . .

ولكن شجرة بغير أشواك هى أعشاب مستباحة . .

ولكن شجرة بأشواك مقبرة عالية لنوع رائع من الطيور . . نوع فريد

من الفنانين اختاروا الغناء عندما اختاروا الموت . . أو اختاروا الموت الرفيع، فاختارهم الغناء البديع . .

ولا أحد يعرف من الذى اختار الموت للغناء بهذه الصورة، ولا من الذى اختار الغناء للموت على هذه القمة . .

إننى لا أعرف أينا الشجرة . . وأينا الشوكة وأينا الطائر المغرد . .

إننا جميعا كل هؤلاء معا . . أو هكذا أجدنى مضطرا لأن أريح رأسى وأغرس فيها هذا القلم وأرتمى عليه حتى أنام . . وما النوم إلا الموتة الصغرى كل يوم - هذا إذا جاء النوم !

كرسى على الشمال (*)

شىء فى الطفولة :

الفن نوع من العدوى . .

هذة نظرية لكاتب روسيا تولستوى . .

فهو يقول : لو أن طفلا صغيرا رأى ثورا مقبلا عليه ، وهرب الطفل ثم راح يروى لأهله كيف هجم عليه الثور وكيف أن عينى الثور كانتا مخيفتين وكيف أن قرنى الثور كادا يقتلانه ، ثم كيف استطاع أن يصعد إحدى الأشجار هربا ، وأعرب هذا الطفل عن سعادته التى انتقلت إلى والديه ، لو نجح هذا الطفل فى أن ينقل هذه المشاعر إلى والديه لدرجة أنهما تأثرا به وتأثرا له ، فهذا الطفل قد قام بعمل فنى . . لأنه استطاع أن ينقل مشاعره إلى والديه ولأنه استطاع أن يوثر فيهما لدرجة الإشفاق والفرحة بنجاته . .

ولو أن طفلا آخر أوالطفل نفسه تخيل أن ثورا أو ذئبا أو كلبا هاجمه وكاد يقتله ، ثم راح يصرخ ويبكى لدرجة التأثير على والديه فلا شك أن هذا عمل فنى .

لأن الفن هو القدرة على نقل المشاعر إلى الآخرين . . بصورة معدية . . كأنها مرض . .

وقد جرب كل الأطفال هذه المغامرات والحوادث التى يعنونها أو يبالغون فيها أو يخترعونها . .

(*) مقدمة كتابى : «كرسى على الشمال» .

وبعض الآباء والأمهات يجدون متعة فى أن يستمعوا إلى مغامرات أبنائهم الصغار. وبعض الآباء لا صبر لهم على ذلك . .

وبعض الأمهات يسارعن بضرب الطفل ليكف عن هذا الكذب . .

وقد ضربتنى أمى كثيرا . .

أذكر أننى رويت لها قصة حريقة فى أحد المحلات التجارية بكل تفاصيلها وكيف أنها أشعلت صفائح الجاز وكيف تكسرت صفائح الجبن واحترقت علب الشاى، وكيف اختلط الصابون بالبيض . . ولا أتذكر الآن إن كان هذا كله قد حدث بالضبط كما رويته لأمى وأنا صغير، ولكن الذى أتذكره بوضوح الآن هو أننى استشهدت على أقوالى بفلان وعلان من زملائى فى المدرسة، وكيف أن أمى استدعتهم ليعلنوا جميعا أننى كاذب وأن شيئا من ذلك لم يحدث . .

ولا أذكر إلا أننى ضربت فى تلك الليلة ونمت ودموعى على خدى وبين الحين والحين أصحو من نومى وأعلن أنهم جميعا كاذبون وأن الحريقة قد وقعت، وتشاء الصدفة البحتة أن يحترق هذا المحل بعد ذلك بأسبوع.

ولم أستطع طبعا فى ذلك الوقت أن أقول إننى كنت صادقا وإن زملائى كانوا كاذبين . . أو بعبارة أخرى إن أمى لم يكن لها الحق فى أن تضربنى بهذه الصورة الموجعة . .

ولدهشتى لاحظت أن أبى يروى هذه القصة كدليل على أننى «مكشوف عنى الحجاب» وأننى تنبأت بحريقة هذا المحل قبل أن تحدث بأسبوع . .

ومن المؤكد أن القصة التى رويتها كانت نوعا من الفن فى رأى تولستوى. وكل طفل قد تعرض لهذه التجربة عشرات المرات، وتعرض لسخرية الأم والأب، وكثيرا ما أفلح الضرب فى قطع هذا الخيال والقضاء على الأكاذيب البيضاء . . أو الأكاذيب الفنية.

وكثيرا ما ضبطتنى أمى بعد ذلك أقف على المقاعد وأتظاهر بأننى أخطب وأننى أدافع عن قضايا وهمية أو أروى قصصا لا وجود لها . . وكثيرا ما تلقيت نصيبى من الضرب على هذا الجنون.

بعد ذلك حاولت أن أجد تعويضا محترما عن هذه الإهانات المتكررة فى البيت، فتسللت إلى فريق المدرسة للتمثيل، فقد حدث أن تألفت جمعية للتمثيل فى المدرسة ولم أكن عضوا فى هذا الفريق، وحرصت على أن أتسلل إلى هذا الفريق لأكون ضمن الممثلين، ولم أجد مقاومة من أحد، وكنت أتصور أن هناك مقاومة عنيفة تنتهى آخر الأمر «بعلقة» من المدرسين أو من الناظر . . فأنا أرى العصا التى تمسكها أمى فى يد كل إنسان!

وكانت المسرحية عن شخصية عربية اسمها «معن بن زائدة» وهو رجل مشهور بطيبة القلب وبالحلم وبهدوء الأعصاب، وموضوع المسرحية أن رجلا من البادية قد اتفق مع آخرين على إغضاب هذا الرجل الحليم مقابل دفع مبلغ من المال، إذا نجح فى إغضابه طبعا.

ولم يكن دورى فى هذه المسرحية مهما . . فلم أكن الرجل الحليم ولم أكن الذى يثير أعصابه، وإنما كنت أحد الحراس على باب معن بن زائدة. وكان دورى تافها جدا، ولم أناقش دورى، ولكن كل الذى يهمنى هو فقط أن أمثل . . أن أظهر . . أن أقف على مسرح أفتح فمى وأقول كلاما كما كنت أفعل وحدى فى البيت . . وكان أملى، لا أعرف إن كان هذا أملى، ألا أتلقى ضربات من أحد . . أو بعبارة أخرى كنت أحاول أن أجعل من وقوفى على المقاعد وتحريك شفتى عملا مشروعا . . محترما، أو هكذا توهمت.

والآن دعنى أصف لك كيف ظهرت هذه المسرحية فى إحدى حفلات مدرسة أبى حمص الابتدائية . . الصالة طويلة نظيفة، وقد كانت مخصصة لمناضد البنج بونج، وفى هذا اليوم رفعت المناضد ووضعت بدلا منها المقاعد . . وأضيئت الأنوار العادية جدا . .

وانبعثت من الصالة رائحة الفنيك، وواضح جدا من الرطوبة الشديدة الموجودة أن أرضية الصالة قد غسلت بالماء عدة مرات، وأن الأرض لا تزال مبللة وتراصت المقاعد فى مواجهة المسرح، أو الشيء المفروض أن يكون مسرحا، أما هذا المسرح، ولا أظن أن تسميته كانت كذلك فى ذلك الوقت، ولو كانوا يسمونه كذلك، فمن المستحيل أن أفهم معناه، أو يفهمه أحد من أبناء هذه المدينة الصغيرة . . لم يكن

المسرح مرتفعا عن الأرض وإنما كانت الأرض نفسها، وكانت مفصولة عن بقية قصاری الورد . . صف من قصاری الورد . . وبعدها توجد دكة خشبية مغطاة بأحد المفارش . . وعلى هذه الدكة جلس معن بن زائدة، بقميص وبنطلون، فقد كان معن هذا زميلا لى فى السنة الثانية الابتدائية . . ولم يكن معن هذا إلا إنسانا هزيلا منخفض الصوت، أما الطالب الذى سيثير أعصاب معن بن زائدة فقد كان فى السنة الثالثة الابتدائية، أما أنا فقد وقفت بالقميص والبنطلون أيضا وعلى كتفى سيف من الخشب.

ومن المفروض أن أمنع هذا الرجل وأوقفه فى مكانه وأتركه لأستأذن من معن بن زائدة، إن كان يسمح له بالدخول، وطبعا سيسمح له، وفى هذه الحالة أتوجه إلى الرجل وأدعوه لمقابلة الأمير وأتركه وأظل واقفا فى مواجهة الجمهور طول هذه المسرحية. أما الجمهور فقد كان من أولياء أمور الطلبة، ولم تكن هناك سيدات مطلقا.

وفى نهاية المسرحية شعرت بشىء من الارتياح . .

ولكن هذا الشعور لم أستطع أن أنقله إلى أحد . . لم أستطع أن أغيظ به أحد . . لا والدى ولا والدتى، ولكن شعرت بشىء من الانتقام، فقد مثلت ووقفت وقلت كلاما لأول مرة ولآخر مرة.

ولا أعرف بالضبط ما الذى دفعنى أن أتجه إلى الغناء؛ لقد كنت مفتونا بكل صوت جميل، وكنت أتتبع الفلاحين فى الحقول، وكانت وظيفة والدى فى ذلك الوقت تمكننى من استدعاء أى عامل فى الحقل وأطلب إليه أن يغنى، لا أعرف ما الذى يقوله بوضوح ولا أعرف كيف أردده ولكنى كنت أجد سعادة لا حد لها. وحفظت عددا من المواويل الريفية وأغانى الأفراح فى محافظات البحيرة والدقهلية والغربية وقد أمضيت فيها جميعا كل سنوات طفولتى.

وبدأت أغنى بصوت مرتفع وشجعنى أبى على أن أغنى أمامه وغنيت أمامه وغنيت معه. وكان صوت أبى جميلا، وكان شاعرا، وقد حفظت كل قصائده وأنا طفل. وكان أبى لا يثق كثيرا فى قيمة الشعر الذى ينظمه وكان يرى أن الشعر ونظمه

ليس إلا نوعا من اللعب، وكان يتصور أن هذه شتيمة، ولم يكن يعرف أن وصف الفنون كلها بأنها لعب، ليس إلا حقيقة أو جانبا من الحقيقة.

وكان لى خال يحب الغناء وكان هو أيضا يغنى . . كان صوته جميلا وكنت أحب الاستماع إليه. وكان خالى هذا يستريح إلى صحبتى، كان زوجا وأبا لأطفال وكنت ما أزال طفلا، وكنت أذهب مع خالى هذا إلى بيت فيه سيدة جميلة، ولا أعرف لماذا كان يحرص على أن تكون هذه الزيارات ليلا، لا أعرف، ولا لماذا يبعث بى فأدق الباب وأدخل أنا أولا، وبعد لحظات يجىء هو، ونجلس نحن الثلاثة فى غرفة واحدة ويظل خالى هذا يغنى: ياجارة الوادى . . ومريت على بيت الحبايب . . حتى أنام.

وزاد تعلقى بالغناء لدرجة أننى انشغلت عن دروسى واضطررت فى كثير من الأحيان إلى إخفاء الخبز والأرز والسكر فى ملابسى لكى أعطيها لرجل شحاذ كان يغنى، وكان هذا الشحاذ مشوها . . كان أقرع وكان يغطى رأسه بصورة تخفى أذنيه، ولكنى كنت لا أراه، وإنما فقط أسمع صوته الجميل، وهو يغنى ياجارة الوادى طربت . . وخايف أقول اللى فى قلبى لمحمد عبد الوهاب.

وكان لابد أن ينكشف أمرى . . وانكشف وتلقيت ما يستحقه طفل يسرق الخبز والسكر ويعطيهما لرجل مريض من الممكن أن تنتقل إليه عدواه. ولم أكن أعرف كلمة العدوى هذه، ولم أكن أعرف معنى العدوى التى تحدث عنها تولستوى، وإلا تمنيت أن تنتقل إلى عدوى حنجرة هذا الشحاذ لأظل أردد ليلا ونهارا هذه الأغنيات الساحرة.

ولم تكن لى دراية تامة فى تلك السن ولا أعرف معنى النزوة الخاصة ولم يكن لى أى شىء خاص . . إلا هذا الحب الجنونى للغناء.

ولا أعرف إن كانت هذه الرغبة الشديدة هى التى «أشحذت» سمعى . . فأنا أستمتع بحاسة سمع مرهفة جدا، وكنت أتبارى مع زملائى فى الاستماع إلى الأصوات البعيدة وتفسيرها، ولا أعرف إن كان حبى للغناء هو الذى جعل لأذنى الحساسية الشديدة أو كان هو الخوف، فكل الحيوانات الخائفة الضعيفة قوية السمع . .

على كل حال لقد عرفت الخوف فى تلك السن : الخوف من الليل ومن الناس ومن الزمن ومن الموت ومن المرض ومن الفقر . . وعرفت هذه المخاوف بدرجات عنيفة . .

وحدث فى إحدى المرات أن كنت أركب «النورج» وكان يجلس إلى جوارى هذا الشحاذ . . وظل يغنى ويغنى وأنا مبهور به حتى سقطت تحت عجلات «النورج»، صرخت فتوقفت الأبقار المرهقة عن الحركة، وهرب الشحاذ خوفا من والدى ومن أهل القرية، وتمزقت ملابسى وسالت الدماء من رقبتى . .

وفى استطاعتك أن تتصور ما الذى يصيب طفلا أهمل أو «تشاقى» . . لقد كان نصيبى الضرب الشديد من أمى، أما السبب فهو أننى أستحق العقاب عن الشقاوة، ولم يشفع عند أبى وأمى أننى سقطت تحت عجلات «النورج» وأننى أيضا جرحت وتمزقت ملابسى وبشرتى . . ولكن العقاب الذى تلقيته من والدىّ هو بسبب خوفهما على وبسبب أننى أزعجتهما طبعا . . وبسبب هذا الشحاذ الذى دفعنى إلى السرقة من أجل صوته «القبيح» وهذا رأيهما فى صوت الشحاذ . . وكان اسمه حسن.

واتجهت لا شعوريا إلى القرآن . .

وحفظت القرآن وأنا طفل صغير . . قبل أن أدخل أية مدرسة واتجهت إلى ترتيل القرآن، وكنت أرتل القرآن بصوت مرتفع، وكنت أختار أوقاتا غير مناسبة لترتيل القرآن، وكنت أحتمى فى عظمة القرآن فلا أحد يستطيع أن يطلب إلى أن أسكت، ولا أحد يستطيع أن يتهمنى بأننى أحدث ضوضاء غير مستحبة، ولا بأننى أضيع وقتى.

وفى حماية القرآن بدأت أتردد على المآتم أستمع إلى هؤلاء المقرئين الذين يجلسون فى الصدارة، ويتمايلون فى كبرياء والناس من حولهم يصرخون، وينسى الناس بهؤلاء المقرئين كل ما أصابهم. وكنت أجلس إلى جوار المقرئين، ولا أتعب من التطلع إليهم، ولا أتعب من الهمس بما يقولون، فقد كنت أحفظ القرآن، وفى بعض الأحيان كانوا يسحبوننى بعيدا عنهم، فقد كنت أضع يدى على خدى أقلدهم

وأحيانا «أندمج» وأرتل القرآن بصوت مرتفع يبعث على الضحك فى هذا الموقف الجليل .

وتشجعنى ابتسامات الناس على التمادى فى هذا الموقف ولكن أبى منعنى برفق . وعندما أرتكب خطأ لأول مرة يكون العقاب مجرد السحب من اليد مع ابتسامة وعبارة رقيقة كنت أنتظرها دائما : الله يفتح عليك يا ابنى . .

ولم أكن قد عرفت الراديو بعد . . ولا سمعته ولا حتى سمعت به ، ولكن عندما أسافر إلى المنصورة كنت أستمع إليه . . الصوت قوى جميل . . وكنت أشعر بنشوة لا حد لها ، وكنت أمتنع عن الطعام نهائيا وكان أبى يتصور أننى مريض ، وبعد ذلك كان يرفض أن أذهب معه إلى المدينة بحجة أننى ضعيف وأن السفر يرهقنى . .

وتوسلت إليه ، وكنت آكل وأشرب وأسرف فى ذلك . الحقيقة أننى كنت أتعمد ذلك رغم قرفى من الأكل والشرب لكى أستمع إلى هذه الأصوات الباهرة التى لا أعرفها ولا أجرؤ على أن أتساءل عنها ، يكفى أن أسمعها فقط ، يكفى أن أعطى لها أذنى المفتوحتين اللتين لا تشبعان ، ولا ترتويان . وعندما كنت أعود إلى البيت أحس كأننى فى حالة تنويم مغناطيسى فأظل طول الليل بين اليقظة والنوم ، ويحارأبى وتحتار أمى . . وأحاول أن أغمض عينى بالقوة حتى لا أشرب كل هذه الكميات من الحلبة والنعناع والقرفة التى هى علاج لهذا الأرق والدوخة أو السكتة التى أصابتنى ، ولا أظن أننى تحدثت إلى أحد عن هذا الذى أصابنى !

وإن كنت لا أعرف ما هو هذا «الهذا» وما الذى أقصده «بهذا» .

وبدأ عنصر الخوف يتلاشى من حياتى ؛ لقد دخلت المدرسة الابتدائية ، وكنت طالبا متفوقا ، وكبرت ، ولا أذكر أن يدا امتدت إلى وجهى أو عصا نزلت على ظهرى ، اختفى الضرب ، اختفى الخوف من حياتى وصارحتنى أمى برغبتها فى أن أكون شيئا مهما ، أن أكون رجلا ذا شأن أكسب المال وأنفق على أبى وأمى وإخوتى . ولم أكن أدرى طبعا أى معنى واضح لما تقوله أمى ، ولكن الذى أحسست به هو هذا التغيير فى لهجتها معى ؛ لقد كبرت فى عينيها وفى استطاعتى الآن ، ما دمت أنجح بتفوق ، أن ألعب وأن أغنى وأن أستمع إلى الغناء .

وبدأت أغنى بصورة علنية .

وبدأت أدافع عن صوتى . . وأقارن بين صوتى وأصوات الآخرين ولم أجد من أمى أو أبى أى اعتراض على ما أقول . .

وفى هذه الأثناء تعرفت على صديق فى المدرسة الثانوية، كان صوته جميلا حقا، وتوقفت عن الغناء لنفسى أو لغيرى وانصرفت إلى الاستماع إليه، لقد كنت أرافقه ليلا ونهارا، وأنا مأخوذ بصورة مضحكة، وتشجعت أكثر فاتفقت مع أصدقاء لى على الغناء فى الأفراح والليالى الملاح وشجعنا الناس أحيانا وسدوا نفوسنا أحيانا أخرى، وتعلقت بصوت محمد عبد الوهاب، كما تعلق كثيرون غيرى .

ولم أكتشف إلا فيما بعد أن حبى لعبد الوهاب، كان إعجابا «بأسلوبه» فى التعبير، ومقدرته على البلاغة فى الأداء . كان عبد الوهاب يصور أملا من أمالى فى أن أكون قادرا على أن أقول وأن يجىء قولى واضحا بسيطا مفهوما مسموعا . . أو هكذا تصورت . .

وحفظت كل أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم . . وعرفت الموسيقى الكلاسيكية، واستمعت وأطلت الاستماع . . و«تدروشت» فى الموسيقى الغربية . . وفكرت فى أن أتعلم العزف . . وبدأت أعزف على البيانو وعلى الكمان وعلى العود وتغيرت الآلات الموسيقية من يدى وتحيرت . . وانتقلت «عدوى» قلقى إلى التعبير فى يدى . . تكون مرة قلما، ومرة فرشاة، وتارة بيانو، وتارة مضرب تنس . .

وجاءت الجامعة فابتلعتنى تماما . .

لم أعد أفكر فى شىء . . لا الراديو ولا الغناء ولا الموسيقى . .

وفى الجامعة كنت ضمن أعضاء جمعية «الجرامفون» التى يشرف عليها الدكتور لويس عوض . . وكان من أعضائها فى ذلك الوقت محمود أمين العالم وعباس أحمد ويوسف الشارونى وبهيج نصار ومصطفى سويف وبدر الديب، وكلهم طلبة فى قسم الفلسفة .

ولكن لم يكن الاستماع إلى الموسيقى إلا ساعات كل أسبوع . . وبعد ذلك أعود إلى النسيان . . إلى نسيان كل شيء حولى والإغراق تماما فى الكتب الفلسفية . .

ولا أزال أعتبر الصوت الجميل كالعضو الجميل، كالعين والشفتين والساقين . .

ويمكن فى اللغة العامية أن تقول عن الصوت أنه «الحس» فتقول فلان «حسه» جميل - أى صوته جميل . .

وفعلا الصوت هو الحس، هو كل الإحساسات، بل إنه يثير ويمتع كل الإحساسات . .

وقد ألصقت أذنى طويلا بالأسطوانات والأشرطة التى ينبعث منها الصوت الجميل . .

بل إننى أحتفظ بأسطوانة ليس فيها غناء ولا موسيقى . . وإنما فقط صوت محررة فى مجلة «المختار» الأمريكية تعلن عن إحدى المقالات.

ولو عرفت لماذا احتفظ بهذه الأسطوانة لاندهشت. إنها عن هذه المحررة واسمها «هيزل ماركل» تضحك . . فقط تضحك، إن ضحكتها أعجبتنى وأمتعتنى فى كل مرة أسمع هذه الضحكة . .

وعندى أسطوانة مهشمة عليها صوت جان بول سارتر الفيلسوف الوجودى. إن صوته أجش قوى مرهف جميل جدا.

وما زلت أحب الصوت الجميل، فى الكلام والسلام والغناء والأداء والتمثيل . .

فمعظم حواسى فى أذنى!

ولم أدخل سينما قبل أن أتخرج فى الجامعة، ولم أر فيلما واحدا، ولم أعرف باب سينما، ولا فكرت فيما يجرى داخلها . .

وفى يوم قررت بصفة سرية - أى بينى وبين نفسى - أن أتسلل إلى إحدى دور السينما دون أن أخبر أحدا بذلك حتى لا ينكشف أمرى . . ويعرف الناس أننى

ذاهب إلى السينما لأول مرة فى حياتى، وفى ذلك الوقت كنت محررا فى جريدة «الأساس» وذهبت إلى سينما ستراند الصيفى وكان الفيلم هو «غراميات كارمن» بطولة ريتا هيوارث وجالنى فورد . .

ومهما وصفت لك دهشتى وفرحتى ونشوتى فأنا عاجز تماما عن الإحاطة بما أصابنى فى تلك الليلة، يكفى أن أقول لك إننى ظللت أكتب عن هذا الفيلم بحماسة شديدة، وكيف استخلصت منه معانى فلسفية لا أول لها ولا آخر، حتى مل الناس كلامى . . ولكن لم أجد فيما أقوله مللا ! فقد كان كل شىء جديدا «رائعا» . . كل شىء . . الأضواء والأصوات والناس وريتا هيوارث . . تلك الغجرية التى جعلتنى أقرر بعد ذلك بخمس سنوات أن أزور كهوف الغجر فى إسبانيا فقط لأرى كيف كانوا يعيشون . .

ومن السينما تسللت إلى صناديق الليل فى القاهرة . . كل ليلة أذهب إلى مكان . . ويعلم الله أننى كنت مبهورا وكنت خائفا أن يرانى أحد، وكنت خائفا من الذين يروننى، وكنت أجلس فى الكباريهات فى المقاعد الأمامية . . لا أشرب ولا آكل، ولا أتصور أبدا أن الناس يذهبون إلى هذه الأماكن لشىء آخر غير الفرجة . . وكم كتبت من القصص وكم نظمت من القصائد. وكم تخيلت من المواقف المسرحية، وكم تأثرت وبكيت أيضا على أشياء لا يبكى عليها أحد . .

وكلما أنظر إلى راقصة، وأرى الأضواء تتلون على جسمها وأنظر إلى عينيها، أجد شيئا آخر غير الذى يراه الناس . . ربما كان جسمها مثيرا، ولكن من المؤكد أن فى عينيها دموعا . . إنها تؤدى دورا فقط . . إنها لا تجد متعة فى هذا العمل الآلى الذى تقوم به كل ليلة، وحتى لو كان هذا المعنى نابعا من إحساسى أنا، فقد كنت أؤكده لنفسى كل ليلة، كل ليلة أقول لنفسى : هذا كذب . . هؤلاء الناس يكذبون ليعيشوا . . هؤلاء الناس يتعرون ويتعذبون بالثمن . . هذه اللحوم الملونة ستصبح صفراء باهتة آخر الليل . . وستأكلها أفواه مخمورة، ولأنها مخمورة فهى لا تعرف طعم اللحم ولا لونه وهى لا ترى هذه العيون الباكية المتسولة !

لم تسعدنى هذه الكباريهات . . وإنما ملأت نفسى بالحزن والأسى والمرارة . . وشعرت أن هذه أسواق علنية للرقيق الأبيض.

وتوقفت عن التردد عليها بسبب هذا القرف . . ولا أعرف إن كان هذا الذى شعرت به نوعا من القرف، أو نوعا من الشعور بالذنب أو الشعور بالخطيئة الدفين، فقد تحول إلى شىء مُرّ على لسانى . . لا أعرف بالضبط . . فقد كنت طفلا مخنوقا «مكبوتا» خائفا «دائما» ولابد أن هذا الخوف نفسه هو الذى منعنى من أن أشعر بمتعة فيما أتفرج عليه، كنت أحاول أن أبرر لنفسى ولغيرى أننى على الرغم من وجودى فى الكباريه، نادم على ذلك . . إلا أننى قرفان مما أرى ومشفق على كل فتاة أراها . .

وترددت على المسارح وأدمنت مسرح الأوبرا وعرفت هناك سليمان نجيب وصلاح ذهنى . . والصديق عبد الرحمن صدقى فتح لى الأبواب والبناوير لكى أشاهد كل المسرحيات والأوبرات سنوات طويلة، وعرفت الصديق شكرى راغب وجلست معه فى الكواليس ساعات وسنوات، ورأيت وراء الكواليس ما لم يره المتفرجون . . رأيت الممثلين الكبار وهم فى حالة من الخوف من مواجهة الجمهور، رأيت الدموع فى عيونهم ورأيتهم وهم يرتجفون من الخوف، رأيت أجسامهم الضعيفة، رغم أنهم على المسرح يقومون بأدوار العمالقة . .

وأحسست أنهم قريبون من نفسى . . وأحسست أننى أنا أيضا عندما أكون وحدى فإننى ألهث وأخاف وأتعذب وأرتجف، ولا يرانى الناس وأنا أحترق، وألعن القلم الذى أمسكه وأحس أننى عاجز عن الكلام، عن التعبير، عن الكتابة.

ولكن القارئ - كالمتفرج - لا يهمه كثيرا كيف ومتى وكم ساعة تعذب الكاتب أو الممثل، ولكن يهمه أن يقرأ أو يتفرج ويستمتع، والكاتب يستمد متعته من متعة القارئ، والممثل يجد لذته من تصفيق المتفرجين.

الكاتب يجد لذته من لمحة فى عين القارئ، والممثل يجد متعته من أصوات الأيدى وهى تصفق.

وسافرت إلى أوروبا ورأيت مسارح الإغريق فى أثينا . . ورأيت مسارح الرومان فى روما، ووقفت ساعات فى مسرح كراكالا . . ورأيت مسرح الأوبرا فى باريس . . وقاعة ألبرت فى لندن . . وتفرجت على مهرجانات الموسيقى فى سالزبورج بالنمسا، وتفرجت على مهرجانات الموسيقى فى ميونخ وهمبورج وبرلين فى ألمانيا . .

وأمضيت أياما فى كهوف وخيام الغجر فى أشبيلية وطليطلة ومدريد بإسبانيا . . ورأيت المسرح الصينى فى جاكرتا . . ورأيت مسرح الكوكو ساى فى طوكيو . . ورأيت مسرح السوق الدولية فى هونولولو ، ورأيت هوليود مدينة السينما . .

وأصبحت المسارح جزءا من حياتى الفكرية . .

لابد أن أقرأها وأن أترجم بعضها ، وأن أتفرج عليها . .

وانتقلت من الفرجة إلى الكتابة عن المسرح وعن الأفلام والموسيقى والغناء .

وأصبح من أصدقائى كل نجوم الفن فى مصر ، وفى العالم العربى ، وكثيرون جدا من أوروبا وأمريكا . وتعودت أن أدخل المسارح وفى يدى ورقة وقلم ، وفى الظلام أخفى رأسى فى الورق لأكتب شيئا .

واعتدت بعد ذلك أن أخفى القلم فى جيبى ، والورقة فى رأسى ، وأن أعود إلى البيت بعد ذلك فأسجل ملاحظاتى عما رأيت .

وكنت أول الأمر أسجل انطباعى بالمسرحية والفيلم ، ولم أكن أهتم كثيرا بواقع المسرحية . . أى بظروفها ، ومجهودات الممثلين والمخرج والمؤلف . كأن الذى يرضينى هو الذى يجب أن يتجه إليه المخرج ، وعرفت أن هذه وجهة نظر خاصة جدا ، وهى لذلك ناقصة جدا ، وتعلمت بعد ذلك أن أقيم وزنا كبيرا للآخرين ، وأن يكون انطباعى هو واحدا من الانطباعات ، ووجهة نظرى هى إحدى وجهات النظر .

وأهم من ذلك تعودت أن أبحث عن عذر لكل إنسان . لابد أن يكون له عذر ، لابد أن يكون هناك سبب ما أدى إلى خطأ فى الأداء أو فى الحوار . . لابد أن يكون هناك عذر لكل إنسان . وما دام إنسانا فهو معرض لأن يتعثر وأن ينكسر وأن يخطىء ، وقد عرفت الكثير من الأعذار والمبررات وراء الكواليس .

وأصبحت أرى وأنا جالس على مقعدى فى الصالة ما لا يراه أحد غيرى وما لا يدرى به أحد سواى ، فأنا أعرف «أعذار» الممثلين . . وأعرف ظروفهم .

أذكر أننى عندما رأيت فيلم «أعظم استعراض فى العالم» من إخراج سيسيل دى ميل بكيت كثيرا . لم تظهر دموعى على خدى ، وهى غالبا لا تظهر ، وإنما كانت

دموعى فى قلبى، فقد رأيت هؤلاء الذين يظهرون أمام الناس وهم فى غاية الشجاعة، هم فى الحقيقة فى غاية الضعف، ولكن «الصنعة» تحتم عليهم أن يبدوا فى غاية القوة . . وفى غاية المرح . . وفى غاية السعادة . . وهم فى الحقيقة مرضى وتعساء وفاشلون . . فى الحب وفى الحياة وفى العمل.

وعرفت أعذار هؤلاء الأبطال، أو المفروض أنهم أبطال.

رأيت وراء الكواليس أناسا يبكون بدموع حقيقية وأدوارهم مضحكة، ورأيت ممثلين وممثلات بينهم دماء جارية، ويظهرون بالأحضان والقبلات أمام الناس.

وأصبحت أجد متعة لا حد لها فى رؤية البروفات . . أى المسرحية بلا جمهور . . رأيت الممثلين بملابسهم العادية، ومتاعبهم العادية، والمخرج يشخط وينطر فيهم، ويظهر عليهم التأثر، ويروى كل واحد كيف أنه لم ينم، ولم يأكل، وكيف أن زوجته مريضة . .

وكيف وكيف . . كل ذلك بلا جمهور.

واعتدت أن أرتبط نفسيا بهؤلاء الفنانين . . وأن أدافع عنهم. فأنا مثلهم، وكل فنان مثل أى فنان، فهو مطالب بأن يكون فى أحسن حالاته النفسية أمام الناس، ولكن عندما يخلو إلى نفسه، فإنه وحده يشكو متاعبه، وهو وحده يمسح عرقه . . بل إنه يضرب كفه اليسرى بيده اليمنى ويواسى خده الأيسر بيده اليسرى . . وحده . . وحده . .

والفنان يعيش وحده ويتعذب وحده، ويتلوى وحده، وعندما يتعذب فعذابه فردى شخصى . . عذابه لا يتجاوز هذه المسافة الصغيرة بينه وبين الورق، بينه وبين القلم.

وأحسست بأن الفنان «غلبان» . . الفنان الذى يكتب والذى يرسم والذى يؤلف. إنه مطالب دائما بأن يكون جديدا وألا ينسى أن يكون مسليا أيضا، فلا يكفى أن يفهمه القارئ أو المتفرج، وإنما يجب أن نضحكه . . أن نسعده . . لا يهم إن كان الفنان سعيدا أو ليس سعيدا.

وكتبت الكثير جدا من المقالات فى النقد الأدبى والفنى والمسرحى بصفة خاصة . . مئات المقالات . . أو ألوف المقالات، فقد استغرقت حياتى الأدبية والفنية العملية أكثر من ١٨ عاما، اشتغلت فيها فى كل الصحف والمجلات التى صدرت فى مصر، فيها جميعا بلا استثناء .

ولا أنسى كيف استمتعت بمشاهدة مسرحية «الأيدى الناعمة» لتوفيق الحكيم، وكنت جالسا إلى جوار طه حسين . . واستمتعت بملاحظات طه حسين، والحقيقة أننى انشغلت بملاحظاته عن المسرحية نفسها .

ولا أنسى كيف تفرجت مع توفيق الحكيم على مسرحية «يا طالع الشجرة» وانشغلت مرة أخرى بالمؤلف عن المسرحية . .

ومررت بتجربة أن أكون مؤلفا يتفرج على إحدى مسرحياته . . على البروفات . . ثم على المسرحية نفسها بين الجمهور . . إنه شعور غريب، مثير ولذيذ، ولكنه مؤلم أيضا .

فالمؤلف عندما يقرأ أحد أعماله أو يتفرج عليه فإنه يشعر بشىء من القرف، وهذا القرف هو مزيج من الخجل والملل، فهو يخجل من أنه معروض هكذا أمام الناس وأن الناس لابد أنهم قالوا عنه كذا وكذا، ويشعر بأن الذى كتبه ليس جميلا، وأنه كان فى استطاعته أن يكتبه أحسن وأفضل . . فهو فى حالة خجل مما فعل، وفى حالة خجل من كلام الناس ورأى الناس . . ثم هو فى حالة ملل، لأنه قد تعب فى هذا العمل الفنى، وشبع منه وزهق، ولا يريد أن يمر بهذه التجربة من جديد . . وتفرجه على المسرحية هو معاناة جديدة للتجربة الأولى . . وهى تجربة التأليف !

ورغم هذا القرف، فإنه عندما يرى أثر هذا العمل الفنى أو الأدبى فى الناس يستمد من هذا الأثر الجماهيرى حياة جديدة . . ومتعة جديدة . . هذه المتعة تجعله ينسى القرف . . ينسى الخجل وينسى الملل . . ويتجه نحو شىء جديد . .

وأخذت ألتفت إلى النقاد الآخرين، وباهتمام شديد . . النقاد المصريين والأجانب .

وأصبح من أصدقائى نقاد القمم مثل إدموند ويلسون فى أمريكا وكينيث

تاينـان فى إنجلترا وأندريه بيلى فى فرنسا . . وجعلت أتابع كل ما يكتبون وباهتمام شديد جدا .

وبصراحة أحسست كأننى أحد الأقمار الصناعية الضالة ، فأنا قد انطلقت وابتعدت عن الأرض وكل ما ينقصنى هو أن أجد لى مدارا محددا واضحا ، وهؤلاء النقاد وغيرهم وتجاربى قد وضعتنى جميعا فى المدار السليم . .

ولم تنته متعتى مع المسرح والمسرحيات ، بل إننى رأيتها قد اتجهت إلى ناحية عملية أكثر . . إلى ناحية القراءة والممارسة . . إلى ناحية الاطلاع على التجارب الجديدة للشبان الأدباء . . وناحية أن أكون أيضا صاحب تجربة وممارسة . .

ما المانع؟ . . إنهم يحاولون ، وأنا أيضا أحاول . وحياة أى إنسان هى محاولة مستمرة لأن يحقق الصورة التى فى رأسه ، أو الصور الكثيرة التى فى رأسه .

وما أكثر الصور فى رأسى ، وما أكثر الصور التى أراها فى رءوس الآخرين . . وما أسهل الصور وهى فى رأسى ، وما أصعبها عندما أحاول أن أنقلها إلى رءوس الآخرين . ولكن ما أمتعها أيضا عندما تتشابه الصور . . أو تتطابق الصور التى فى رأسى والتى استقرت فى رءوس الآخرين . .

وعندما أصبحت عضوا فى اللجنة الفنية للمسرح الكوميدى قرأت عشرات من المسرحيات التى قدمها الأدباء الناشئون ، وعرفت الصعوبات التى يعانيها الأديب الناشئ فى إضحاك الناس .

ولاحظت أن فن الإضحاك ليس سهلا . . فمن الممكن الإضحاك بالحركة ، والإضحاك بالكلمة . . ومن الصعب الإضحاك بالموقف . والإضحاك عندنا صعب ، وليس أسهل من إسالة دموع أى إنسان ، يكفى أن تشكه بدبوس . .

وجربت المسرح . .

لقد قرأت مسرحيات كثيرة لكل المدارس الأدبية فى كل العصور . .

وظهرت لى مسرحيات مؤلفة ومترجمة :

مسرحية : الأحياء المجاورة . وقد قام ببطولتها اثنان فقط من أعلام المسرح

العربى: سناء جميل وحمدى غيث، وأخرجها جلال الشرقاوى، وكانت تجربة مثيرة ناجحة . .

ومسرحية: حلمك يا شيخ علام . . وقد قام ببطولتها أمين الهنيدى وعقيلة راتب، وأخرجها عبد المنعم مدبولى . .

وترجمت مسرحية «الرعشة» عن تنيسى وليامز.

وترجمت مسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر.

وترجمت مسرحية «رومولوس العظيم» لفريدريش ديرنمات.

وترجمت مسرحية «هبط الملاك فى بابل» لديرنمات أيضا.

وترجمت مسرحية «الفأس» لماكس فريش . .

وترجمت مسرحية «الأستاذ تاران» لأداموف.

ومسرحيات: يا سيدى إزيك، والعربة الشقراء، وعريس لابنتى ليونسكو، ومسرحية «دعاء» لأرابال.

وكانت أول مسرحية ترجمتها هى «الإمبراطور جونز» ليوجين أونيل . .

وأذاع الراديو مسلسلة علمية بوليسية اسمها: «ش ٣» . . بطولة محمد رضا وسعد أردش وعبد السلام محمد وصبرى عبد العزيز ورجاء حسين. وإخراج مصطفى صادق.

ولدى مسرحيات أخرى من تأليفى ومن ترجمتى وأرجو أن تظهر عندما أشعر بالارتياح لها . .

وفى كتبى التى زادت على سبعين كتابا، لم يخل واحد منها من كلام عن المسرح والمسرحيات.

ومنذ أكثر من ١٨ عاما هى كل حياتى الأدبية، وأنا أذهب إلى المسارح وإلى دور السينما بانتظام تام . . أختار لى مقعدا على الشمال، وأجلس تلميذا فى مدرسة لها عشرات الأساتذة من المؤلفين وكاتبى السيناريو والمخرجين والممثلين والمصورين ومهندسى الصوت . . وانفعالات الجماهير أمامى وخلفى وحولى . .

إنها متعة متجددة لا تنتهى . . فن وصناعة . . ولكن الكرسى الذى أختاره على الشمال فى المسرح هو الذى يسعدنى . . فأنا أرى أناسا حقيقيين على المسرح . . وأرى قطرات عرق صادقة . . وأرى خوفا وفزعا وأرى وجوها تتوارى وراء الكواليس أعرفها . . أعرف مخاوفها أعرف عذابها . . أشفق عليها من الناس . . أشفق عليها من الخشونة والنعومة فى خشبة المسرح . . أعرف أن هذه الوجوه التى تبدو مرحة لكى تسعد الناس، ليست كذلك بعيدا عن عيون الناس . . إننى أضحك مع الناس ولكن طعم المرارة لا يفارق فمى . . مرارة التعب والعرق والخوف والحرص على الاستمرار . . إنه لشىء رهيب جدا أن يظهر الممثل على المسرح ولا يجد أحدا يتفرج عليه . . وشىء رهيب أن يظهر ويجد الألوف تتفرج عليه، فالنجاح مخيف والفشل مخيف أيضا . .

إننى لا أنسى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى مدينة الملاهى لأشهد شيئا نادرا، لقد سقط حصان فى الحوض فمات !

حادث عادى جدا من الممكن أن يقع، ولكن لا أعرف إن كان هناك أحد قد شهد هذا الحادث أكثر من مرة فى حياته.

فى تلك الليلة، فى أول ليلة أشاهد فيها مدينة الملاهى فى حياتى - وكان ذلك بعد أن تخرجت فى الجامعة وأصبحت ناقدا أدبيا لجريدة «الأساس» ومحررا فى «روزاليوسف» - رأيت هذا الحصان الفخم يصعد سلما عاليا، وكان هادئ الخطوات شامخا، وكان الناس ينظرون إليه فى خوف واضح، وكنت أشد الناس خوفا. وجاءت البطلة الإنجليزية وامتطت الحصان ووقفت بالحصان فى نهاية السلم، ثم هبطت وهى فوق الحصان فى الحوض المائى الكبير . . وقفزت السيدة وفى يدها الكرباج إلى خارج الحوض، أما الحصان فلم ينهض، لقد ظل نائما فى الحوض يئن ويتوجع وأنا أبكى، مع أننى لم أكن أعرف أن الحصان قد مات، ولم أكن أعرف أن هذه «النومة» غير طبيعية، ولكن بإحساس مباشر غريب بكيت عليه؛ على شبابه، على فخامته، على بطولة هذا الممثل الذى يصعد السلالم كل يوم ويقفز فى الهواء ليصفق الناس للبطلة التى ركبته ويعود هو إلى الإصطبل مبللا مرهقا.

كأى ممثل . . كأى كاتب . . كأى إنسان يراه الناس فى موقف بطولى . . هذه الدموع على الحصان قد اختفت من عينى . .

ولكنها انتقلت إلى أعماقى . . بين الحين والحين أنقلها إلى قلمى لأذرفها على أحد . . وعلى نفسى كثيرا جدا ، فأنا كل يوم أصعد هذه السلالم وأغمض عينى ، وأسد أذنى . . حتى لا أرى حوض الماء وحتى لا أسمع ما يقوله الناس . . وأجعل المرارة بعد ذلك صمغا لشفتى !

ولا أزال أجلس فى الكرسى نفسه الذى على الشمال . . أو فى كرسى قريب منه . . أحيانا أحس أننى أتمدد على كرسى من الفراء الناعم المريح . . وأحيانا أحس أننى كالفقير الهندى أتقلب على المسامير . . وأحيانا يغلبنى النوم .

وكثيرا ما تمنيت أن تطول جلستى ، وكثيرا ما تمنيت أن تبلعنى الأرض أنا ومقعدى وكل الكراسى التى على الشمال والتى على اليمين . .

ولا أزال ـ وبمتعة ـ أحرص على أن أذهب لأتفرج على المسرح والسينما . . ففيهما مجموعة من الفنون ، من أرقى الفنون التى ابتدعها الإنسان . . الكلام والأداء والإخراج والصوت والموسيقى ، وفن الاستماع ، والنقد الذى يضىء ، والنقد الذى يضلل . .

وفى هذه الصفحات حاولت أن أحتفظ بمقعدى ، حاولت ألا أبرحه وأن أنقل مشاعرى إلى الذين مثلوا وكتبوا وأضاءوا وعبروا ، وإلى الذين تفرجوا ، وإلى الذين سيتفرجون . .

ولا أقول إننى لم أتثاءب . . ولا أقول إننى لم أشعر بالملل . . لقد قاومت الملل . . مللى أنا ، وأحاول ألا يشغلك تثاؤبك عن متابعة هذه السطور . . وهذه الصفحات . . وعن قراءة الصفحة الواحدة أكثر من مرة . . فأنا كثيرا ما عدت إلى مطالعة ومشاهدة المسرحية الواحدة عدة مرات . . والتفكير فيها من جوانب عديدة . . إننى أحمد الله على ذلك . . فهذا دليل على أننى لم أعرف الملل من البحث عن الحقيقة . . من بحثى عن الحقيقة !

وكان هذا التكرار هو عادة «المطرب» الذى فى داخلى . . فأنا أردد اللحن الذى يعجبنى كأننى أسمع من يقول لى : الله . . أعد . . أعد . .

مع أننى لا أسمع أحدا يقولها . . وإنما فقط أريد أن أطمئن على حبالى الصوتية !

الخبز والقبلات [*]

لم يترك الإنسان صفة من الصفات لم يضفها إلى نفسه . . فهو وصف نفسه بأنه حيوان ، وبأنه جماد وبأنه نبات وبأنه نصف إله ، وبأنه إله أيضا . .

وعندما قال الفيلسوف الألمانى ليبنتس : إن الذى يقدر على العزلة إما أن يكون حيوانا أو إلها ، جاء الشاعر الألمانى جيته فقال : أو . . هما معا !

أى الإنسان هو الذى يوصف بأنه إله وحيوان فى وقت واحد . . به صفات العقل وبه غرائز الحيوان . .

والتاريخ ، هو الذى سجل مجد الإنسان وصفحة مهارته أيضا ، يصور لنا كيف كان الإنسان عاقلا ومجنونا ، مبدعا ومدمرا ، بلا عقل . . أو أنه كان يستخدم عقله فى القضاء على عقله أيضا !

وحاول الإنسان أن يجعل أجداده من سكان السماء . . وأنه هبط إلى الأرض . .

والأديان تقول لنا إن آدم كان «فوق» وإن حواء التى هى ابنته وزوجته قد نزلت به إلى «تحت» .

وإنه من ذلك اليوم قد انغمس فى «تحت» ويحاول أن يتسامى إلى «فوق» .

والدراسات الأثرية الحديثة تقول لنا إن الإنسان ليس إلا كائنا عاقلا هاجر من كواكب أخرى إلى هذه الأرض [1] .

(*) مقدمة كتابى : « الخبز والقبلات » .

(١) انظر كتابى : « الذين هبطوا من السماء » .

وبعض العلماء يرى أنه لا داعى لأن نبحث عن أصل الإنسان وإنما أن نتجه إليه هو . . فهو عقدة العقد . . وأن نستعين بالحيوانات الأخرى على فهمه ، ففى داخل الإنسان كل ما حوله من حيوانات أخرى . . فهو ثعلب عند اللزوم ، وهو ذئب وهو ثعبان ، وهو حمامة سلام وهو مجرم حرب . .

ولكن لا يزال القرد بالذات هو أقرب الحيوانات إلينا . . ولكى نفهم الإنسان يجب أن نتجه إلى القرد . . فهو أستاذنا ، والذى يفعله القرد بغير عقل ، هو الذى نخفيه نحن بمنتهى العقل ، ولذلك إذا أردنا أن نرى صورنا الخفية فعلينا أن نذهب إلى حديقة الحيوان وأن نتفرج على أنفسنا فى الأقفاص وفى «جبلاية القرود» . (وجبلاية القرود هو تعبير مصرى نطلقه على المناطق التى تعيش فيها القرود فى حديقة حيوانات الجيزة . . فهى ليست جبلا ولكنها جبلاية ـ أى جبل صغير . وقد أقمنا هذا الجبل الصناعى لعل القرود تجد نفسها فى بيئة طبيعية ، مع أن الحديقة هى سجن صنعناه للقرود ، ولذلك فهذه القرود تتصرف كما يتصرف أى سجين بلا أمان ولا راحة ولا صحة ، ولذلك تمرض . . وتنقرض حيوانات كثيرة فى هذا المنفى وهذا الزحام المخيف) .

والدراسات الممتعة التى أصدرها الكاتب الإنجليزى دزموند موريس هى أروع ما عرفنا ـ فى السنوات العشر الأخيرة ـ وأنا لم أرفع عينى عن مؤلفاته . . ولذلك فأنا شديد الإعجاب به والامتنان له . .

فقد عاش هذا الكاتب الإنجليزى هو وزوجته يتابعان سلوك الحيوانات ـ القرد وحيوان الباندا الصينى ـ سنوات طويلة ، وصدرت لهما دراسات رائعة ، وهو يستمتع بقدرة هائلة على الملاحظة الدقيقة ، وبراعة فى التعبير وفى المقارنة بين الإنسان والحيوان .

وكذلك ما كتبه زميله ليال واطسون مدير حديقة حيوان جوهانسبرج بجنوب إفريقيا ، فقد صدر له كتاب عن عادات الإنسان فى الأكل والشرب ، وهو أيضا لم يرفع عينه عن الحيوانات الأخرى . أما كتابه فعنوانه : «القرد الذى يأكل كل شىء» وهذا القرد ليس سوى الإنسان طبعا ، فالحيوانات جميعا تقتصر على أنواع محددة من الطعام ، فمنها النباتى والحيوانى ، ولكن الإنسان يأكل النبات والحيوان . والحمار يأكل البرسيم والفأر يأكل الجبن والقط يأكل السمك . . ولكن الإنسان

يأكل الجميع وفى كل وقت، بل إن ساعات الراحة عند الإنسان ليست إلا فترات بين وجبات . . ثم إنه لا يوجد عنده موسم للرغبة الجنسية . . فهو يشتهى على مدار السنة . . وأنثى الإنسان تلد فى أى وقت . . ومعدة الإنسان تتلقى وتهضم ما يساوى طنا كل سنة.

وعنده هذه القدرة على التكيف فى الطعام والشراب ومع البيئة ومع الحيوان ومع الناس، ولذلك عاش وماتت وانقرضت حيوانات أخرى كثيرة!

والذى يحدث فى «جبلاية» القرود يقع فى كل بيت . . وكل مصنع وكل جمعية، ولكن بصورة أعمق.

فإذا تكررت كلمة «قرد» كثيرا فى هذا الكتاب، ففى استطاعتك أن تضع مكانها أى إنسان . . ففى استطاعتك أن تقول: أنا وأنت وهو وهى . . ونحن جميعا . .

وهذا الكتاب يغريك بأن تنظر باحترام إلى كثير من الحيوانات فليست هذه الحيوانات إلا بشرا بلا حياء . . وبلا كذب . . ولذلك يخجل الإنسان أن يراها أو يحن إلى رؤيتها . . ولكنه لا يستطيع أن يغمض عينيه عنها . .

ولا يكفى أن ننظر ولكن يجب أن نطيل النظر . . فى النظر إليها أشياء مسلية وممتعة . . ومهما بدت هذه الحيوانات مضحكة ففى استطاعتك أن تفتش بين أصدقائك وزملائك وآبائك وأعدائك عمن يشبهها فى كل شىء . .

وكلنا حيوانات عند الخبز والقبلات . . أى عند البحث عن الطعام وعن الحب . .

عن الرغيف وعن القبلة . . عن الذى تملأ به المعدة وتملأ به القلب . .

ويحدث كثيرا أن نجد الحب ولا نجد الرغيف . . أو نجد الجنس ولا نجد الحنان . .

وفى زحام المدن يتولد الاصطدام، ويتولد الخوف والكراهية والمنافسة حتى الموت.

وهذا هو العذاب الذى يعانيه الإنسان . . فى كل عصور التاريخ . .

فى المدن وفى القرى . . وعندما يكون وحده وعندما يكون مع الناس. كيف؟

تفضل واقرأ هذه الصفحات!

عزيزى فلان (*)

عزيزى الأستاذ شموئيل موريه :

شكرا لك على رسائلك وعلى اهتمامك بما أكتب .

وكنت أتمنى أن أختار لك قصة ـ على ذوقى ـ كما تقول ، قصة «مصرية» كما أردت ـ أى تعبر عن الواقع المصرى .

وأنا أرى أننى مصرى ، وأن واقعى هو واقع لواحد مصرى . وعلى ذلك فهى قصة مصرية !

فأنت ـ إذن ـ طلبت منى شيئا آخر صعبا ، فليس من بين القصص التى كتبتها ونشرتها ، وهى تزيد على الأربعمائة قصة ، واحدة يمكن أن توصف بأنها مصرية . . فأنا فى كل قصصى ، لا شأن لى بالزمان أو بالمكان . . وإنما أنا مشغول بالدوافع والعواطف الإنسانية . . مشغول بالواقع النفسى للناس . . ولذلك خلت قصصى من الأسماء . . لا اسم للبطل ولا اسم للمكان . . ولا تحديد للزمان . . وإن كنت حاولت أحيانا أن أجعل للأشخاص أسماء . . ولكن هذه الأسماء ليست لها دلالة خاصة . . وإنما فقط كانت هذه الأسماء مثل علامات الطريق حتى لا يضل القارئ ويضيع بين اضطرابات الأشخاص النفسية والعقلية . . تماما كما تجد فى أحد الشوارع هذه العلامات : اتجه إلى اليمين . . السرعة لا تزيد عن

(*) طلب منى المستشرق الأستاذ شموئيل موريه أن أبعث إليه بعدد من القصص التى جاءت فى كتابى «عزيزى فلان» فكتبت له هذا الخطاب الذى جاء فى مقدمة كتابى «عزيزى فلان» تبعة لكى يترجمها ـ مقدمة كتابى «عزيزى فلان» .

عشرين كيلومتر . . على مدى مائة متر يوجد تليفون . . هنا منحدر شديد . . احترس فهنا مدرسة . . وكل هذه التحذيرات ليست أسماء للشارع أو المدينة أو تحديدا للزمن الذى تنطلق فيه السيارات . .

بل إننى أحيانا رأيت أن أعطى للأشخاص أرقاما . . كأرقام نزلاء السجون، أو كأرقام السيارات أو التليفونات . .

وإذا كان هذا يبعدنى عن مصريتى، فكل قصصى كذلك . . فهى لا توصف بأنها مصرية أو عربية . . ومن الممكن أن تقع أحداثها لأى أحد، فى أى وقت، فى أى مكان . .

وأكبر مجموعاتى القصصية واحدة اسمها «عزيزى فلان».

وفى هذه المجموعة رواية اسمها «عريس فاطمة» وكان من الممكن أن يكون اسمها «عريسها» فالاسم لا يهم، ولا دلالة خاصة له. وعندما حاولت أن أجعل لهذا الاسم معنى، عجزت عن إكمال القصة وكنت قد نشرتها مسلسلة، وتركتها سنوات عديدة. وعندما قررت أن أنشرها فى كتاب، كان لابد من إكمالها ومن تفسير عجزى عن ذلك.

وأكملتها. وجعلت فاطمة تحاكم الذى ورطها فى حياتها . .

وكانت محاكمة المؤلف أكبر دليل على أنه أرادها إنسانية، ولكن عندما حاول أن يجعلها مصرية، استعصى عليه الحل . .

والقصة بشكلها الناقص رومانسية مغرقة فى ذلك، أما تكملة القصة فهى فلسفية وجودية . .

وقد أشرت إلى أن هذه التكملة قد استوحيتها من قصة للفيلسوف الإسبانى أونامونو اسمها «المعنى الحزين للحياة» ففى هذه القصة نرى البطل يطل من بين السطور ويحاكم المؤلف. ولكنى مختلف عنه تماما . .

بل إننى جعلت النهاية أقرب إلى النكتة التى أطلقها أندريه موروا فى قصته «مدرسة الحب» لولا أننى لا أضحك فى قصتى، بل حزين على البطلة، وعلى المؤلف أكثر!

ولـم يسـاعدنى هذان المفكران على حل هذه المشكلـة ؛ لأنها ليست مشكلة فاطمة المصرية المسلمة ، ولا هى مشكلة المجتمع المصرى المحافظ ، وإنما هى مشكلة الكاتب الذى لا يجـد الحلول سـهلة لكل المشـاكل ، وخـاصـة المشكلة النفـسيـة الجسـميـة الاجتماعية الفلسفية السياسية العنصرية . . فالمشكلة ـ أية مشكلة ـ ما دامت إنسانية ، فـهى «معـضلة» أى صعبـة الحل ، إن لم تكن مسـتحيلـة . ولذلك فكل «العلوم» الإنسـانيـة ، ليست علوما كـالفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وإنما هى «ممارسات» واجتهادات وظنون . .

ولا يزال المثل الأعلى لمثل هذه الاجتهادات هو علم الكيمياء . . علم التفاعلات والتداخلات التى يمكن ضبطها وربطها إلى حد كبير ، فى معادلة مثل هذه المعادلة : ٢+ ٢ = ٤ . . وعلى ذلك فكل مـشكلة أمكن حلهـا ، تبـسيط مبـالغ فيـه ، أو هو تزييف للحل . . أو تزوير لطبيعة المشكلة نفسها !

وقد اختلط على الأمر ، فوقعت بين المشكلة الفنية ، والمشكلة الحقيقية . . أما المشكلة الفنية فهى أن فاطمة شخصية من صنعى ، والمشكلة أيضا من صنعى ، وكان لابد عندمـا أضع المشكلة أن أضع لهـا الحل المناسـب ، وهكذا تنتهى القصـة ، تماما كـما تنتـهى القـصص البـوليسية لأجـاثـا كـريستى وجورج سمتـون وكـونان دويل وأرسين لوبان . .

ولذلك كـان يحسدهم أينشتين حين يقول : لو كـانت الحقيـقة يمكــن الاهــتداء إليــها هكذا !

فقصة فاطمة ، لم تكن رواية بوليسية ، وإنما استغرقتنى مشكلتها الإنسانية حتى أغـرقـتنى ، ولـذلك لم أهتـد إلى الحل سنوات ، وعندمـا وجـدت الحل ، انتـصـرت البطلة على المؤلف ـ كان انتصارها فنيا ، أما هزيمتى فهى واقعية . .

وأذكر أننى فى الستينيات كنت أكتب أقصر قصة فى تاريخ الأدب الحديث . . القصة من ستين كلمة . . وكنت أضعـهـا ضمن صفحة فى مجلة الجيل التى كنت رئيسا لتحريرها ، والصفحة عنوانها هكذا : بقلم فلان !

فـالخـوف والغـضب واليـأس والحب والكراهية والحسـد والحقـد ، ليـست لهـا أسماء . . ولا العزلة والهوان والعدوان لها أسماء عربية أو عبرية . .

فالخوف ليس اسمه كافكا ، والهذيان ليس اسمه باشيفاس سنجر ، والغثيان ليس سارتر ، والقلق ليس كيركجورد ، والموت ليس هيدجر ، وغريزة الموت ليست فرويد ، والمرارة ليست يوجين سى ، والمجهول ليس آلان - روب جرييه ، واللامنتمى ليس كولن ويلسون ، والحوار بينى وبين نفسى ليس مارتن بوبر . .

وما زلت أذكر حوارا دار بينى وبين ياعيل ديان فى بيتها فى تل أبيب . قالت لى : أنا لست عاطفية مطلقا . . كنت أحب أن أتعمق فى دراسة الكيمياء !

تماما . .

وفهمت المعنى الذى قصدته تماما . .

إنها كيمياء التفكير والعواطف ، وهى بلا أسماء . وقد تعرضت إلى «كيمياء التفكير» فى كتابى الأخير « . . إلا قليلا» !

* * *

وأنا أضحك كلما تذكرت هذا البيت لأبى نواس :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف !

ويقول شوقى أمير الشعراء شارحا معنى هذا البيت :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى لعل الذى لم يعرف الحب يعرف
فقلت : لقد ذقت الهوى ثم ذقته فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف !

فالحب لا اسم له ، وإن كان المحبون لهم أسماء : قيس ولبنى ، وقيس وليلى وجميل وبثينة ، وكثير وعزة ، وروميو وجوليت ، ودانتى وبياتريتشه ، وبتراركه ولورا ، وأبيلار وهلويزة . . ونوفاليس وصوفيا ، وكيركجورد ورجينا ، ونيتشه ولو - أندرياس سالومى ، ورلكه ونعمت علوى . . والعقاد وسارة . .

وقال شوقى أيضا :

على قدر الهوى يأتى العتاب ومن عاتبت يفديه الصحاب
ألوم معذبى فألوم نفسى وأغضبها ويرضيها العذاب

ولو أنى أستطعت لتبت عنه ... ولكن، كيف عن روحى المتاب
إذا ما اعتضت عن عشق بعشق ... أعيد العهد وامتد الشراب
كأن رواية الأشواق عود ... على بدء، وما كمل الكتاب !

. . ولكنه لم يقل لنا ما هو الهوى؟

ويقول البوصيرى فى «البردة» النبوية :

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى إليك، ولو أنصفت لم تلم

ويقول شوقى فى «نهج البردة» :

يا لائمى فى هواه، والهوى قدر ... لو شفك الوجد، لم تعذل ولم تلم !

. . لم يقل لنا ما هو الهوى !

ويقول مصطفى صادق الرافعى فى مقدمة كتابه «السحاب الأحمر» :

يا من على البعد ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوما وننساكا
أن الظلام الذى يجلوك ياقمر ... له صباح، متى تدركه أخفاكا !

. . ولم يقل لنا ما اسم هذا القمر !

ويقول أديب فرنسا ستاندال : شيئان يتحدث عنهما الناس كثيرا ولكن أحدا لم يرهما : الحب والعفاريت!

. . وكذلك كل العواطف والمجاهدات الإنسانية. ولذلك لها جسم وإثم، وليس لها اسم !

فليس هربا من الاختيار، أن أبعث إليك بكتاب يضم مجموعة من القصص أكثرها من هذا النوع، إن لم تكن كلها. فأنا ـ مع الأسف ـ عندما فتحت عينى، فتحتها على نفسى . . وربما كانت هذه عيوب العزلة والانطواء، أو هى عيوب فقدان الشعور بالأمان الاجتماعى . . أو هى الدراسة الفلسفية بعد ذلك، التى جعلتنى أغلق الباب والشباك فلا أتوقع أحدا يجىء . . أو أنه لا أمل فى شىء أو

أحد ـ مكتفيا بما يدور فى داخلى من صدى حياة الناس حولى ، أو صدى حياتى حول الناس وبعيدا عنهم . .

فإن وجدت هذا التفسير مقنعا ، فقد أجبتك إلى طلبك . . وإن لم تجده كذلك ، فأعطنى فرصة أخرى حتى أهتدى إلى السبب الحقيقى الذى جعل قصصى خالية مما يمكن أن يوصف بأنه مصرى أو عربى أو بأنها قصص ! !

ولك أصدق تحيات وامتنان . . .

أنيس منصور

جسمك لا يكذب (*)

ولكنك أنت تكذب .

يسألك الطبيب عن حالك . فتقول : أحسن حال .

ولكن النبض المرتفع ، وصفار عينيك ، وشحوب أظافرك ، وشفتيك ، وعرق يديك ، كلها تقول أشياء أخرى فى مظاهرة تهتف بسقوطك نفسيا وانهيارك جسميا . . إذن أنت تكذب ، أما جسمك فلا . .

وجسمك هو جسدك ، وجسدك هو جسمانك ، وجسمانك هو ذلك الشوال الذى يلم لحمك وشحمك و ٢٠٦ عظمات و ٦٤٩ عضلة .

وفى أحشائك معدة هى بيت الداء ، وقلب هو مصدر الرحمة مع أنه غارق فى الدم ، وعلى كتفيك كرة مظلمة هى مصدر النور والحضارة وفيها مخ رمادى يزن ١٤٢٤ جراما - هو أعظم ما خلق الله . .

ونحن جميعا تحت الجلد سواء . . كلنا واحد . . ولكن لون الجلد هو الذى يفرق بيننا . . هذا أسود وذاك أصفر والثالث أبيض . . هذا شاب وهذا شيخ . . هذا رجل وهذه امرأة . .

ومكتوب على الجبين ما تقرؤه عيون الآخرين . . ومكتوب فى باطن الكف وباطن القدم أيضا . . أما الأذن فهى «فهرس» الجسم الإنسانى - هكذا يقول علماء الوخز بالإبر الصينية - ففى شحمة الأذن مراكز الجسم كلها . . وشحمة الأذن تشبه

(*) مقدمة كتابى : «جسمك لا يكذب» .

«تابلوه» النور فى كل بيت وكل مصنع . . وتشبه تابلوه السيارة والطيارة، فيها مفاتيح الغدد والعضلات . .

وعندما تعلم الإنسان الكتابة بدأ ينقش جسمه؛ فالألوان لغة، وكل لون له معنى، سواء الألوان على الوجه أو على الصدر والذراعين والساقين.

وكذلك الأزياء التى ابتدعها الإنسان: كانت ألوانا وخطوطا؛ فالفستان للمرأة: بشرة ثانية؛ واللون والخطوط: مفردات للغة الوقاية من البرد والحر، والأناقة والجمال دليل الطبقة الاجتماعية والحالة النفسية أيضا. والأزياء لها قصة نفسية واجتماعية طويلة، سوف أحكيها فيما بعد . .

وسوف أحدثك الآن لا عن حلة الإنسان ولا عن جسمه وإنما عن ملليمتر من اللون أو القماش يعلو جسم الإنسان . . ونحن لا نعرف بالضبط متى بدأ الإنسان تلوين جسمه، ولكن رأينا الحيوانات والطيور التى تركها وراءه فى الكهوف من عشرات ألوف السنين، وعلى التوابيت وفى المعابد . .

فبين ليبيا والجزائر توجد كهوف «تسيلى» وعلى جدرانها حيوانات وطيور وكائنات بشرية غريبة، والألوان المستخدمة هى الأحمر والبنى والأسود والأبيض، وهذه الألوان لها معنى؛ لأن الفنان الذى رسمها أراد أن يبعث إلينا برسالة، والرسالة وصلت، والمعنى هو أن اللون الأبيض رمز السمو والأحمر رمز الحياة والأسود رمز البقاء. ولم نجد فى داخل هذه الكهوف أحدا من الذين حفروها ثم بعثوا إلينا بهذه البرقيات المنقوشة على الجدران . .

وأنت تولد فى جسمك، وعندما تموت تتركه وراءك؛ لأنك تموت فى جلدك وتلمس الدنيا من خلال نوافذ العين والأذن والأنف والفم . . وتتحسس الدنيا بأصابعك . . وتطورها بعد ذلك . . فالفرق بين الحيوان والإنسان هو أن للإنسان أصابع قادرة على صنع السكين والقلم والسيف. فالإنسان هو الحيوان الذى يصنع أدوات حياته وأسلحة موته . . وهو يفعل ذلك لأن له أصابع قادرة على أن تقبض على المادة وتشكلها وتطورها، أما القرد - مثلا - فله أصابع ممدودة مفرودة مشدودة تقع منها الأشياء . .

* * *

وحكاية بلقيس ملكة سبإ نموذج من التاريخ على إرغام الجسم على أن يكذب . . فعندما شكت بلقيس ملكة سبإ من أن بشرتها جافة خشنة ، فقد كانت مصابة بمرض فى الكبد ، أشار عليها الأطباء بعلاج للبشرة ، ولا شيء يدل على صحتك مثل بشرتك . . ولتكون هذه البشرة ناعمة لينة ، نصحوها بأن تستحم يوميا فى لبن «حمارة» . . ثم فى لبن الماعز وأن تضيف إلى هذا اللبن عطرا ، ولما ذهبت بلقيس إلى مدينة القدس للقاء الملك سليمان أقفلت قصرها عليها أياما ، ولم يفهم الملك ذلك ، ولا أحد . . ثم عرف فيما بعد أنها حشدت أطبائها وعواجيزها يسهرون ليلا ونهارا على جمالها ، ولم يفعلوا إلا شيئا واحدا ، راحوا يدلكون بشرتها بكل أنواع اللبن والدهون والعنبر . . وهى محاولات طويلة مرهقة للكذب ، فتبدو بلقيس ناعمة لامعة شابة ، مع أنها مريضة تنتفض تحت جلدها خوفا من جبروت الملك سليمان!

فكان أول حادث كذب فى التاريخ - كذب فى شهادة رسمية . . أما الشهادة فهى لونها البنى الأسمر الأصفر الشاحب ، وشفتاها الجافتان ، وبشرتها المشققة!

ولا تزال كل أخوات وبنات بلقيس يكذبن حتى اليوم . . ونحب هذا الكذب!

أما الأكذوبة الثانية فيوم قررت «كليوبطرا» ملكة مصر أن تنتحر . . وضعت كل زينتها : الأبيض والأسود والأحمر والذهبى . . وفستانها العارى ومجوهراتها . . ثم أتت بثعبان يلتف حول عنقها ويلدغها وتموت ، كأنما أرادت أن تقول : إن الموت فاجأها فى نصف زينتها ، كأنها لم تكن تخاف الموت . . أى أنها لم تأت بالموت ، وإنما هو الذى تسلل إليها . . فليس الموت ذلك الشبح المخيف ، وإنما هو ذلك اللص الخائف ، فتسلل يسرق حياتها!

أو كأنها أرادت . . بجمالها أن تغزو الموت . . فمات فيها الموت!

ولا شيء يدل على سذاجة «مارلين مونرو» أجمل امرأة خلقها الله ، إلا أنها كانت تتبع فى حياتها أسلوبا غريبا . . فقد كانت قبل النوم تأخذ حماما ساخنا جدا ، ثم تبتلع عددا من الأقراص المنومة مع الويسكى لكى تنام نوما عميقا - هذا ما كانت تقوله أول الأمر - ولكنها اعترفت بعد ذلك بأن خادمتها - نعم خادمتها - قد قرأت كثيرا عن أثر المنومات والمسكرات فى نعومة البشرة!

وقرر الطبيب النفسى الذى كان يعالجها بأنها قرأت سطرا واحدا فى مقال لأحد النقاد هز كيانها حتى الموت، قال الناقد: إن شحوبها المثير يزلزل الجبال!

ومنذ ذلك الحين ومارلين مونرو حريصة على أن تبدو شاحبة متهالكة، لأن هذا يثير الرجال أكثر!!

* * *

وعندما جاء المؤرخ الإغريقى هيرودوت إلى مصر اندهش للألوان التى يستخدمها الفراعنة.. فقد أعجبته نقوش المقابر، أما أزياء الرجال والنساء فهى التى شغلته، فالفراعنة كانوا يرتدون الملابس النظيفة «اللامعة»..

وكانت المرأة تضع الألوان فى الوجه، وكذلك الرجل، وألوان المرأة كانت بسيطة خفيفة حول العين والحاجب وفى أصابعها..

وعندما ذهب المكتشف كوك إلى أستراليا سنة ١٧٧٠ بهره شيئان: حيوان الكانجرو والألوان الصفراء التى استخدمها البدائيون، فقد كان الأصفر درجات: أصفر فاتحا وأصفر ميالا للاحمرا، وأكثر الألوان من نصيب المرأة..

وأول ما شهده خريستوف كولومبوس فى «كوبا» سنة ١٤٩٢ أن الهنود الحمر يسرفون فى استعمال اللون الأحمر، يضعه الرجل على شفتيه قبل أية معركة أو قبل الخروج لصيد الحيوانات أو الأسماك.

ومنذ عشر سنوات اكتشفوا فى مدينة «تاتا» بالمجر صورة لحيوان الماموث، وكان لونها أبيض..

بينما الحيوانات التى ظهرت فى الشرق الأوسط وعلى الجدران والكهوف والمقابر فقد اتخذت الألوان الأحمر والأسود والأبيض، وكان ذلك لون الأجساد، ولون الملابس التى فوقها..

وقد درس العلماء الأمريكان والألمان قبائل «ندمبو» فى شمال زامبيا، فوجدوا أن الألوان ذات قوة سحرية، أى أن ساحر القبيلة يستخدم الألوان ليحدث أثرا فى جسم الإنسان. فاللون ليس كلاما يقال، ولكنه فعل السحر.. دواء.. سم.. بركة.. لعنة.. فاللون معناه تصريح بمرور الخير والشر فى الجسم الإنسانى.. تماما كعلامات المرور.. أحمر للوقوف وأخضر للمرور وأصفر للاحتراس..

وقد اهتدى العلماء إلى معانى الألوان عند هذه القبائل البدائية . . فاللون الأبيض : هو لون اللبن والحيوانات المنوية والصحة والقوة . . واللون الأحمر : الدم والحياة والروابط العائلية . . واللون الأسود : الليل والسحاب والموت والمرض والسحر والشر .

وعندما تكشفت لنا الحضارة الفرعونية - أروع الحضارات وأعمقها وأكملها - عرفنا معانى الألوان على جسم الإنسان والمومياء والتابوت وجدران المقابر والمعابد . . فالمومياء كانوا يصبغونها بالأسود : رمز البعث والحياة الأبدية . . وكان أوزوريس يتخذ لونا أسود . . وكذلك توت عنخ آمون . .

أما اللون الأخضر فلون الحياة الحيوانية والنباتية والشباب ، وكان جسم آمون إله السماء أزرق اللون . .

أما الأصفر فهو لون الذهب ولون جسم الآلهة أيضا ، وكان لونا محبوبا عند الفراعنة . . وبعض المؤرخين اتهم الفراعنة بالإسراف وتبديد الذهب على جثث الموتى وتوابيتهم ، ولكن عرفنا أخيرا جدا ، أيام رفع معبد أبى سمبل من أسفل إلى أعلى ، هربا من مياه السد العالى ، أن أجدادنا لم يكونوا يتسخدمون الذهب . . وإنما كانوا قد اهتدوا إلى أن الحلبة إذا غليت مع قشر البصل ، وظل الماء يتبخر شيئا فشيئا ، فسوف نجد أمامنا عجينة ذهبية اللون ، هذه العجينة هى التى كان يستخدمها الفراعنة - وليس سائل الذهب !

أما اللون الأبيض فهو لون السعادة والمرح ، ولون تاج الجنوب أيضا .

واللون الأحمر يستخدمه الملوك ، والصعاليك ؛ إذا استخدمه الملك فهو دليل على الحياة والقوة والبطش ، وإذا استخدمه الشعب فدليل على التبذل والفجور .

وكان الكاتب المصرى يكتب بالحبر الأسود . . أما الحبر الأحمر فقد خصصه للألفاظ النابية والشتائم وأسماء الحيوانات مثل الكلاب والحمير . . وأسماء الأعضاء الجنسية عند الرجل والمرأة . .

وكانت الأسرة المالكة فى مصر الحديثة تستخدم السيارات الحمراء ، ولم يكن مسموحا لأحد أن يركب سيارة لها مثل هذا اللون ، ولكن بعد الثورة ظهرت

سيارات حمراء اللون، فالشعب قد استباح اللون الأحمر، واستباح القصور الملكية، ولم يجعلها متاحف كما تفعل الدول الاشتراكية والرأسمالية ـ لقد «بهدلوا» اللون وداسوا التاريخ.

* * *

ومن أجمل الدراسات الحديثة عن المعنى العميق للون ـ لون الصبغة التى توضع على البشرة ولون الأزياء ـ ما كتبته السيدة «كارلا ريتر» عن قبائل «تشكرين» فى حوض نهر الأمازون. فقد تفرغت لدراسة قبيلة انعزلت ألوف السنين فى الغابات، القبيلة تسكن قرية من الأكواخ، يتوسطها بيت كبير. هذا البيت للمتزوجين، أما الشبان الذى لم يتزوجوا بعد، فهم يقيمون فى أكواخ عند أطراف القرية مع الفتيات المرشحات للزواج، وهم جميعا ينتظرون الأمر من ساحر القبيلة، فهو الذى يختار الوقت المناسب لطلوع القمر أو غروب الشمس، فإذا تزوج الشبان تغيرت ألوان البشرة، وإذا حملت الفتاة تغير لون الشفتين، وإذا أنجبت طفلها الأول والثانى والثالث تغير لون الذراعين.. وإذا مات أحد الأطفال، وإذا مات زوجها مريضا أو قتيلا.. لكل ذلك علامات لونية على الوجه واليدين والساقين..

ولم تترك هذه القبائل أى أثر.. لا تماثيل ولا معابد ولا قبور، وإنما القبيلة كأنها كتب متحركة أو معرض للفنون الشعبية.. فمن يريد أن يعرفها فليقترب منها أكثر ليقرأ ماذا تقول أجسامها..

وفى القرن السابع عشر كان المقاتل اليابانى يضع الأبيض والأسود والأحمر على وجهه.

وفى القرن الثامن عشر كان النبلاء الفرنسيون يضعون كل ما تستخدمه المرأة الآن.. ابتداء من البودرة فالمسكاراه فألوان الأساس وأحمر وأصفر الشفاه.. وكذلك الكحل فى العينين والشارب ـ وهو ما يفعله الممثلون الآن!

وفى آسيا انفرد الرهبان باللون الأصفر ـ فى الملابس وفى كل أدوات حياتهم، وكل رجال الدين يستخدمون اللون الأسود فى ملابسهم ـ رمزا للوقار والزهد فى الدنيا..

والشعوب التى تضع موتاها فى الكفن الأبيض ترتدى السواد حدادا عليهم . . والذين يضعون الموتى فى القماش الأسود، يلبسون الأبيض حدادا على أعزائهم . . والذين يحرقون موتاهم، لا يغيرون ملابسهم!

* * *

ونحن نتشابه فى كل شئ: أفكارنا وعاداتنا ولغتنا . . وطعامنا وشرابنا . . وملابسنا الجاهزة وملابسنا التفصيل . . فالأفكار مصدرها: الصحف ووسائل الإعلام نفسها . . ولغتنا المصرية ذات اللهجة المصرية . . لهجة أبناء القاهرة ولهجة أبناء الأقاليم . . والقماش الذى تنتجه مصانعنا . . والقماش الذى تبيعه شوارع سليمان باشا وقصر النيل والشواربى . . ونأكل الفول صباحا، أو نحب ذلك . . ونأكله فى رمضان أو نضعه أمامنا وننصرف إلى غيره . . ونذهب إلى مسجد سيدنا الحسين، لنكمل أبهة شهر رمضان . . إلخ.

ولكننا نختلف فى أجسامنا . . فأجسامنا هى الشىء الشخصى الوحيد . . فكل واحد له جسم مختلف عن الآخر . . وللجسد معالم متميزة، وجسمى هو وسيلتى الوحيدة إلى معرفة العالم والتأثير فيه . . هو المرض . . هو المعمل . . هو الأرشيف وهو الملعب وهو المقبرة أيضا . .

وأذكر عندما كنت رئيسا لتحرير مجلة «الجيل» سنة ١٩٦٠ أن جاءنى أستاذنا د. لويس عوض ثائرا يقول: يجب أن توقف هؤلاء الشبان عند حد . . لقد تجاوزوا أصول الأدب والأمانة الصحفية . يجب!

فقد نشرت مجلة «الجيل» حديثا بين المحررة «أحلام شريف» وبين صوفيا لورين . . ولم يكن حديثا عن شخص صوفيا لورين وإنما عن جسمها ومكانتها وإثارتها الجنسية للآخرين.

أما سبب غضب د. لويس عوض فهو أن هذا الحديث قد أجراه أديب إيطاليا العظيم ألبرتو مورافيا مع صوفيا لورين، بطلة معظم قصصه، وقد كان حديثا غير تقليدى؛ فبدلا من أن يكون عن أسرتها وعن أعماقها، كان عن الجانب الشخصى المتميز . . كان عن جسمها . . عينيها وشفتيها ونهديها وردفيها وساقيها . .

أى أن هذه المحررة الناشئة قد نسبت هذا الحديث إلى نفسها!

ووعدته بأن أعاقب المحررة حتى لا يتكرر منها أو من غيرها شيء من ذلك، ولم يكن د. لويس عوض يعرف أن «أحلام شريف» هذه ليست إلا واحدة من الأسماء الكثيرة التى أختفى أنا وراءها، ففى ذلك الوقت كنت أكتب بأقلام مستعارة: أحلام شريف ومنى جعفر وهالة أحمد!!

أما الحديث الذى أجراه ألبرتو مورافيا مع صوفيا لورين فكان تقريبا هكذا:

هو: وشفتاك هل هما لأبيك أو لأمك؟

هى: لأمى.

هو: وأنفك؟

هى: لأبى.

هو: وعيناك؟

هى: اليسرى لأمى واليمنى لأبى.. ولذلك فهما غير متساويتين فى الاستدارة.

هو: دعينى أنا أحدثك عن الباقى.. أما وجهك فجميل.. ولكن، لو أخذنا كلا من ملامحه على حدة لم يكن جميلا.. ففمك واسع.. وأنفك دقيق. وعيناك منحرفتان كأن أمك إغريقية وكأن أباك يابانى.. وعنقك طويل أسطوانى رقيق، إسبانى.. وصدرك إيطالى.. وساقك فرنسية.. أما هذه الرعشة فى شفتك السفلى فتدل على عصبية فى تكوينك.. وهى تدل على قرفك إذا تذكرت ما كان بين أبيك وأمك.. فالرجل كان يبتز مالها، وهى تبتز جسده.. وأنت كأمك تمشين على مرحلتين.. نصفك العلوى يسبقك ويجرجر وراءه نصفك السفلى.. كأنك تقدمين نهديك، وتؤخرين ردفا.. ولا شيء يدل على التردد والجرأه، والخجل والإصرار، أكثر من ذلك.. وكل ملامحك ليست جميلة إذا نظرنا إليها واحدة واحدة.. ولكنها معا: رائعة.. وهذا يؤكد أن الجمال مجموعة أشياء مختلفة ولكنها فى النهاية مؤتلفة.. فالجمال ليس نغمة ولكنه لحن.. الجمال ليس خطا ولكنه خط وظلال.. ماذا قلت لى عن أنفك؟

هى : إنه لأمى!

هو : بل قلت إنه لأبيك . . وهذا يدل على أنه لا يعجبك . . فأنت حائرة فى نسبته لأحد . . مع أن أنفك شامخ وهو مختلف عن أنف أمك وأنف أبيك . . وكأنك لا تصدقين ذلك عندما وضعت يدك سعيدة على أنفك الآن . .

دعينى ألمسها . . دعينى . .

هى : ماذا؟

هو : ألمسها . .

هى : شفتى . . عينى . . صدرى؟

هو : لا . .

هى : لم يبق شىء!

هو : بل بقيت أذنك التى أخفيتها تحت شعرك . . لأنك تشعرين بأنها كبيرة قليلا . . وأنها إلى الوراء كثيرا . .

هى : هل تعرف أنك ضايقتنى جدا؟

هو : أعرف لأننى أتحدث عن أخص خصوصياتك . . عن الأشياء التى هى شخصية جدا . . والتى تختلفين بها عن كل خلق الله!

من أول نظرة (*)

من القصص الغريبة فى «ألف ليلة وليلة» قصة القصر الذى وضع عليه عدد كبير من الأقفال .

يقال : كانت فى الأندلس مدينة اسمها لبطة ، وفى المدينة قصر ، وعلى القصر حراس ، وعلى باب القصر قفل . والناس حريصون على أن يظل هذا القصر مقفلا ، وكلما جاء ملك استجاب لرغبة الناس فوضع قفلا على القصر ، وتوالى الملوك وتعددت الأقفال حتى صارت أربعة وعشرين قفلا . ثم جاء ملك أجنبى وحكم هذه المدينة ، ولأنه أجنبى لم يكن حريصا على أن يظل القصر مقفلا ، وحذره الناس وأخافوه ولكنه أصر ، وحطم هذه الأقفال ، ودخل القصر وهناك وجد صورا للفرسان العرب وخيولهم وأسلحتهم معلقة على الجدران ، وكتابا يقول :

«إن الذى يفتح هذا الباب سيقتله الغزاة العرب» .

وجاء طارق بن زياد ، وحكم البلاد واستولى على المدينة وعلى القصر ، ووجد أحجارا كريمة وعشرات التيجان ، ووجد منضدة الملك سليمان ، ووجد خرائط الكرة الأرضية وكتابا فى تحويل المعادن إلى ذهب . . ووجد مرآة من ينظر فيها يرى الدنيا كلها .

أما هذا الملك الذى فتح القصر وعرف مستقبل هذه البلاد فقد قتله القائد العربى طارق بن زياد . .

(*) مقدمة كتابى : « من أول نظرة » .

انتهت القصة وأدرك شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح . .

والغريب فى هذه القصة أن هناك قصرا ساحرا أو مسحورا ، الناس يريدون أن يعرفوا ما به ولكنهم يخافون ، فلما جاء واحد وأراد أن يعرف ما به وعرف ـ كان جزاؤه القتل . . كان جزاؤه ما لقيه آدم وحواء عندما أكلا من «شجرة المعرفة» المحرمة فهبطا من السماء إلى الأرض . .

ومن العجيب أيضا أن هذا الملك الذى تنبأ بمجىء العرب ، قتله العرب! لماذا قتلوه مع أنه لم يكن سببا فى تعطيل دخولهم أو مقاومتهم . .

وهذا هو الظلم الوحيد فى القصة : إن الرجل الذى عرف وتنبأ عوقب مع أنه لم يرتكب جريمة . .

فهذا القصر المسحور يلتف حوله الناس ، ويطلقون خيالهم يفعل ما يشاء . . وكان من الممكن أن يفتحوا القصر ويعرفوا الحقيقة ، ولكن يبدو أن الناس يفضلون الخيال الذى يعذبهم ، على الواقع الذى يريحهم!

إن هذا القصر المسحور كالحب . . كقلب المرأة!

الناس يقتربون منه ويستريحون إلى أنه لغز . . فإذا حاول إنسان أن يقترب منه عاقبوه على ذلك . .

فالرجل الذى يريد أن يعرف المرأة يتعذب . . كأن العذاب هو ثمن حب المعرفة . . أو حب الاستطلاع . . .

ولكن الذى يفتح أقفال هذا اللغز أو هذا القلب الإنسانى يجد الكثير من الكنوز . . ويجد خريطة العلاقات الإنسانية . . ويجد قواعد للعلاقات الإنسانية . . ويجد المرآة التى إذا نظر فيها عرف نفسه . . وعرف غيره . . والمرآة الموجودة فى قلوب المحبين من نوع خاص . . إنها مرآة تجعل الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا .

ومن الغريب أن شهرزاد يدركها الصباح وتنام بعد كل قصة . . ولكن قصة المرأة أو قلب الرجل يجب ألا تنام بعدها شهرزاد . . إنها قصة أيقظت الإنسانية وهدت حيلها . . فلا استراح الذى عرفها ، ولا استراح الذى وقف عند بابها .

والذين فى داخل القلب يريدون أن يخرجوا ، والذين فى خارجه يريدون أن يدخلوا . .

ولو كان القلب الإنسانى مثل هذا القصر، ينفتح ولا يقاوم، لهان أمر القلب . . ولكن القلب الإنسانى يقاوم ويدوخ . . ولا يسهل فتحه . . ليست أقفاله أربعة وعشرين . . بل أربعة وعشرين مليونا، كلما انفتح قفل ظهر آخر . . إنها ملايين الأشياء التى بين الناس . . وهى ملايين الألغاز والصعوبات . . النفسية والجسمية . . والاجتماعية . . وكل العلم والفن والتاريخ والأدب محاولات لفتح هذه الأقفال ودخول هذا القلب الإنسانى دون أن تسيل قطرة دم . . ولكن كيف تخوض فى الدم ولا تتلوث؟ كيف تخوض فى الوحل ولا تتسخ؟ . . كيف تكون هناك علاقة إنسانية ولا تكون حيوانية فى الوقت نفسه ؟ . .

إن الكاتب الألمانى هوفمان له قصة خرافية تقول: إن أحد الرهبان اكتشف مادة سحرية إذا شربها الإنسان صار شريرا . . وإذا شربها إنسان آخر أصبحت أفكارهما متشابهة، وفى الوقت نفسه أصبحا عدوين . . يحاول كل منهما أن يتخلص من الآخر، ولكى يتخلص منه لابد أن يقترب منه . . وأن يلتصق به . . تماما كالذى يريد أن يخنق إنسانا بيديه، لابد أن يقترب منه . . وأن يلف يديه حوله . . وأن يميته . . أى لابد أن يكون قريبا جدا . . ليكون بعيدا جدا بعد ذلك . .

أليس هذا من أوجاع الحب؟ . .

وأعود مرة أخرى إلى «ألف ليلة وليلة» ففيها قصة عن الرجل العادل معن بن زائدة فقد أهدى ثلاث غانيات ثلاثة سهام ذهبية . . وقررت الغانيات الثلاث أن يقلن فى هذه السهام الذهبية شعرا . . فقالت واحدة:

يركب فى السهام فصول تبر ... ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح ... وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية:

ومحارب من فرط جود بنانه ... عمت مكارمه الأحبة والعدا
صيغت فصول سهامه من عسجد ... كيلا تعوقه الحروب عن الندا

وقالت الثالثة:

ومن جوده يرمى العداة بأسهم ... من الذهب الإبريز صيغت فصولها
لينفقها المجروح عند دوائه ... ويشترى الأكفان منها قتيلها

والمعنى الذى أعجبت به الفتيات الثلاث هو أن معن بن زائدة رجل كريم ، وهو بالفعل قد اشتهر بالكرم . . وقد بلغ من كرمه أن أعطى سلاحه الذهبى للغانيات . . وأصبح أمامهن أعزل من السلاح . .

والحب كهذه السهام الذهبية . .

والسهام مهما كانت مادتها فهى موجعة . . سواء كانت من فضة أو من ذهب أو من نحاس . . فهى توجع . . ولكن هذه السهام الغرامية تشبه الحقن الطائرة . . التى يطلقها الصيادون فى الغابة على الوحوش . . فهم بدلا من أن يطلقوا الرصاص أو السهام على الوحوش فتموت ، فإنهم يطلقون عليها حقنا من البنج . . لا تكاد الحقنة تصطدم بالحيوان حتى توجعه . . ثم بعد ذلك يفقد الإحساس بها وبأى شىء آخر . . وهنا يقبض عليه الصياد ، وبعد أن يكون قد دخل القفص يسترد وعيه من جديد . .

فالحب هو هذه السهام الذهبية . . فكل إنسان موجوع من الحب . . ولكنه فى الوقت نفسه يريده . . وينسى به كل شىء . . والحب نفسه أغلى من الذهب . .

فالحب هو النشوة الذهبية على شكل سهم ينطلق من قلب إلى قلب . . أو من جسم إلى جسم . .

وليس نوعا من الكرم أن يكون الحب من ذهب . . ولكن الكرامة هى التى تجعل الفريسة تطالب بأن تقع ضحية لأغلى أنواع السهام . .

فالمرأة تفضل أن تموت بسهم من ذهب ، على أن تموت بسهم من فضة . .

إنها تفضل أن يكون السلاح غاليا ، الأسلوب غاليا ، الثمن باهظا . .

إن هذا هو الذى يرضى كبرياءها وينفخ غرورها . . فإذا ماتت فى الحب . . ماتت بأغلى سهم . . بأغلى ثمن . .

* * *

ولكن ما هو الحب؟ . .

من الذى يجيب عن هذا السؤال ؟ . .

ومن الذى يقول لنا ما صناعة الحب . . ما هو أسلوب الحب مع من نحب؟ . .

هناك ملايين الإجابات من ملايين الناس العارفين والذين لا يعرفون . . وسوف تكون هناك ما لا نهاية له من الإجابات عن هذا السؤال . . وسوف يقرأ الناس ويفكرون ويتساءلون أيضا : إن كان الذى قرءوه عن الحب والمحبين معقولا أو واقعيا أو نافعا !

هناك اثنان من أساتذة الحب . .

لا أقول إنهما «الاثنان» الوحيدان، وإنما هما اثنان أعجبت بهما واسترحت إليهما : الشاعر اللاتينى أوفيد والعالم النفسى الكبير إيريش فروم . .

أحدهما أستاذ قديم جدا . . ربما كان أقدم أستاذ للحب . . لفن الحب . . وأسلوب المحب . . والاستيلاء على المحبوب . . وكيف يمكن التعامل معه، قبل ذلك وبعد ذلك .

هذا الأستاذ الكبير هو الشاعر اللاتينى القديم أوفيد، ولد قبل الميلاد بثلاثة وأربعين عاما، ومات بعد الميلاد بثمانية عشر عاما . . أحب عشرات المرات وعاكس ألوف المرات . . وتزوج ثلاث مرات . . وكان يتمنى لو طال عمره ليتزوج مئات المرات . .

وقد سجل الشاعر أوفيد كل فلسفته فى الحب فى كتابه المشهور «فن الحب» . . ولا يمكنك أن تقلب فى صفحاته دون أن تضحك ودون أن تختلف معه أيضا !

وأوفيد لا يضيع وقته ولا وقت القارئ . . إنه يهجم على القارئ . . ويمسكه من ذراعه . . ويشده . . ويفتح عينيه ويقول له : امش ورائى . . وأنا أقودك إلى شاطئ الأمان . . فالحب بحر . . وأنا ملاحه البارع . .

ويقول أوفيد : إننى أعلم أن الذئاب والصقور ليست لها شعبية . . ولكنى ذئب معجب بالصقور . .

والحب فن . . كما أن الملاحة وقيادة السفن فن، وفلاحة الأرض فن . . فإذا رأيت فتاة أعجبتك . . يجب أن تصارح نفسك بسرعة : هذه الفتاة يجب أن تكون لى . . تحت سيطرتى . . يجب أن أرتبط بها . وهذا هو سر النجاح فى الحب .

وسوف تجد صعوبة فى العثور على فتاة تعجبك . . ولكن هذه الصعوبة مؤقتة . صحيح أن السماء لا تمطر الشقراوات والسمراوات . . ولكن يجب أن تبحث . . يجب أن تهرش رأسك وأن تفتح دماغك وتفكر . . أين تكـون الفتيات؟ . . هذا هو السؤال؟ . .

إنهن فى الحفلات، وفى أيام الأعياد والمباريات وفى المسارح . . هذه هى السوق وأنت المشترى، وهذا هو البحر وأنت الصياد . .

وكأى صياد يجب أن تجهز شباكك، وكل نوع من السمك له شبكة وله طريقة، وله مكان وله موسم. وكل صياد له أسلوب، ولكن الصيادين جميعا يتفقون فى شىء واحد: الانتظار والصبر والسرعة . .

والصياد يجب أن يتأكد من شباكه، ويجب أن يعرف طبيعة الفريسة، والصياد البارع هو الذى يعرف أين ومتى وكيف . . وهو الذى ينجح فى الحب . .

وفى الأعياد والمواسم والحفلات تختلط كل أنواع الأسماك من كل الأحجام والألوان. كن قريبا من الفريسة، لا ترفع عينيك عنها، لاحظ ما الذى يهمها، اقترب منها أكثر، حاول أن تلمسها وليكن اعتذارك رقيقا، هذا الاعتذار يجب أن تكون قد فكرت فيه، واجعل اعتذارك خليطا من المعاكسة ومنتهى الأدب، هذا فن. ويجب أن تكون عينك مثل النحلة تنتقل من شعرها إلى ذيل فستانها. وعندما تنشغل الفريسة بالنظر إلى الآخرين، لا تنشغل بغيرها، إذا اهتمت بالخيول أو الممثلين، راقبها.

ويجب أن تقول لنفسك طوال الوقت: أيتها الجميلة سوف تكونين لى، كما كانت أمك فى فراش أبيك. هذا مؤكد.

وإذا لاحظت أن هذه الجميلة تنظر إلى أحد الخيول فى السباق، اسأل عن اسم الحصان، وعن صاحبه، وليكن ذلك بصوت مرتفع يلفتها إليك، لا تنظر إليها إذا نظرت إليك. امش ورائى وأنت تصل إلى ما تريد.

وإذا خرجت تابعها، سوف تتعثر فى مشيتها، هذا ضرورى، وإذا لم يكن فى الأرض طوبة واحدة، فإن المرأة تسقط هذه الطوبة من حقيبتها لكى تتعثر، وتمتد

إليها الأيدى والعيون. يجب أن تكون يدك أطول الأيدى، أما عيناك فهما منذ البداية قد التصقتا بكل جسمها . . فإذا تعثرت امتدت يدك وساندتها . . مع الاعتذار لها كأنك أنت الطوبة، أو كأنك الذى وضعت الطوبة . . وبسرعة ارفع ثوبها عن الأرض حتى لا تتعثر مرة أخرى . . أنت الآن إنسان سعيد لقد رأيت جانبا من ساقيها . . وهذا يتوقف على سرعتك فى النظر وفى رفع الثوب . .

وبسرعة جدا ادخل فى حديث، اخترع أى كلام. عليك أن تدعى العلم والمعرفة، فالعلم نفسه لا يهم المرأة، المرأة تفضل الذين يدعون العلم، ويتكلمون كالعلماء؛ لأن العلماء أنفسهم لا يحسنون الكلام. والمرأة تفضل الممثلين على الذين ألفوا الكلام للممثلين . . تفضل المطربين على الذين ألفوا لهم الأغانى . .

وإذا أحسست بشىء من الاضطراب ضع فى رأسك هذه الفكرة بسرعة جدا: لا توجد امرأة لا يمكن الاستيلاء عليها، وأنك تستطيع ذلك . . وأنه أسهل للإنسان أن يعتقد أن الطيور لا تغرد فى الربيع . . والفراشات لا تحوم فى الصيف، والأرانب تطارد الثعالب من أن يتصور لحظة واحدة أن قلب المرأة لا يهتز أمام إنسان يعاكسها بألفاظ جميلة . .

قد تتصور أنها لا تريدك . . أنت مغفل . . ففى أعماق كل امرأة أنها تريد أن تستسلم، فالمرأة ممثلة بطبيعتها، وإذا لم نتقدم نحن منها، فسوف تلقى نفسها علينا . . تحت أقدامنا بعد ذلك . .

وإذا كنت تعرف خادمتها . . صادقها . .

وإذا كنت تعرف صديقتها صادقها . .

وإذا كانت مرتبطة بأحد غيرك، ابعد عنها . . فالطائر المربوط من أحد جناحيه، لا يحلق بعيدا . .

وفن الصيد مثل فن فلاحة الأرض . . والفلاح البارع هو الذى يعرف أن هناك وقتا لحرث الأرض . . ووقتا لوضع البذرة . . ووقتا للحصاد . . وهو القادر على أن يراعى هذه القواعد.

ولا تنس . . لا تنس أبدا: الوعود . . الوعود . . وعشرات الألوف من الوعود . . وآه لو كانت عندى عشرات الألسنة . . عشرات الألوف من الألسنة

لجعلتها كلها فى خدمة الفتاة التى اخترتها هدفا لحبى . . يجب أن يكون الإنسان مليونيرا فى وعوده، إنك لن تخسر شيئا، قل ما تشاء ولكن يجب أن تصدق أنت ما تقوله، فالأمل عند المرأة هو أعظم إله . . والأمل إله كذاب . . وكلنا آلهة لأننا جميعا كاذبون!

ولا تيأس . . سوف يلين لك كل شىء . . الحديد نفسه يتآكل . . الأرض نفسها تنشق تحت المحراث . . الماء يفتت الصخر . . إن طروادة نفسها قد استسلمت فى النهاية . .

وكل امرأة مهما كانت ليست إلا طروادة، وقلاعها مهما كانت منيعة سوف تستسلم آخر الأمر.

حاول دائما أن تكون قريبا منها . . كلمها أو اكتب لها، وإذا طلبت ألا تكتب لها لا تصدقها إنها سوف تبكى إذا توقفت عن الكتابة، وإذا كتبت فلا تكتب كما لو كنت تخطب فى الجماهير . . كن رقيقا . . كن ناعما . . كن هادئا كالصياد. وفى الوقت المناسب كن صقرا . . كن ذئبا . . لا تضيع الفرصة المتاحة لك . . ولا تهتم بمظهرك . . كن بسيطا فقط . . كم من قلوب سقطت ببساطة، وبسبب البساطة.

إن البطل بتسوس قد استولى على قلب إريان لأنه لم يهتم بشعر رأسه اهتماما زائدا . . فقد كان شعره منكوشا، ولكنه كان نظيفا معطرا . .

واجعل أظافرك نظيفة وضع عطرا فى فمك . . ولا ترتد حذاء كبيرا . . أكبر من قدميك . . فالمرأة تنظر إلى حذائك قبل أن تنظر إلى وجهك . . ولا تندهش ولا تناقش هذا الموضوع الآن، سوف يكون عندك فيما بعد وقت تناقش فيه وجه الشبه بين جزمتك ووجهك وعقل المرأة . .

واعلم: أن المرأة تحب أن تكون ضحية . . ولذلك يجب أن تغدر بها؛ فهى غادرة بطبعها، وأنت وهى فى سباق مع الغدر . . من الذى يغدر أولا . . كن أنت الغادر الأول قبل أن تكون الضحية . .

إن مصر الفرعونية قد عاشت تسع سنوات تقاسى من القحط . . فذهب تراسيوس يقول لأحد ملوك مصر: إن حال مصر لن ينصلح إلا إذا ذبحتم رجلا أجنبيا . .

فقال له الملك: فعلا . . إذن لتكن أنت أول ضحية من أجل مصر !!

وذبحوه . .

فلا تكن أنت الضحية . .

وأنا أعلم أنه ليس من السهل على الرجل أن يبكى.

فالمرأة أستاذة البكاء . . ولكن دموع الرجل أقوى أثرا فى نفس المرأة . . هنا فقط تستطيع أن تستدير وتضع أصبعك فى عينك . . إنها دمعة واحدة أو دمعتان . . وبعدها تنهار المرأة . .

وإذا كنت تتحدث إلى المرأة، فلا تضع لمستقبلكما مشاريع خرافية . . لا تكن مثل الفتى إيكاروس الذى أراد أن يطير؛ فوضع لذراعيه ريشا طويلا، وألصق هذا الريش بالشمع . . وحذره أبوه ألا يقترب من الشمس فى طيرانه؛ حتى لا يذوب الشمع فى حرارتها . . وحذره ألا يقترب من البحر؛ حتى لا يذوب الشمع فى بخار الماء . . ولكن إيكاروس طار فوق البحار وقريبا من الشمس . . فتساقط ريشه . . وسقط . .

ولا تنس أن المرأة متقلبة . .

ولذلك يجب مراعاة أساليب الاستيلاء على قلبها . . فكل أرض تصلح لنوع معين من الأشجار . . وكل سمكة لها ماء حلو أو ماء مالح . . وصيد الصغيرة يختلف عن صيد الكبيرة . . كل فريسة لها أسلوب تقع به . .

وليس جسم المرأة فقط هو الذى يجب أن تغزوه وإنما عقلها أيضا . .

والبطل عوليس لم يكن جميلا، كان فصيحا . .

كانت كاليبسو تطلب إليه أن يروى لها القصة الواحدة ألف مرة . . لتسمعه . . وكان يروى القصة الواحدة كل مرة بأسلوب مختلف . . وفى إحدى المرات أمسك عودا من الحطب وراح يرسم على رمل الشاطئ كيف سيستولى على حصون طروادة . . فجاءت موجة ومسحت الرسم . .

فقالت له كاليبسو: إن البحر سوف يقضى على الجميع . . فاحترس!

وكان لابد أن يقول لها عوليس : ولكنك الشاطئ الذى يحمى الجميع من البحر!

وشعرت كاليبسو بأن قلبها يذوب من أجله لأن المرأة تحب المديح . . ولا تشبع من الكلام الحلو . . لا هى تشبع من كلام حلو يقوله الرجل ولا تشبع من كل شىء تقوله ضد الرجل!

والكلام هو «الطعم» الذى يجب ألا يختفى من سنارتك .

والصقور والذئاب ليست لها شعبية ، ولكن الحمامة الوديعة هى التى تفوز بقلب الجميع . . لأنها رقيقة ومسالمة ، وفى الوقت نفسه ضحية للصقور . .

والمرأة تحب أن تلعب دور الحمامة . . وليلعب الرجل دور الصقر ، وتستسلم له فى النهاية ، فتفوز وتثير شفقته فى الوقت نفسه .

وتقوم بدور الضحية مع أنها هى الصقر الذى له ريش الحمامة!

والأغنياء ليسوا فى حاجة إلى نصائح . . فهداياهم فصيحة وبليغة ومقنعة! . .

ويقول الشاعر أوفيد : إننى شاعر الفقراء . .

وإذا تمكنت من قلب الفتاة ، اختف عن أنظارها بعض الوقت . . ستثيرها ، ستقلق عليك ، ستفكر فيك ، ستعرف قيمتك . .

ولا تنس أن الفلاح الناجح هو الذى يريح التربة بعض الوقت ، والتربة إذا استراحت بعض الوقت كانت خصوبتها أقوى . . وغلتها أعظم . .

وكذلك قلب المرأة يجب أن تبتعد عنه بعض الوقت . . سوف يكون استعدادها للعطاء أكثر ، وللاستسلام أعمق . .

فعندما ابتعد البطل عوليس عن زوجته بنيلوبه عشرين عاما انشغلت عنه كل هذه السنوات الطويلة . . ولكن عندما جاء كانت عند قدميه . .

وإذا قاومتك المرأة وضاقت بك ثم نظرت إلى نفسها فى المرآة ووجدت أن ملامحها ليست جميلة . . ثم إذا ضحكت وتظاهرت بالفرحة بلقائك ورأت ملامحها جميلة فى المرآة فإنها سوف تستسلم لك . .

إن الفتاة الإغريقية «بالامس» عندما راحت تنفخ فى الناى، ونظرت إلى وجهها فى المرآة، وجدت أن النفخ يفسد ملامح وجهها فحطمت الناى، وعدلت نهائيا عن هذا النوع من الموسيقى . . خوفا على جمال وجهها!

وكذلك كل امرأة .

والشاعر أوفيد لا يفوته أن يعلمك كيف تتخلص من المرأة . . فهو يقول لك :

ولا تنس أن المرأة لا تطيق أن ينشغل عنها الرجل، ولا تطيق أن يهملها . .

إذا أردت أن تهرب من المرأة انشغل عنها . والحب لا يحب العمل . . لا شىء يقتل الحب إلا العمل . . فالعمل يأخذك من قلبك ويأخذك بعيدا عن قلب المرأة، ولا تصدق أن المرأة تحب أن ينشغل عنها الرجل ولو كان ذلك بالله أو بالعلم .

إن المرأة تغار من الكتاب الذى يقرؤه الرجل، ومن القلم الذى يمسكه .

إن المرأة تريد الرجل الذى يتفرغ لها . . ولذلك ينجح العاطلون فى الحب، ولا ينجح العلماء والعباقرة . .

فوراء كل عظيم امرأة تعيش فى ظل عظمته . . ولكنها تتمنى فى الوقت نفسه ألا يكون عظيما ليتفرغ لها . .

إن العظمة تهم الرجل ولا تهمها .

إن المجد يهم المرأة ولكنه ليس أملها .

إن أورفيوس ذلك النافخ فى الناى، والذى سحر الأسماك فخرجت من البحر تزحف وراءه على الشاطئ، وتركت الطيور أوكارها لتستمع إلى موسيقاه . . هذا الساحر قد شغل الكائنات كلها عن حياتها وعن صغارها . . أحبته النساء، وعندما انشغل عنهن، قتلنه!

هذه نصائح شاعر الفقراء الذين لا يملكون إلا عقولهم وحيلهم من أجل الاستيلاء على المرأة . . فهم أصحاب هدف واحد هو الاستيلاء على المرأة بالحيلة والخديعة من أجل الحب . . أو من أجل الجنس . .

والشاعر أوفيد: صياد حب ولكنه ليس محبا. إنه لا يناقش معنى الحب، لا يهمه، ليس عنده وقت. إنه جائع يريد أن يأكل، وعطشان يريد أن يرتوى.. ولأنه يشكو من الوحدة فهو يريد ألا ينسى أنه رجل يبحث عن امرأة!

إنه صقر، ذئب، صياد، بحار، فلاح، طيب، ووحش أيضا.

والمرأة: لعبته وفريسته!

* * *

أما الأستاذ الثانى فى الحب، فهو عالم النفس المعاصر الكبير إيريش فروم.. وهو ليس صقرا ولا ذئبا. وإنما هو مفكر يسأل: ما معنى أن يكون الإنسان صقرا أو ذئبا؟ ولماذا؟.. ثم كيف نجح؟.. ولماذا؟.. ما هذا الذى يحس به؟.. ولماذا؟.. وما معنى هذه الخطوات المختلفة فى الحب؟ وما هذا الذى يشتعل فى قلب الإنسان.. أو فى قلبين فى وقت واحد؟..

والعالم إيريش فروم له أيضا كتاب جميل بعنوان كتاب الشاعر أوفيد نفسه.. فعنوانه «فن الحب».. ويستهل كتابه بهذه العبارة لكاتب قديم اسمه بارسياوس:

«من لا يعرف، لا يحب شيئا..

ومن لا يتسطيع أن يفعل شيئا، لا يفهم شيئا..

ومن لا يفهم شيئا لا يساوى شيئا..

ولكن الذى يفهم يحب، يلاحظ، يرى..

وكلما كان الشىء مليئا بالمعانى، كان الحب أقوى..

والذى يتخيل أن كل الثمار تنضج فى وقت واحد، لا يعرف شيئا عن الفاكهة..

فهل الحب علم؟.. هل هو فن؟»

الناس محاصرون بالحب والكلام عن الحب: الأفلام والقصص والكتب والأغانى. كل شىء حب فى حب، ولكن أحدا لا يدرى أن فى استطاعته أن يتعلم الحب، أو كيف يحب!!

فكل الناس الذين يتحدثون عن الحب، يقصدون كيف يكون الإنسان محبوبا لا محبا، معشوقا لا عاشقا . .

والمشكلة - إذن - هى كيف يكون الإنسان محبوبا؟

الرجال يريدون ذلك بأن يكون الواحد منهم ناجحا قويا غنيا .

والنساء بأن تكون الواحدة منهن جميلة أنيقة رشيقة . .

والرجل الجذاب : هو المهذب القادر على الحديث الرقيق والمسالم أيضا . .

وأسباب النجاح فى الحياة، هى نفسها أسباب النجاح فى الحب . . فالنجاح هو الذى يكسب الأصدقاء ويكون له أثر فى الناس . . والإنسان المحبوب هو الناجح عند الجنس الآخر، أى الذى تكون له جاذبية جنسية . .

وهناك أناس يرون أن الحب شىء . . سلعة . . وأن المرأة شىء، وأن الإنسان ليس فى حاجة إلى علم لكى «يحصل» على المرأة . . أو «يوفر» لنفسه الحب . . فالحب ممارسة؛ لذلك من السهل على أى إنسان أن يحب، ومن الصعب عليه أن يحب الشخص الذى يستحق الحب . .

وفى القرن العشرين استولت «عقلية السوق» والبيع والشراء على حياة الناس وتفكيرهم، ولذلك كان الحب سلعة، وكانت المرأة أيضا . . وكانت العلاقات الإنسانية نوعا من المصالح المشتركة، والصفقات، والحياة الاجتماعية هى سوق العلاقات الإنسانية . وكل شىء بيع وشراء، ومكسب وفرصة . ولذلك فمعنى كلمة «الجاذبية» يتوقف على العصر الذى يعيش فيه، ويتوقف على موضة العصر!

وفى عشرينيات هذا القرن، كانت الفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى تشرب وتدخن، هى الفتاة المسترجلة . . أما الفتاة الغربية النموذجية : فهى الرقيقة الأنثى . .

وفى القرن التاسع عشر كان من الضرورى أن يبدو الرجل عنيفا طموحا .

أما الآن فمن الأفضل أن يكون اجتماعيا صبورا، ليكون جذابا للمرأة . . ومن الممكن أن يقع اثنان فى الحب فى وقت واحد، إذا وجد كل منهما أن الآخر هو «الصنف» الذى يناسبه . .

إنه «منطق السوق» الذى يستولى على الناس . . وما دام النجاح المادى هو الغاية الحقيقية فليس غريبا أن يكون نوعا من البيع والشراء والمساومة والكسب .

والحب فن ، ويمكن أن نتعلمه ، والحب مثل الموسيقى والرسم والتجارة والخياطة والطب والهندسة . . ويمكن أن ندرسه وأن نتفوق فيه إذا عرفنا قواعده وأصوله .

فهناك خطوات ضرورية لكى نتعلم الحب أو أى فن آخر . .

أولا : يجب أن نعرف الأسس النظرية . .

ثانيا : يجب أن نفهم تطبيق هذه الأسس .

فالطبيب مثلا يجب أن يعرف وظائف الجسم الإنسانى ويعرف الأمراض المختلفة . . والذى يعرف كل هذه العلاقات أو هذه الوظائف الإنسانية ، ويعرف كل الأمراض وأعراضها ، لا يكون طبيبا ، لأنه لابد من التجربة . . لابد من الممارسة حتى تلتقى المعلومات النظرية ، والتجارب العملية . .

وهناك عنصر ثالث لكى ينجح الإنسان فى أى فن ، هو الإصرار على التفوق فى هذا الفن . أى يجب أن يكون شاغله الوحيد هو كيف أتفوق فى هذا الفن ، ولا يكون فى حياتى كلها شىء أهم من ذلك . .

ولكن ما الذى يجعل الناس ينشغلون عن الحب ، رغم حرصهم عليه ونجاحهم أو فشلهم فيه؟

السبب هو أنهم ينشغلون بأشياء أخرى أهم من الحب : مثل النجاح والمركز والمال والسلطة .

ولابد أن تعرف أن أية نظرية فى الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان وعن الوجود الإنسانى .

والإنسان قد وجد وهو لا يعرف كيف حدث ذلك ، وليس متأكدا من كل شىء . وإنما ماضيه فقط هو المؤكد ، وفى مستقبله لا شىء مؤكد إلا الموت . . وبين الميلاد والموت لا يعرف الإنسان شيئا .

وسوف يموت الإنسان قبل أو بعد الذين يحبهم .

والإنسان يشعر بالوحدة فى هذه الحياة . . والوحدة ترميه على القلق أو ترميه بالقلق ويشعر بأنه منعزل . . منقطع أو مقطوع عاجز . . فالعالم كله قادر ، وهو وحده عاجز ، وهذا يؤدى إلى شعوره بالذنب والعار أيضا ، فآدم وحواء بعد أن أكلا من شجرة المعرفة وبعد العصيان ـ بعد أن تمردا على الطبيعة الحيوانية جعلهما العصيان بشرا ـ شعرا بأنهما عاريان ، وخجلا من ذلك!

والإنسان يريد أن يخرج من عزلته . . فالطفل تختفى عزلته عن طريق أمه ، ولذلك فالإنسان لابد أن يكون على صلة بأحد ، على علاقة بأحد ، وأن يحرص على بقاء هذه العلاقة ، وهذه العلاقة هى أن يأخذ وأن يعطى بالدرجة نفسها ، بل إن الحب عطاء أكثر أو سعادة بالعطاء . .

ومن أصدق العبارات وأغربها أيضا عبارة للفيلسوف الكبير كارل ماركس يقول : «خذ الإنسان إنسانًا ، وعَلاَقَتَه بالعالم علاقةً إنسانية ، والحبَّ بالحب ، والثقة بالثقة . إذا أردت أن تستمتع بالفن يجب أن تكون شخصا مدربا على التذوق ، وإذا أردت أن تؤثر فى الناس يجب أن تتأثر بهم أيضا . . فالحب هو أن تعطى وأن تأخذ . . ويجب أن تعلم أن المدرس يتعلم من تلاميذه ، والممثل يتعلم من جمهوره ، والطبيب يتعلم من مرضاه» .

والعاشق يتعلم من معشوقته ، وهى منه أيضا ، فالحب علاقة تمتد فيها الأيدى لتأخذ ولتعطى فى الوقت نفسه . . تماما كما تتلاقى الشفاه ، فأنت عندما تقبل لا تعرف إن كنت أنت الذى يقبل أو أنت الذى تقبلك فتاة . . فأنت تعطى وتأخذ فى اللحظة نفسها . .

ولكن ما عناصر هذه الكلمة التى تكررت عشرات المرات؟ ما عناصر الحب . . هذا الساحر العجيب؟ . .

عناصر الحب هى : الاهتمام . . والمسئولية . . والاحترام . . والمعرفة .

واهتمام الأم بطفلها هذا هو الحب الحقيقى ؛ فهى تهتم بصحته وطعامه ، وهى مشغولة عليه ليلا ونهارا . . ولكن إذا قالت لنا سيدة إنها تحب الزهور جدا ، ثم

نسيت أن ترويها فى أحد الأيام، فإننا لا نصدق أنها تحب الزهور، فالذى يحب هو المهتم والمهموم بمن يحب . .

وفى سفر «يونس» فى الكتاب المقدس نجد أن الله طلب إليه أن يذهب إلى أهل نينوى، وأن يدعوهم إلى فعل الخير، وأن ينذرهم وأن يحذرهم من غضب الله، ولكن يونس رفض أن يذهب، فقد خشى إذا طلب الناس من الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم، أن يستجيب الله لدعائهم - فهو بذلك رجل يؤمن بالقانون، ويؤمن بأن الذى أخطأ يجب أن يلقى جزاءه، ولكنه لا يحب هؤلاء الناس، لذلك وجد نفسه فى بطن الحوت، أى فى عزلة مخيفة بسبب فقدانه الحب لأحد من الناس. وأنقذه الله، ولكن حدث بعد ذلك ما كان يخشاه. وأنبت له الله شجرة، وذبلت الشجرة، فحزن عليها، فقال له الله: كيف تحزن على شجرة لم تغرسها، ولا تحزن على ألوف الناس فى مدينة نينوى؟!

والعنصر الثانى هو المسئولية . .

والمسئولية معناها إذا سألنا أحد أجبناه، إذا طلب منا أعطيناه فورا.

والنبى يونس ليس مسئولا عن أهل نينوى . . إذا طلبوا إليه فلن يستجيب . . ويونس مثل قابيل الذى قتل أخاه . . ولما سأله الله: ماذا فعلت بأخيك؟ قال: وهل أنا مسئول عن أخى؟

والأم مسئولة «جسميا عن طفلها».

والمحب «مسئول» نفسيا «عن محبوبته».

والمسئولية من الممكن أن ينحط معناها فتصبح نوعا من السيطرة، ولذلك كان من الضرورى أن تتضمن المسئولية عنصرا آخر هو: الاحترام، والاحترام ليس معناه الخوف والفزع، وإنما الاحترام معناه أن ننظر إلى الإنسان كما هو عليه وأن نحترم فرديته. والاحترام معناه أيضا: أن ننظر إلى الإنسان الآخر على أن له حرمة، وبذلك نحترم استقلاله، فإذا أنا أحببته كنت معه شخصا واحدا، وفى الوقت نفسه أحترمه كما هو . .

والحب - كما يقول المثل الفرنسى - هو ابن الحرية، وليس ابن السيطرة والاستغلال . .

وأنت لا تحترم شخصا لا تعرفه . .

فالاحترام أعمى والمسئولية عمياء إذا لم تكن تعرف هذا الشخص، والمعرفة فارغة إذا لم يكن هناك اهتمام . .

والذى أحبه يجب أن أعرفه، وأعرف كل ما يدور فى نفسه دون أن يصرح لى بذلك؛ لأننى قريب منه . . لأننى أهتم به، لأننى مسئول عنه، لأننى أحترم همومه، وفى الوقت نفسه أرى من واجبى - واجب على وجدانى - أن أشاركه، أن أخفف عنه، أن أسعده . . وفى سعادته سعادة لى . . ولنا فى وقت واحد . . دون أن أضغط عليه . .

فإذا كان من الضرورى أن نكسر الأشياء المغلقة لكى نعرف ما فى داخلها، تماما كما نكسر قشر البندق واللوز، ففى الحب ليس هذا ضروريا . . فبين المحبين لا توجد قشور . . ولا توجد أعماق . . فكل ما عند المحبين أعماق قريبة . . ملموسة . . مرئية . . ولذلك فأنا لا أحتاج إلى أن أمزق حبيبى لأرى جلده، ولا أن أمزق جلده لأرى قلبه، ولا أن أكسر قلبه لأسمع دقاته . . إننى فى داخله فى كل لحظة، وهو يتكلم بلسانى، ويرى بعينى، ويخفق بقلبى، ويتخيل بعقلى، ويمشى على ساقى . . ويرانى دنياه، وأراه دنياى . . فنحن معا دنيا لاثنين . . وفى الوقت نفسه نحن - رغم ذلك - اثنان مختلفان!

وفى العصر الحديث حدث شىء غريب فى الحب، والعلاقات بين المحبين.

ففى المجتمع الرأسمالى، ما هو المطلوب من الناس؟

ما الذى تقوله الإذاعة والتليفزيون والسينما والمجلات لكل مواطن: يجب أن يكون المواطنون متعاونين فى هدوء، مختلفين بلا تعصب، وأن يكون عددهم كبيراً ليستهلكوا أكثر . . ويجب أن تكون أذواقهم على نمط واحد . . ويمكن التأثير عليها وتوقعها. يجب أن يشعر الناس بأنهم أحرار مستقلون، لا يقعون تحت أى ضغط للسلطة أو المبدأ أو الضمير، وعلى استعداد لأن ينفذوا كل أوامر تصدر إليهم، والمهم جدا: أن يكونوا مسامير فى آلة كبرى دون احتكاك. أو اصطدام - وأن

توجههم الدولة والهيئات والمؤسسات والشركات بلا عنف، وبلا قائد، وأن تدفعهم بلا هدف - إلا هدفا واحدا هو أن يكونوا طيبين نشيطين عاملين ومؤمنين بالتقدم!

فماذا كانت النتيجة؟

لقد أصبح الإنسان الحديث بعيدا عن نفسه، وعن الناس أيضا، وعن الطبيعة، وتحول إلى سلعة يستثمر قدراته، ليحصل منها على الحد الأقصى من الربح فى ظروف السوق الراهنة. وأصبحت العلاقات الإنسانية آلية أيضا، كل إنسان يبنى بيته وحياته ضمن القطيع الكبير . .

وإحساسه بأنه وحده، وأنه ليس على صلة بأحد - هو الذى يدفعه إلى أن يحشر نفسه بين الناس، وأن يكون على مقربة منهم، دون أن يدور بينه وبينهم كلام، المهم أن يكون «مع» أحد . . أو «بالقرب» من أحد . . أو فى «ظل» أحد . . لأنه يضيق بهذه العزلة الرهيبة التى يعيشها . .

وفى المجتمع الرأسمالى نظام، أو قيود العمل، أو على الأصح روتين فى غاية القسوة. هذا الروتين هو وحده الذى حول الناس إلى حيوانات، إلى آلات: الأكل والشراب والنوم واللعب فى ساعات وبنظام. إنه الحرص على أن «يؤدى» الإنسان ما هو واجب، وما هو ضرورى. فالدافع هو أن يتخلص من رغباته.

فالتخلص هو الدافع وليس اللذة . .

والكاتب الإنجليزى الكبير ألدوس هكسلى فى روايته المشهورة «عالم جديد شجاع» يصف حال الناس فى المستقبل: إنهم يأكلون جيدا، ينشطون جميعا، علاقتهم بالآخرين أتفه ما تكون، وشعارهم لا تؤجل لذة اليوم إلى غد!

واللذة: هى اللعب والشراء والفرجة والشرب والرقص والتدخين والاجتماعات والمحاضرات والكتب والمجلات والأفلام . . فالعالم كله شىء واحد لفتح الشهية أو لإشباع الشهوة، والناس جميعا آكلون وشاربون يائسون أيضا؛ لأن الآلات لا تحب، ونحن نتبادل المصالح فقط.

حتى الحب فى المجتمع الرأسمالى هو مجرد التفاهم والاتفاق فى الرأى بلا ضوضاء، أو بالاكتفاء دائما بأن يكون هناك رأى واحد، كل الكتب والمجلات والأفلام تؤكد للمواطنين ذلك.

فإذا اختلف الرجل وزوجته كان ذلك دليلا على الفشل، وبسرعة يذهب أحد الطرفين - المرأة عادة - إلى الطبيب النفسى. وعند الطبيب تتمدد المرأة ويتساقط منها تاريخها وأسرارها، وفى النهاية يقول لها الطبيب: إن زوجك هو المريض فحاولى أن تعامليه برفق. وتذهب الزوجة وتعامل زوجها على أنه مريض . . وبذلك يصبح البيت العادى مستشفى بأمر الطبيب . . وينعدم معنى الحياة ومعنى الزوجية، ويتبدد الحب، لا لشىء إلا لأن الخلاف مرض، والاختلاف خطر . .

مع أن الحب هو الملجأ الوحيد فى عواصف الحياة اليومية، والمحبان هما اثنان ضد العالم كله . .

وعدم وجود الحب هو الذى يوقعنا فى كثير من الأخطاء، ويقع الناس فى أخطاء جنسية . .

إنهم يتصورون أن الجنس والنجاح فى الجنس هو الذى يؤدى إلى الحب ويؤكده، ويجعله على أساس متين. مع أن العكس هو الصحيح: فالحب هو الذى يجعل الجنس متعة وراحة، والحب هو وحده القادر على تصحيح الأساليب التى تستخدمها فى الاستمتاع الجنسى، وهو المسئول عن الضعف الجنسى والعجز الجنسى . .

بالحب يصبح الضعيف قويا، والعاجز قادرا، ويصبح البرود حرارة. والذى يجعل الجنس مؤلما هو الخوف والكراهية والعزلة، ومن الأخطاء أيضا أن نتصور أن الرجل طفل لم يتم فطامه بعد، وهو يريد أن يكون محبوبا لا محبا، معشوقا لا عاشقا . . وأن يكون مركزا للعطف والحنان والدفء والإعجاب، وهذا هو حب الصغار الذين لا مسئولية عليهم، وهو الحب الذى لا ينجح. يكفى أن يشعر الرجل بأن محبوبته لا تهتم به ولا تعجب به، أو عندما تحاول أن تشجع رجلا آخر على أن يمسها هو ويهتم بها ويرعاها - هنا يحدث انشقاق بين اثنين، وسبب الخطإ هو هذا التصور الموجود عند الرجل، ودون أن يناقشه أو يفكر فيه!

وهذا يؤدى إلى خطأ آخر هو تأليه الحب . . وتقديس المحبوبة نفسها أيضا . . وذلك بأن نأخذ صفة الآلهة ونعطيها للتى نحبها أو للذى نحبه . . ونبالغ فى هذه الصفات، وبذلك نخلق إنسانا لا هو إنسان ولا هو إله، وإنما هو الاثنان معا، وهذا يؤدى إلى صدمة عنيفة، عندما نكتشف أنه ليس إلها وإنما هو إنسان.

إن هناك حادثة تاريخية مشهورة عندما ذهب توماس كوك إلى جزر هاواى ورآه السكان الأصليون يدخن السيجار، واندهشوا كيف يخرج الدخان من فمه ولا يحرقه. وعندما رأوه يضع يديه فى جيوب بنطلونه . . ظنوا أنه يضعهما فى بطنه ويخرجهما دون أن يموت . . فركعوا وسجدوا له . . ولكن عندما كان عنيفا معهم . . تشجعوا وضربوه . . سال دمه . إذن ليس إلها . . إنه إنسان، فقتلوه . . قتلوه إنسانًا وإلهًا أيضا، وهذا ما يحدث للمحبوب الذى كإله وهو فى الحقيقة إنسان . .

إن مثل هذا الحب الملتهب الرومانسى الخيالى لا وجود له فى الواقع، إنه موجود فقط فى الأغانى والأفلام وفى الروايات، وهذه الأعمال الفنية تخلق من الناس جيلا شاذا، تخلق منهم أناسا يتفرجون على المحبين والحب ولكن لا يحبون . .

وأعجب من ذلك أنهم يحبون المحبين . . يحبون الحب . . وفى الوقت نفسه يطلبون أن يكون لهم مثل هذا الحب . . فإذا لم يتيسر لهم ذلك . . فإنهم يرضون بالفرجة على الحب . . والمتعة أثناء الفرجة على جنات المحبين . . مع أنه لا حب مثل ذلك فى الواقع . . وأن الحب على الشاشة فقط . . أما فى الحياة: فلا حب ولا محبين . .

ويقع المحبون فى غلطة أخرى: إنهم يتصورون أن الحب مستحيل، وأن العذاب هو العلاقة بين الناس، وأن الواقع -إذن- أليم، فلابد من الهرب من الواقع إلى الماضى . . أو إلى المستقبل، إلى أوهام سعيدة وراءهم أو أمامهم . . أما البحث عن شىء فيهم فهذا ما لا يفعله أحد . . وعندما تخلو النفوس من الحب: تخلو الحياة من الحرارة . . وتمتلئ بالملل . . والقرف.

والحب فن يجب أن تتعلمه . . وتعلمه بأن تعرف أسسه وقواعده . .

ولكى تنجح فى تطبيق هذا الفن، فلابد من شروط أخرى . . ضرورية فى الحب وفى كل فن آخر . .

أول هذه الشروط أن يكون هناك نظام . فمن الممكن أن ينشغل الإنسان بأى فن ، ولا يراعى أن يعمل فيه بدقة ، وبنظام ، وبذلك يكون الإنسان هاربا ؛ على مزاجه . . على كيفه . هذا ممكن . وليس من الممكن أن يتفوق فى الفن . إننا نعرف أن دافنشى الفنان العظيم كان يعمل كأنه تلميذ مبتدئ . . ونعلم أن مايكل أنجلو نام على ظهره ينقش فى كنيسة القديس بطرس شهورا طويلة حتى تصلبت عروقه . . ونعلم أن الأديب فيكتور هيجو كان شعاره : سطر كل يوم - إنه يكتب سطرا كل يوم وبنظام دقيق . .

والنظام ضرورى فى أى فن . . وفى الحياة كلها . .

وفى العصر الحديث نجد الإنسان يعمل بنظام ، ثمانى ساعات فى اليوم . . لابد أن يعملها ، وبعد ذلك يستريح . . وبعد ذلك يلعب ، وفى نهاية الأسبوع خارج البيت أو خارج المدينة . هذا نظام من حديد . . ولكن هذا النظام عام ، إنه ليس خاصا بأى إنسان ، وإنما هو مفروض عليه . ولكن فى الحب فإن النظام والانتظام فى هذه العلاقة واتباعها نحن الذين نختاره ، ونحن الذين نفرضه على أنفسنا ، ونراه قيدا محتما . . أو نراه حرية منظمة . . وبلا نظام تصبح الحياة فوضى . .

وبلا نظام لا تكون هناك قدرة على التركيز . .

والتركيز هو الشرط الثانى أيضا للنجاح فى تطبيق أى فن ، والتركيز نادر فى حياتنا الحديثة ، فأنت تقوم بأكثر من عمل فى وقت واحد : تقرأ الصحيفة وتدخن وتشرب القهوة وتنظر من النافذة أو تستمع إلى الراديو أو تجلس أمام التلفزيون . . كل ذلك فى وقت واحد ، وهذا العجز فى القدرة على التركيز واضح جدا فى أننا لا نستطيع أن نكون وحدنا ، وإنما نحن حريصون على أن نكون معا نأكل ونشرب ونتكلم ونتفرج أيضا . والتدخين هو إحدى العادات التى تدل على عدم قدرتنا على التركيز ؛ لأن التدخين يشغل اليد والفم والعين والأنف فى وقت واحد . .

ولكى تنجح فأنت فى حاجة إلى التركيز إلى أقصى درجة . . إلى أن تركز مشاعرك كلها على الفتاة التى تحبها ، أن تنشغل بها ، وتملأ عينيك وأذنيك ويديك وشفتيك . . وكلما ركزت عليها نجحت فى حبك . . وفى حبها أيضا !

وشرط ثالث : أن يكون عند الإنسان صبر وقدرة على الاحتمال ، وفى الوقت

نفسه قبول للعذاب كضرورة للنجاح، والنجاح هو الراحة، والذى يتعجل النتائج ليس هو الذى ينجح عادة. ولن يتعلم الإنسان أى فن ولن يتفوق فيه إذا لم يصبر.. والصبر صعب جدا على الإنسان الحديث، إنه أكثر صعوبة من قدرته على النظام والتركيز..

والمجتمع الصناعى يدفعنا إلى الاستعجال.. فكل شىء يجب أن ينطلق بسرعة، أن يتم بسرعة، وكلما كانت السيارة والطيارة والصاروخ أسرع كانت أفضل. وهناك أسباب اقتصادية لتفضيل المواصلات السريعة، وما يصلح فى عالم السيارات، يصلح فى عالم الإنسان؛ لأن الإنسان الحديث يخشى إضاعة الوقت إذا لم يتحرك أو يتصرف بسرعة، فى حين أن الوقت الذى يتوافر له بعد ذلك، لا يستفيد منه، وإنما يفكر فى قتله من جديد!

ومرة أخرى يجب أن يكون هناك شرط مهم هو: الاهتمام الشديد؛ أن يهتم بهذا الفن وأن يهتم له.. أى أن يكون هذا الفن شاغله دائما. وإلا فلن يتفوق فيه..

والمثل القديم يقول: إذا أنت أعطيت للعلم كل قدراتك، أعطاك بعض أسراره، وإذا أنت أعطيت للعلم بعض قدراتك، لم يعطك العلم شيئا..

وكذلك فى كل فن.. وفى الحب أيضا..

وأخيرا فالإنسان لا يتعلم الفن مباشرة.. وإنما يصل إلى التفوق بأساليب غير مباشرة، فالذى يتعلم فن النجارة، يتعلم كيف يقطع الخشب، وكيف يسويه وكيف يصنفره وكيف يطليه.

ولذلك يجب أن يمارس الإنسان النظام والتركيز والصبر فى كل شىء.. لكى يتفوق فى الفن الذى يريده..

وهناك تحذير مهم يوجهه إلينا العالم الكبير إيريش فروم وهو: على المحب ألا يكون أنانيا.. ألا يكون مشغولا بنفسه، وألا يجعل نفسه مركز الدنيا، وأن كل شىء يدور ويروح ويجىء من أجله.. وأن العالم كله فى خدمته، وأن الفتاة التى يحبها تقف فى طابور طويل من الحاشية الغريبة التى عينها لنفسه.. لأنه إذا فعل فكيف يكون موقفه إذا كان هذا هو رأى الفتاة فيه هو أيضا؟ ثم إذا تواجه الاثنان وانتظر كل منهما أن ينحنى للآخر ويقول:

شبيك . . لبيك . . عبدك بين يديك!

ولم يفعل أحد منهما ذلك . .

إن الغلطة مشتركة . فلابد أن يمد أحد يده وأن يلقاه الآخر في منتصف الطريق . . المهم أن يبدأ أحد ويتبعه الثاني : لقاء والتقاء . . وتواجد وتعايش . . واستمرار . . وتعديل . . وتجديد . . والتقاء واستمرار . . كما تتلاقى الأيدي في العناق . . والشفاه في القبلات . . إن الحب، اثنان دائما . . متفقان . . ومختلفان . . ولكنْ عندهما استعداد للتضحية من أجل أن يكونا اثنين . . أحيانا . . وواحدًا أحيانا . .

وإلا لقينا ما يلقاه كل أناني . .

وأروع قصة للأنانية هي التي جاءت في الأساطير الإغريقية . . يقال إن أبا عنده خمسون بنتا، وله أخ عنده خمسون ولدا، واتفق الأخوان على أن يتزوج أبناء وبنات العم، وكانوا سعداء جميعا . . ولكن والد البنات قالت له العرافة إن واحدا من أزواج بناته سوف يقتله . . فانزعج الأب واتفق مع بناته أن يقتلن أزواجهن في ليلة الزفاف . . وفي ليلة الزفاف قتلت كل واحدة زوجها وحملت رأسه الدامي إلى أبيها . . وشعر الأب بسعادة لا حد لها، ولكنه قرر أن يعد الرءوس، ووجد رأسا ناقصا، وعرف أن إحدى بناته رفضت أن تقتل زوجها لأنها تحبه، وأن زوجها هرب بعيدا . وغضب الأب، وغضبت آلهة الإغريق وعذبوا البنات بأن وضعوهن في بحيرة باردة، وطلبوا إلى كل واحدة أن تملأ إناء مليئا بالثقوب ويسقط الماء وتظل تملؤه ويتساقط الماء . . إلى الأبد . . أما الأب فقد عذبته الآلهة بأن يرى شبح الزوج الهارب كلما أغمض عينيه، فيهب من نومه مذعورا . . إلى الأبد . . !

منتهى الأنانية من الأب . .

ومنتهى الطاعة العمياء من البنات . .

ومنتهى العذاب إلى الأبد . .

والعذاب هو العقوبة . . أما الجريمة فهي الأنانية وكل ذلك باسم الحب . . باسم أنواع من الحب!

اثنين اثنين (*)

عندى مسرحية كوميدية اسمها «الأحياء المجاورة» . ظهرت فى الستينيات . والمسرحية لها بطلان : سناء جميل وحمدى غيث - فى ثلاثة فصول - ليس لهما أولاد ولا خدم . ولا يزورهما أحد ، ولكن من المتوقع أن يجىء أحد غير أن أحد ، لا يجىء ، ولكن هذا الاحتمال وهذا التوقع هو الذى يجعلهما ، ويجعلنا نتلفت إلى الباب والشباك . . ولكن أحدا لا يجىء .

وعلى الرغم من أن الزوجين لا ينفصلان ولا يتركان المسرح إلا قليلا ، فالدنيا كلها عندهما . . أخبارها وأسرارها ومشاكلها . . ثم إن الراديو ينقل إليهما آخر الأحداث والكوارث . . التى أصابت العالم وأصابت هذه الأسرة أيضا ، فليسا وحدهما ، ولكن الدنيا صغيرة تنتقل إليهما من تحت الباب . . من الأصداء فى الشارع وعلى السلم . . من الراديو . .

فعلى الرغم من أنهما اثنان فقط ، فالحقيقة أنهما ليسا كذلك فى أى وقت . . وبعد عشرين عاما من ظهور هذه المسرحية قررت أن أعدل فيها . . وبدأت التعديل بأن جعلت لها اسما آخر هو : أكثر من اثنين دائما !

أى أن هناك أكثر من اثنين فى أى مكان وفى أى وقت ، منذ آدم وحواء فى الجنة ومعهما الشيطان والأفعى والملائكة ومخافة الله ، حتى نزلا إلى الأرض فامتلأت بهما الدنيا . .

(*) مقدمة كتابى : «اثنين اثنين » .

بل إن الإنسان إذا كان وحده فى زنزانة فى سجن . . أو كان راهبا فى صومعة . . أو كان جاجارين فى أحد الأقمار الصناعية . . فرائد الفضاء الروسى كان وحده فى القمر الصناعى، ولكن عشرات الألوف من العلماء يتابعون نظراته وأنفاسه وقطرات العرق على وجهه ودقات قلبه . . إنه يشبه سائق سيارة بلا عجلة قيادة . . فالعجلة والقيادة على الأرض فى أيدى العلماء . . فهو - إذن - ليس وحده فى أى وقت . . بل إنه فى عيون وآذان مئات الملايين من سكان الأرض . .

و«روبنسون كروزو» بطل الرواية المعروفة التى كتبها دانيل ديفو، لم يكن وحده فى الجزيرة . . فمن اللحظة الأولى لهبوطه هذه الجزيرة كان وحده . . لم نر غيره ولم ير هو غيره . . ولكنه هو خلاصة الحضارة الغربية . . بملابسه وأفكاره وقدرته على أن يصنع لنفسه بيتا وأن يدافع عن نفسه بما حمل من أسلحة هى من صنع الحضارة الأوروبية . . فهو ليس وحده فى أى وقت . .

وعندما سئلت رابعة العدوية المتصوفة وقد جلست وحدها: من معك؟

قالت: أنا وحدى مع الله وحده؟

وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك . . فأنت أكثر من إنسان، أكثر من صورة لنفسك . .

فأنت كما ترى نفسك

وأنت كما يراك الناس، أصدقاؤك وأعداؤك

وأنت كما تتمنى أن تكون . .

وأنت الأب وأنت الابن . . وأنت المرءوس وأنت الرئيس . .

فأنت كثيرون!

ومن أجل أن تتخذ صورتك شكلا اجتماعيا فلابد من امرأة . . تحبها وتتزوجها، أو تتزوجها بلا حب . . أو تستخدمها أو هى تستخدمك . . تكون فى يدها، أو تكون هى فى عنقك . . فى قلبك أو على قلبك . .

والناس أمام المرأة نوعان:

ساسة وعشاق . .

والرجل السياسى هو الذى يرى أن كل الناس «أدوات» لتحقيق طموحه . . أنهم مثل السكين والملعقة . . أنهم مثل السيارة والجزمة . . أنهم «وسيلة» لتحقيق ما يتمنى ولذلك فلا إنسانية عنده، ولا إنسانية لهؤلاء الناس . . إنه جردهم من كل صفات الإنسان . . وجعلهم «أشياء» تخدم مصالحه، وتحقق له القوة التى يريد . . ولذلك كانت قسوة الساسة ووحشيتهم وسفالتهم أيضا .

والمرأة - عندهم - هى الأخرى أداة من هذا النوع . . هى ضرورة اجتماعية . . ضرورة من أجل الأناقة، وسيلة لكى يظهر السياسى مستقيما اجتماعيا يحب الأسرة والزوجة والأولاد، مثل كل الناس . .

فعالم السياسة، عالم بلا إنسانية . . عالم ليس فيه ناس . .

والعاشق هو الذى لا يرى فى دنياه إلا المرأة التى يحبها . . هى الناس . . وكل من عداها لا شىء . . فلا يرى أحدا غيرها، ولا يسمع سواها . . وكل الطرق تؤدى إليها، أو تدفعه أن يبلغها . .

فالناس جميعا أدوات ووسائل من أجلها . . هوامش على طريقها . . فراشة على أشجارها، سحاب فوق غاباتها . . وهو مستعد أن يضحى من أجلها، وبنفسه أيضا .

فعالم العشاق ليس فيه ناس . . عالم العشاق فيه المحبوبة . . ويتمنى العاشق والمعشوق أن تخلو الدنيا لهما، فلا رقيب ولا حسيب ولا عذول ولا حسود . .

السياسى يريد القوة

العاشق يريد الغناء

السياسى يرى الناس جميعا أشرارا

العاشق يرى الناس طيبين والمحبوب أطيبهم . .

السياسى يكذب حين يتحدث عن المبادئ . .

العاشق لا يكذب ولا يتحدث عن المبادئ ، فالذى يعمله هو المبدأ، والذى يعانيه هو العقيدة، والمحبوبة هى الكائن المقدس . .

وإذا كان السياسى عاشقا، فهو سياسى فقط . . مهما قال . .

وأمير الساسة وأكثرهم سفالة هو مترنيخ . . كان عاشقا لعشرات من الأميرات والغانيات . . ولكن جميعا يعملن جواسيس له . . يعملن أجهزة للتنصت، شباكا ومصائد لخصومه السياسيين . . فقد استغل أشكالا كثيرة من الضعف . . ضعف المرأة، وضعف الرجل أمام المرأة . . وضعف الاثنين أمام المال . . وخوف الجميع من الغدر . .

* * *

وليس فى الآداب العالمية مثل هذا العدد من «الثنائيات» التى جاءت فى كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى من الجوارى والعشيقات والمغنيات والملهمات والقاتلات ومصاصات دماء الأمراء من أجل الشعراء، وقاتلات الشعراء من أجل الأمراء . . ولكن القاتل والقتيل فيهما صفة مشتركة: حب الجمال . . جمال الجسم والصوت والفن . .

كلهم عاشوا وماتوا من أجل العشق . .

لا شغلتهم السياسة ولا الحكم ولا السلطة، فالسلطان هو الشعر . . والملك هو الحب . . والمملكة كلها تسودها المرأة وتلعب بها، والرعايا سعداء أن يكونوا ألعوبة الخمر والموسيقى والجنس . . والجمال دائما!

بل فى كتاب «الأغانى» نجد الزوج المحافظ الغيور يدخل بيته والسيف فى يده فيجد زوجته على راحتها مع رجل غريب . . ويرفع السيف فى وجه الغريب . . حتى إذا قالت له زوجته: إنه الشاعر فلان . .

هنا يهبط السيف ويجلس الزوج يستمع مع زوجته إلى الشاعر . .

فالذنب مغفور والعذر مقبول إذا كان الغريب شاعرا . . وإذا كانت الفتنة هى الجمال . . ويجلس الرجل يسمع الشاعر يتغزل فى زوجته، ويسمع زوجته ترد عليه وتشيد برجولة زوجها وإخلاصه لها وإخلاصها له . . وبالسعادة والأمان الذى تعيش فيه . . والفضل للزوج الذى اتسع صدره للغريب ما دام شاعرا!

ولا نهاية للثنائيات فى التاريخ الإنسانى . .

فهناك نساء تمر، ولم يتركن أثرا . . ولكن هناك من حاولن . .

وهناك نساء أمسكن التاريخ وجعلن منه عجينا وصنعن منه تماثيل . . وهناك نساء حولن مجرى التاريخ، عندما وضعن قلب الرجل فى مكان عقله، وعقله تحت الأقدام .

فالنساء نوعان :

المرأة «الحادث» . .

والمرأة «القدر» . .

أى المرأة التى كانت حادثا عابرا لم تترك أثرا . . وإنما لفتت نظرا، واحتلت أذنا، وشغلت قلبا، وراحت ضحية عقل . .

وفى حياة المشاهير كثير من هذا الطراز من النساء . . إنهن مثل الفراش حول الضوء . . يدرن حوله ويحترقن به، وتجىء غيرهن إلى النهاية نفسها، ويتسلى العظماء برؤية الفراش يتحول إلى رماد . .

وهناك المرأة «القدر» التى تجذب العظماء فيدور العظيم حولها فراشة . . فإذا هى تدخل حياته . . وتكون حياته . . وتوجهه يسارا ويمينا . . وتضيف إليه بغريزتها العميقة فى البقاء والسلطة والإبداع أيضا .

وهذه هى المرأة التى تلهم الشاعر، وتحمى ظهر السياسى، وتصون العالم، وتعكس الإبداع . .

وفى التاريخ زوجات شهيرات وعشيقات أيضا وعاشقات ولكن لسن جميعا «قدرا» . .

فزوجة سقراط كان جهلها بعظمة الفيلسوف سقراط نكتة أطلقها هذا الفيلسوف . . ولكنها لم تجعله يكره المرأة ويحتقرها . . فيبقى هذا الاحتقار عشرات القرون . . فليس بسبب زوجته كره المرأة، ولكنه احتقر المادة والجنس والرغبات العابرة، ولم ير أرفع من الفكر والتأمل والفلسفة . . وكانت زوجته تراه رجلا

عاطلا باطلا لا يأكل ولا يشرب ولا ينشغل ببيته وزوجته . . فليس عنده وقت، ولا عنده وظيفة، ولا هو يحب النساء . . كان يفضل الغلمان . . فهى امرأة مشهورة فقط، وهى المرأة «الحادث» وليست المرأة «القدر» . . وكذلك زوجات الأديب لورانس، وأوجينى والخديو إسماعيل، وجولييت آدم ومصطفى كامل، وطه حسين وسوزان . .

ولكن المرأة «القدر» هى دوقة وندسور وهى إيفا بيرون وهى كليوباترة . .

وشجرة الدر التى قتلت زوجها بالقباقيب وقتلها ابن زوجها بالقباقيب وثار عليها العلماء وفى مقدمتهم قاضى القضاة العز بن عبد السلام، لم تكن «قدرا» فلم يترتب على وجودها أو اختفائها أى تحول فى مسار الأحداث والتاريخ . .

بينما كليوباترة التاسعة ملكة مصر التى قتلت نفسها، حتى لا تقع أسيرة فى أيدى أعدائها ـ ولم تكن جميلة، وإنما كانت سمراء متوسطة القامة ذكية ـ هى التى غيرت تاريخ المعارك وتاريخ الحكم فى الدولة الرومانية بعد وفاة الإسكندر . .

أما النساء «القدر» فهن:

الراهبة هلويز التى أحبها الراهب أبيلار، والفتاة بياتريشه التى أحبها الشاعر دانتى، وكلارا التى أحبها الشاعر بتراركه . . وسالومى التى أحبها نيتشه والعالم فرويد والشاعر ريلكه . . وكذلك زوجات فرويد وكارل ماركس وداروين ولفتجستون . . ومئات من ساحرات البادية: لبنى وليلى وعبلة وعزة وهند وغنية وغنيمة وفاضية والفارغة وألف فاطمة، وأم الفضل وفكيهة وقرة العين وأم كلثوم وكلثم ولبابة ولهب ولحاظ ولؤلؤة وألف عائشة، وعاتكة وعاصية وعبرة وعثمة وعفيفة وعمرة وزاهدة وزلفى وزمرد وعين النساء وعين العرب وألف زينب، وزنوبيا وسارة وست الأجناس وست الأخوة وست الأدب وست الأهل وست الجميع وست الشام وست العراق وست العلماء وست القضاة وست الفقهاء وست النعم وسديدة وألف سعاد، وسعدى وسعدة وألف سكينة، وسلاّمة وسلطانة وسلمى وسمراء والشطباء والشعثاء والشقراء والشلبية وصالحة والصماء والصاخبة والطافية وطيبة دماء السماء ومارية وماوية ومحبوبة ومدللة ومزاج ومصباح ومعتزة

وملح وملك وملكة ومليكة ومنورة ومنية ومهرى وموافقة ومؤنسة ومية وميسة وميسون وميمونة ونائلة ونائفة وناجية ونزهة ونشوان وهاجر وهيلانة ووالهة ووجيهة وولادة وياسمين . . وغيرهن كثيرات فى كتب الأغانى والعشق فى الأدب العربى القديم . .

* * *

وسوف تمضى الثنائيات فى التاريخ علنا وسرا . .

ومنذ قال امرؤ القيس ، عندما وقف عند جبل «عسيب» بالقرب من أنقرة :

حتى قال كامل الشناوى :

أحببتها وظننت أن لقلبها

نبضا كقلبى

لاتقيده الضلوع

أحببتها

وإذا بها قلب بلا نبض

سراب خادع

ظمأ وجوع

فتركتها

لكن قلبى لم يزل طفلا

يعاوده الحنين إلى الرجوع

وإذا مررت - وكم مررت -

ببيتها

تبكى الخطى منى

وترتعد الدموع !

ومنذ قال عمر بن أبى ربيعة :

تقـــول وليـــدتى لما رأتنى ... طربت وكنت قـد أقصـرت حينا

أراك ؛ اليـوم قـد أحـدثت شـوقـا ... وهاج لك الهــوى داء دفـــينا

وكنت زعـــمت أنك ذو عـــزاء ... إذا مــا شـئت فــارقت القــرينا

بربك هل أتاك لهـــا رســـول ... فـشــاقك أم لقـيت لهـا خـدينا

فـــقلت شكـا إلىّ أخ مـــحب ... كـــبعض زمـــاننا إذ تعلمـــينا

وذو الشــوق القــديم وإن تعـزى ... مـشـوق حـين يلقى العـاشـقـينا !

حتى قال إبراهيم ناجى :

أحببت مية حبا لا يعادله

حب وأفنيت فيها العمر أجمعه

أحب عمرى الذى فى قرب مى وما

قد مر من دونها ما كان أضيعه

يامىّ ياقلبى الثانى أعيش به

وإن يكن فوق ظنى أننى معه

يا بضعة من كيان الصب نابضة

بكل حب به الرحمن أودعه !

ومن القـائد هانيبـال الذى طلب من ضبـاطه أن يمر على البيـوت حتى تـصرخ النساء ويبكى الأطفال ، فتتحطم قلوب الرجال . .

حتى هتلر الذى قال : سوف أجـعل لكل امرأة ألمانيـة عشرين طفـلا . . فالمرأة الألمانية لكى تلد ، ويتضاعف الجنس الآرى ليسود العالم . . فالمرأة أم أولا وزوجة ثانية وعاشقة معشوقة ثالثا . .

سوف تبقى المرأة هنا فى الظل ، أو تجعل كل شىء فى الظل ، لتبقى هى فى النور وغيرها فى النار ، أو هى النار والنور الذى يحرق ويضىء . .

سوف يكون هناك اثنان . . بل أكثر من اثنين دائما !

قل لى يا أستاذ (*)

نعم سأقول وأقول ما يخطر على البال وما لا يخطر . . بمناسبة ومن غير مناسبة ، وأكثر كلامنا من غير مناسبة واضحة . . مثلا أنت جالس وأمام التليفزيون وتشرب قهوة وفجأة يخطر لك أن تطلب فلانا فى التليفون فأنت لم تسأل عنه منذ وقت طويل . . وفجأة يرن جرس التليفون ويكون فلانا هو المتحدث . كيف فكرت وفكر هو فى الوقت نفسه ؟ !

أنت نائم فى فراشك نوما عميقا وفجأة تضع يدك على جانب من الخد وتقول : آه . . ويزداد الألم وتذهب لطبيب الأسنان فلا يجد شيئا فى أسنانك وإنما يندهش الطبيب وهو يقول : أسنانك لؤلؤ ! !

وفى اليوم التالى تجىء مكالمة من واشنطن ويكون المتكلم ابنك أو أخاك يقول لك : إنه بالأمس قد خلع ضرسا مسوسا ، وتحسبها بالساعة فتجد أنه فى اللحظة التى خلع ضرسه فى أميركا أحسست أنت بالوجع ! !

* * *

وسوف تجىء عبارات مكثفة التركيب . لا خوف ، فسوف أشرحها بسرعة ، مثلا : أن كل شجرة يقطعونها فى البرازيل سوف تؤدى إلى غرق مصر ؟

إن لها معنى ، والمعنى صحيح . اسمع ياسيدى : الكرة الأرضية ملفوفة فى طبقة عرضها أربعون كيلومترا من ثانى أكسيد الكربون ، هذا الغاز يجىء من المصانع الضخمة ومن إحراق الغابات فى البرازيل وفى أواسط إفريقيا .

(*) مقدمة كتابى : « قل لى يا أستاذ » .

هذا الغاز يسمح بدخول أشعة الشمس. ولكنه لا يسمح بخروج الحرارة . . والحرارة تدخل وتلتف حول الأرض ولا تخرج منها . . وترتفع الحرارة وترتفع، وسوف يؤدى هذا الارتفاع إلى ذوبان الجليد فى القطبين الشمالى والجنوبى، وهذا الذوبان سوف يرفع مستوى سطح البحر . . وسوف تغرق عشرات الألوف من الجزر فى المحيط الهادى، وكان أول من طلب النجدة فى العالم هو الرئيس مأمون عبد القيوم رئيس دولة المالديف، وقد حذرنا العالم المصرى الكبير د. مصطفى طلبة رئيس الجهاز التنفيذى لحماية البيئة من غرق الوجه البحرى لمصر وأنه سوف يكون الضحية الأولى قبل نهاية هذا القرن . . فلابد من إيقاف إحراق الغابات بدفع الملايين لهذه الدول التى تحتاج إلى الوقود من الخشب!

* * *

وسوف أكون سريع العبارة، ولن أطيل عليك، وإن كان ذلك صعبا، ولكن سأحاول. وكان الأديب الروسى تولستوى يقول: إن الفلسفة الواضحة هى التى يستطيع صاحبها أن يشرحها فى عشر دقائق - أى عشرين صفحة من هذا الكتاب!

وليس أسهل من الأسئلة، وليس أصعب من الإجابة عنها. سؤال مثلا: كم عدد الرمال على شاطئ البحر؟

هناك نكتة تقول: إن كلاما دار بين جحا وأصدقائه، واحد قال: أيهما أكثر عددا: النجوم فى السماء أو الشعر فى ذيل حمار جحا؟

قال جحا: النجوم فى السماء طبعا !!

وقال آخرون: بل الشعر فى ذيل حمارك!

فقال واحد عاقل: إذن لنبدأ فى عد النجوم والشعر!

فما أصعب ذلك!

إن البشرية احتاجت ألوف السنين حتى يصل العالم الرياضى الكبير أينشتين إلى هذا السطر الذى بمقتضاه انفجرت القنبلة الذرية:

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء!

وليس أقصر من هذا السطر، وليس أصعب من تفسيره . . قليلون فى الدنيا من لديهم القدرة على إثبات صحة ذلك!

ثم إن الذى لا يسأل لا يعرف . .

وكان أستاذنا العظيم أرسطو يقول: إن الدهشة هى بداية المعرفة . .

أى الذى لا يندهش لا يسأل . . والذى لا يسأل لا يعرف، والذى لا يعرف لا يتقدم، والذى لا يتقدم يتأخر!

والفيلسوف العظيم سقراط كان يطلب إلى تلامذته أن يسألوه وألا يتوقفوا عن التساؤل . . وكان سقراط يقول: إننى أستعير أسلوب أمى فى توليد المعانى - وكانت أمه مولدة . . وكان هو يولد المعانى من عقول الشباب . .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: لقاء الرجال تلقيح للعقول!

وفى إحدى المرات لاحظ سقراط أن واحدا من تلامذته لا يسأل ولا يتكلم فصرخ فيه: تكلم حتى أراك !!

أى تكلم حتى أعرفك . . وحتى أرى رأيك ورؤيتك!

ويقال إن الإمام الشافعى كان يجلس فى الجامع والتف حوله تلامذته . . كلهم يسألون . . وكان يجيب . . إلا واحدا، ظل صامتا طوال الوقت . . وفى كل مرة يحاول الإمام الشافعى أن يريح رجله التى اتكأ عليها فيتحرج من هذا الرجل الوقور الذى ينظر إليه ولا يسأل، وأخيرا تكلم الرجل الوقور، وكان كلامه سخيفا، فقال الشافعى: لقد آن للشافعى أن يمد رجله!

فالرجل الوقور عندما تكلم، رآه الإمام الشافعى سخيفا - ولم يكن يعرف ذلك!

وسوف أكون واضحا. والوضوح أعز آمالى - فقد حققت ذلك فى ١٣٠ كتابا من تأليفى، وفى ثلاثين مسرحية من ترجمتى عن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . . وسوف أظل كذلك، فأنا تخرجت فى قسم الفلسفة ثم قمت بتدريس الفلسفة عشرين عاما فى الجامعة، وكان هدفى أن أكون واضحا عند أقل الناس تخصصا، ولذلك فمحاضراتى كوكتيل من الأدب وعلم النفس والفكاهة والأغانى

والنوادر . . والذى يقلبهـا فمن الصعب أن يعرف إن كانت هذا المحاضرات لطلبة الدراسات العربيـة أو الفرنسية أو الفلسفية أو النفسية أو الاجتماعيـة أو لطلبـة المدارس الثانوية . . لسهولة العبارة ومحاولاتى المستمـرة، دون ملـل، أن أكـون واضحا.

وفى أول عهدى بالصحافة كتبت مقالا أعجب به الأستاذ عباس العقاد وقال لى وللذين حضروا صالونه الأدبى: أعجبنى أسلوب الأستاذ أنيس!

وحزنت فى ذلك اليوم حزنا عميقا، فالعقاد قد أعجبه أسلوبى ؟! وأنا لا يعجبنى أسلوب العقاد! فهو صعب شاق. وعدت إلى البيت أعيد كتابة هذا المقال ثلاثين مرة حتى جردته تماما من المصطلحات والتراكيب الفلسفية . . ومنذ ذلك اليوم من أربعين عاما وأنا لا أكتب إلا سهلا واضحا . . أو أننى أحاول ذلك!

قصة أخرى: كنت ألقى قصيدة من نظمى فى ذكرى المولد النبوى، وكان بين الحاضرين الشيخ حسن البنا المشرف العام للإخوان المسلمين، وبعد أن ألقيتها سألنى فى أبوة: وأنت يا ولدى ماذا تدرس؟ فقلت له متحمسا: طالب فى قسم الفلسفة يا أستاذ . . فقال: هذا واضح . . ولكن لا تنس يا ولدى أن هؤلاء الناس بسطاء . . أناس اعتادوا على أن يسبحوا فى القنوات الصغيرة الضحلة، فلا ترغمهم على السباحة فى المحيط!

وفهمت المعنى. وتوقفت عن نظم الشعر!

* * *

والحق مع القارئ . . مع المستمع . . مع المشاهد . . يجب أن يفهم دون وجع دماغ!

وفى الشعر العربى القديم أن الشاعر أبا تمام قال شعرا لم يفهمه الناس فقيل له: ولماذا لا تقول ما يفهمه الناس؟

وكان رده: ولماذا لا يفهم الناس ما أقول!

وليس الحق مع الشـاعـر العظيم . . الحق مع الناس . . مع الزبون . . مع المستهلك ـ هذه قاعدة اقتصادية معروفة!

وعندما أصدر الفيلسوف الألماني شوبنهور واحدا من كتبه الرائعة، كان يمر كل يوم على المكتبة يسأل: كم عدد النسخ التى بيعت؟ فيقال له: ولا نسخة!

وفى أحد الأيام ذهب إلى المكتبة يسأل، فلم يجد إلا نسخة واحدة قد بيعت.. وأن الذى اشتراها هو أحد أساتذة الفلسفة.. فذهب إليه يشكره. ولكن الأستاذ قال له: إن الكتاب صعب شاق عسير الفهم!

فغضب الفيلسوف وقال: لماذا إذن راح واحد يقلب فى كتابى وسمع صوت حمار ينهق، لماذا يكون هذا صوت المؤلف دائما وليس صوت القارئ!

والحق مع القارئ وليس مع الفيلسوف.. فما اجتمع مؤلف وقارئ إلا كان الحمار بينهما.. هذا الحمار قد يتمسك به المؤلف حتى آخر سطر.. أو يطرده القارئ من أول سطر!

ولكن هذا الخوف عند الكاتب أو عند القارئ يجب أن يتبدد بسرعة، وتصبح شفتا الكاتب عند أذنى القارئ، يهمس ولا يصرخ.. محاولا قدر استطاعته ألا يكون مملا ـ فالناس يزهقون بسرعة!

* * *

وكل الموضوعات التى تتعلق بالإنسان ومشاعر الإنسان ليست دقيقة ولا واضحة تماما، فلا توجد حقيقة إنسانية سهلة وبسيطة مثل ٢ + ٢ = ٤.. وإنما نحن نعبر عن كل المعانى الإنسانية بالتقريب.. لأنه من الصعب أن نلقى القبض على المعانى وأن نسجنها فى الكلمات.. وإذا فعلنا فكثيرا ما هربت.. فنعود إليها نتحايل عليها وندور حولها لعلنا نرى جديدا.. وهكذا إلى الأبد!

والفيلسوف الألمانى العظيم هيدجر يقول: ركعت وسجدت عند قدمى معشوقتى.. ورفعت رأسى أنتظر أن تجود علىّ بكلمة.. وانتظرت طويلا طويلا.. ولكن معشوقتى لم تقل إلا قليلا!

أما هذه المعشوقة فهى: الحقيقة!

القليل همست به، والباقى يجب أن نجتهد نحن فى معرفته!

الحب مثلا: يملأ نصف كتب الأدب فى كل العصور . . مئات ألوف من الأبيات فى كل اللغات. فما هو؟ كيف هو؟ لماذا هو؟ أية فائدة منه؟

يقول الشاعر فى تعريف الحب:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف!

يقول شوقى أمير الشعراء موضحا ذلك:

(يقول أناس لو وصفت لنا الهوى) لعل الذى لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته (فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف!)

يقول أبو نواس أيضا فى مرض الحب:

يا ويح قومى أبلى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائى!

يقول أمير الشعراء شوقى موضحا هذا المعنى:

(يا ويح قومى أبلى بين أعينهم) ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجسم لا حراك به (على الفراش ولا يدرون ما دائى)

وقال شاعر قديم - ويقال عمر بن الخطاب أيضا:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين!

وقالت شاعرة ردا على ذلك:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين!

وقال شاعر ثالث:

إن النساء شياطين خلقن لنا أعوذ بالله من كيد الشياطين
فهن أصل البليات التى ظهرت بين البرية فى الدنيا وفى الدين!

. . وما لا نهاية له من الاختلاف والخلاف فى الرأى والرؤية والنظرة والنظرية. . وهذه عبقرية الإنسان وصعوبة رؤية واحتواء المعانى . .

والشاعر القديم يقول :

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق فى الأرض قرطاس ولا قلم ولا مداد ولا شىء من الورق!

بل سوف يبقى الكثير جدا من كل شىء . .

وتاريخ الفكر الإنسانى، هو تاريخ المحاولة والخطإ واللف والدوران والنفاذ إلى أعماق المعانى . . ثم معاودة كل ذلك من جديد . . كأن أحدا لم يحاول من قبل !

وغير ذلك من ألوف المعانى والنوادر والقصص فى التاريخ والأدب والفلسفة . .

ولكن الكاتب يحاول ويحاول . . ويكفيه شرفا أن يفعل ذلك . .

وهناك نوعان من الأدباء أو الشعراء أو المفكرين :

واحد يمشى أمامك ويتكلم . .

وواحد يمشى وراءك ويتكلم . .

ولا أعرف أين سأكون . .

وإنما سأحاول أن أكون أقرب إلى أذنيك إلى عينيك إلى عقلك . . وأن أقطع هذه المسافة التى بيننا فى أسرع وقت وبأقل جهد . . ولن أمل أبدا أن أكون واضحا!

* * *

وأخيرا أتمنى أن يكون لقولى ومقالى عندك بعض هذا الذى يقوله شاعر قديم :

وَرَدَ الكتاب فلا عدمت أناملا كتبت به حتى تضوع طيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

بل أقل من ذلك يرضينى. ولك الشكر!

قالوا [*]

هذه العبارات التى فى هذا الكتاب ليست إلا نوعا من التوتر الشائك حاولت أن أزين بها جسم المرأة . .

أو إنها خيوط من الحرير حاولت أن أشبكها بدبابيس لامعة على جلد المرأة . .

وحاولت أيضا أن أجعلها ملتصقة : فستانا محزقا . .

وحاولت أن أقلد المرأة فى حرصها على أن يكون فستانها هو «بشرتها» الثانية . .

ونسيت أن «تحزيق الفستان» يوجعها ويؤلمها . . وفى اللحظة التى تصرخ فيها المرأة من هذه العبارات الملتصقة بجسمها وقلبها وعقلها وطبيعتها ، تتردد ضحكات الكثير من الرجال . .

ومن الدموع والضحكات ، ومن الصرخات واللعنات ، نسجت هذا الثوب الشفاف الذى يلسع ولكنه لا يحرق . .

وهذه العبارات تدل على رأى . .

ولا أدعى أن هذا الرأى صواب ، فلا يوجد رأى صواب كله . .

ولا يوجد رأى خطأ كله . .

ففيه الكثير من الصدق ، وفيه الكثير من السخرية . .

فهذه العبارات ككل الثمار فيها حلاوة وفيها بذور وقشور . .

(*) مقدمة كتابى : « قالوا » .

وهى لا ترضى المرأة كلها . . ولا تغضبها أيضا؛ فليس من السهل إرضاء المرأة، وإن كان من السهل جدا إغضابها . . ويكفى أن تقدم لها فستانا بمائة جنيه، وفى الفستان ثقب صغير . . أو فتلة واحدة قد نقلت من مكانها.

فهذه الفتلة وحدها تفسد لون الفستان . . وتجعل ثمنه فى نظرها، بالملاليم . . وتحول ذوقك إلى جليطة . . ولا تساوى لا أنت ولا الفستان شيئا عند المرأة . .

والحصول على الجنيهات المائة يحتاج إلى مجهود . .

ولكن تشويه الفستان لا يحتاج إلى أى مجهود . .

وإغضاب المرأة لا يحتاج إلى مجهود . . وإرضاؤها يحتاج إلى أكبر مجهود . .

وهذه العبارات التى فى هذا الكتاب هى صورة كاريكاتيرية . .

فيها مبالغة ولكن لها معنى.

والمبالغة فى ملامح المرأة.

وفى طبيعة العلاقة التى بينها وبين الرجل . .

فأنا أحيانا أرى المرأة بعين المرأة . .

وأحيانا أراها بعين الرجل . .

وأحيانا أغمض عينى كأنما لا أريد أن أراها . .

أو كأننى أريد أن أراها بخيالى . .

لأنها فى خيالى أجمل . .

ولأنها فى واقعها أقل جمالا وأقل صدقا . .

ولأننا نلمس المرأة فى ظروف - عادة - غير عادية . .

فهذه الظروف غير العادية هى التى تجعل فهمنا للمرأة غير منطقى وغير سليم . .

وربما كانت الظروف الوحيدة التى تجعلنا نرى المرأة على حقيقتها، هى عندما نكون نحن على حقيقتنا.

ومن النادر أن يكون الإنسان على حقيقته . .

ولذلك من النادر أن نفهم المرأة . .

ومن النادر أن نكون على حق معها . .

ربما نكون على حقيقتنا فقط عندما نموت .

وعندما لا تكون لنا أجسام . . وعندما لا تكون لأجسامنا رغبات أو شهوات أو مخاوف . . أى عندما لا نحتاج إلى المرأة!

فى هذه الحالة فقط نقول كما قال تولستوى ، أعظم الكتاب ، وأكثرهم عذابا وشقاء بزوجته : أنت لا تعرف أية امرأة ، إلا بعد أن تتأكد من أنهم أقفلوا عليك باب قبرك بإحكام شديد!

وتولستوى ـ أيضا ـ أكثر الناس تعذيبا لزوجته!

* * *

والمرأة تحب الصراحة ـ هذا رأيها . .

ولكن إذا نظرت إلى فساتينها . . تجد أن هذه الفساتين تدلك على أنها لا تحب الصراحة . . فالفستان قد خنق وسطها . .

والفستان هو الذى أبرز صدرها .

وحذاؤها رفع رأسها . .

وكعب الحذاء قد أشاع الرقص فى جسمها . .

والقلم الأسود رسم حواجب لا وجود لها . .

وقلمها الأحمر ، ملأ بالورد خديها وشفتيها . .

فأين هذه الصراحة؟

بل أين المرأة نفسها وراء هذا العمل الفنى . .

إنها تخفى حقيقتها بصورة واضحة . . بصورة صريحة . .

إنها تخفى صراحتها بصراحة . .

ونحن نطلب إليها أن تكذب فى سنها وفى وزنها وفى عواطفها . .

وهى تطلب منا أن نكذب عليها أيضا . . أن نجاملها . . أن نداللها . .

أن نقول دائما إنها الوحيدة فى حياتنا . . إنها أجمل وأرق امرأة فى العالم . .

هى تكذب . . ونحن نكذب . .

ونحن صادقون فى كذبنا، وكاذبون فى صدقنا !!

وهذه هى حقيقة المرأة . .

أو الحقيقة التى تريدها المرأة . .

أو هذه هى «اللاحقيقة» التى تريدها المرأة . .

فلا أحد يعرف بالضبط ماذا تريد المرأة، ومتى تريد وكيف تريد . .

والمرأة مشكلة . . عقدة . . ولا حل لها إلا بعد أن نتأكد من أن باب القبر قد أقفل علينا بإحكام شديد.

ووراء هذا الباب سنعرف حقيقتها . . وستعرف حقيقتنا . .

ولكن أمام الباب لا حقيقة لنا . . ولا حقيقة لها . . وإنما كل ما هناك: كذب جميل، وحقيقة مؤلمة . .

والمرأة عندما ترتدى ثيابا أنيقة . . تكون أجمل قواما، وأروع ألوانا، وأمتع عطرا، وأعمق أثرا . . وتكون أبعد عن الحقيقة!

إن الحقيقة هى المرأة . .

والبحث عن الحقيقة هو الرجل . .

الحقيقة كالغابة الهائلة . .

والرجل هو الصياد فى هذه الغابة . .

والغابة تهذبت الآن . .

والرجل أصبح مهذبا أيضا . .

ولكن المرأة ما تزال تحب الرجل الصياد . .

ولذلك تحاول هى أن تكون مظلمة كالغابة، متوحشة كحيوانات الغابة!

والمرأة عندما تحس أنها متوحشة، تحلم بالهرب من الكهف إلى البيت . . لكى تكون مستأنسة . .

وإذا أصبحت المرأة مستأنسة فإنها تحلم بالهرب من البيت إلى الكهف . . إلى الغابة لتكون متوحشة من جديد . .

والرجل يعلم ذلك . . ولكنه فقط لا يعلم متى تقرر المرأة أن تكون إنسانا، ومتى تقرر أن تكون وحشا جميلا . .

هذه مشكلة الرجل . .

وليست مشكلة المرأة، فقد تعودت المرأة أن تنتظر . . مئات الألوف من السنين أمضتها فى الانتظار، وهى قادرة على الانتظار . . وقادرة على الصبر الطويل . .

ولذلك فالرجل هو الذى يعالج هذه المشكلة . . أو يعالج هذا الإنسان الذى اسمه المرأة . .

والرجل ينشغل بالمرأة، ثم يتركها للكفاح فى حياته . . من أجل تطوير أساليب الحياة . . أساليب الأكل والشرب والنوم والعلاج والانتقال . . والأزياء . . ومعاملة المرأة وأولادها.

وسوف يذهب الرجل إلى القمر، وإلى الكواكب الأخرى . .

وسوف تكون مشاكل الرجل الكبرى فى القمر هى أن يبحث عن كهف يعيش فيه تحت سطح القمر . . لأن سطح القمر ملتهب نهارا، وبارد ليلا . .

أى أن الرجل سيعاود الحياة فى الكهوف تحت سطح القمر . .

أى حياة الكهوف المكيفة الهواء والضغط والضوء .

أى أن «آدم الجديد» سيصعد من الأرض إلى السماء . .

ولابد له من حواء . .

ولابد لحواء أن تحب وأن يكون لها أطفال . . ويكون لها بيت . .

ولابد أن تغار على الزوج . . حتى من ذكرياته على الأرض، إذا لم تكن هناك نساء أخريات على سطح القمر . .

وأول ما تحتاج إليه المرأة فى الكهف الجديد هو مرآة . . لترى نفسها . . لترى كيف تبدو فى عينى زوجها . .

وعلى الرغم من أن حواء الجديدة ستكتشف أن القمر مثل الأرض . . بل أسوأ من الأرض . . فإنها ستطلب إلى آدم أن يقول لها : أنت كالقمر . .

أى كالقمر من بعيد . . أى كالقمر كما نراه من سطح الأرض .

المهم أن يقول لها إنها مثل القمر . .

فالمرأة لا تشبع من المديح . .

مهما كانت حقيقة هذا المديح . .

وسوف يحل الرجل على سطح القمر مشاكل كثيرة كنا نجهلها على سطح الأرض . .

ولكن من المؤكد أن مشكلة المرأة لن يجد لها حلا . . لأنها أصعب من أى حل . .

فالمرأة إنسان شديد التعقيد وشديد الحساسية . .

وقد خلقها الله لسببين :

ليزداد عدد سكان الأرض . .

وليزداد عذاب الرجل : ذلك الكائن الضعيف الذى امتلأ رأسه بأفكار أعظم منه، وأبقى منه . .

والرجل «الفانى» يفكر فى الأبدية . .

والرجل «الضعيف» يعمل على تطوير أشكال القوة . .

والرجل الذى يقهر جاذبية الأرض، تقهره جاذبية المرأة . .

والرجل الذى يربط الكواكب والنجوم فى قانون رياضى واحد دقيق . . يفقد عقله ومنطقه وينسى جدول الضرب أمام المرأة!

إن آلهة الإغريق عندما خلقوا أول حواء أطلقوا عليها اسم «بندورا» - أى التى تجمعت فيها كل المواهب . . وأعطوا لبندورا هذه صندوقا به كل الفضائل والرذائل الإنسانية.

وعندما انفتح منها فى هذا الصندوق خرجت كل الشرور: المرض والجهل والفقر والظلم والكراهية والموت . .

وفى آخر لحظة أقفلت «بندورا» صندوقها . . على شىء واحد هو: الأمل!

أى الأمل فى التخلص من المرض والجهل والفقر والظلم والكراهية والموت . .

ولكن لا أمل فى التخلص من حاملة الصندوق: المرأة!

وعلى الرغم من أن الرجل يعلم هذه الحقيقة فإنه يحاول . .

ومن ضمن محاولات الرجل فى أن يتخلص من المرأة وعذاب المرأة وقيود المرأة: أن يكتب عنها وأن يضربها بالألفاظ الجارحة، وأن يشنقها فى المواقف الصعبة فى مسرحياته وقصصه . .

ولكن المرأة لم تقتلها الكلمات . .

فهذه الكلمات قد عاش بها الرجل . . لأنها هى جوهر الفن . .

حتى عندما يموت الرجل، فإن الفن يعيش بعده . . فالفن أطول عمرا من الفنان . . ومحاولة الخلاص من المرأة أطول عمرا من المرأة.

وعلى الرغم من أن هذه المحاولات تضايق المرأة . . فإن المرأة لا تدين بحياتها وتطورها للذين أحبوها، وإنما تدين بتطورها للذين لم يحبوها . . وللذين كرهوها أكثر!

فالمرأة لم تنل حريتها واستقلالها، لأنها كافحت وتعذبت . . وإنما بسبب إيمان

الرجل بالمساواة بين كل الأجناس وكل الألوان . . المساواة بين الأبيض والأسود والأصفر . . بين الغنى والفقير . . وبين الرجل والمرأة!

فليس حبا فى المرأة أعطاها الرجل حريتها . .

ولكن بسبب تقديسه للحرية، وتقديسه للمساواة وتقديسه للعدالة . . هو الذى أعطى المرأة حريتها فى أن تتعلم وأن تعمل، وفى أن تختار أسلوب حياتها، وفى أن تختار شريك حياتها، وفى أن تختار الأب المناسب لطفلها . .

والرجل لا يدين للمرأة بشىء . . إلا بالنتائج العظيمة التى ترتبت على مقاومته لها، وتحرره منها: أى بأعماله الفنية!

ولكن الرجل يعلم ما هو أقسى من هذا، يعلم أنه لا خلاص من المرأة . .

أو على الأصح يعلم أنه لا خلاص له من رغبته فى أن تكون له امرأة . .

أى لا خلاص له من طبيعته . .

إن الرجل يشبه البطل الإغريقى «سيزيف» الذى حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجرا إلى أعلى الجبل . . فإذا بلغ أعلى الجبل تدحرج الحجر إلى السطح، فيرفع من جديد . . وإلى الأبد!

فهو يعلم أن هذا هو مصيره . .

ويعلم أنه لا نهاية لرفع الحجر، ولا نهاية لسقوطه . .

ومع ذلك يرفعه ولا يتوقف . .

إن التاريخ لم يسجل لنا ما الذى قاله سيزيف وهو يصعد ويهبط . .

لا نعرف كلمة واحدة مما قال . .

ولكن من المؤكد أنه كان يلعن الحجر ويلعن القدر . . ويلعن طبيعته هو، التى تعاند القدر، وفى الوقت نفسه تستسلم له . .

ولا أستبعد أن تكون كلمات «سيزيف»، مثل هذه الكلمات التى جاءت فى هذا الكتاب!

إننى لم أسمعها منه . . ولا سمعها أحد!

ولكننى أحسست . .

وعانيت . .

وعبرت . .

وشكرا لصخرة البطل سيزيف :

هذه المرأة !!

من نفسى (*)

ونحن صغار كان يقال لنا : من يفتح حبة قمح فسوف يجد اسم الله مكتوبا عليها . .

وكنا نفتح حبة القمح . .

وكنا نجد اسم الله مكتوبا . .

ولم نكن نعرف ونحن صغار ـ لأننا صغار ـ أن حبة القمح معجزة فى ذاتها . وأن الله ليس فى حاجة إلى أن يوقع باسمه الكريم عليها . .

كم حبة ـ بل كم معجزة ـ كم بذرة . . فى ملايين الملايين من الأشجار . . وكم لونا . . وكم شكلا وحجما وطعما ووزنا وحلاوة ومرارة . كم عدد هذه الحبوب اللانهائية . . وكلها أدلة على عظمة الله؟

والكاتب، إنما يحاول أن «يقترب» من الله عندما يضع اسمه على كل شىء . . وعينه على كل لون، وأذنه على كل صوت، وأنفه على كل عطر، وأصبعه على كل جسم . . ثم يقول: إننى هنا . . إنى موجود أيضا . . أرى وأسمع وأتذوق . . وأحب وأكره . .

وبعد ذلك كله يمسك قلمه ليقول . . فيضع قلمه على الورق . . ويترك القلم يجرى وراء ظله . . أو يتركه يلاحق لعابه الأسود .

وكما أن العين لابد أن ترى، والأذن لابد أن تسمع، والأنف لابد أن يشم . . والقلب لابد أن يدق، فكذلك الآخرون . .

(*) مقدمة كتابى: « من نفسى » .

الكاتب لابد أن يقول ما فى نفسه . . وما فى نفوس . .

والكاتب فقط «يقترب» من الله . .

ولذلك فهو لا يستطيع أن يرى كل شيء وأن يسمع أى شيء . . وإنما فقط بعض الأشياء وبعض الأصوات وبعض المعانى .

وليس فى استطاعة أحد أن يقول كل شيء عن أى شيء . . أو حتى عن شيء . .

وإنما فقط أن يقول القليل عن القليل . .

فالكاتب ككل إنسان : محدود . .

لأنه يفكر فى الدنيا من خلال بضعة ثقوب . . بضع فتحات : عينيه وأذنيه وأنفه . .

وهذه الفتحات ضيقة . .

وهى فتحات فى حوائط من نوع غريب اسمها : الأمل واليأس والخوف والحب والكراهية . .

فمن وراء هذه الحوائط نلمس الدنيا . . وتلمسنا الدنيا . .

وهذه الحوائط تعزل الدنيا عنا ، وفى الوقت نفسه تجعلنا نراها أوضح . . إن هذه الحوائط مثل زجاج النظارة . . مثل زجاج الميكروسكوب . . والتلسكوب . . هى حوائط شفافة تقف بيننا وبين العالم حولنا . . ولكنها تقربه وتوضحه . . فهذه الحوائط ترى بعيوننا ، ونرى بعيونها ـ كما قال الشاعر القديم . .

ومعنى ذلك أننا نرى الدنيا من خلال ثقب فى ثقب فى حائط . . أى من عين بعد عين . .

إلى هذه الدرجة يصبح عالمنا محدودا . . عالم الكاتب والفنان . .

ولكن الكاتب ، رغم ذلك ، يحاول أن يرى أبعد ، ويسمع أعمق ، ويلمس أرق ، ويشم أكثر . .

ولا أحد قال كل شيء .

ولا استطاع!

وكل كاتب يحاول . .

ويكفى أنه حاول . .

وما أجمل ما قاله الأديب العظيم أوسكار وايلد عندما عاب الناس على أحد عازفى البيانو أنه لم يحسن العزف فقال: لا تلوموا العازف، إنه يبذل أقصى ما يستطيع!

وكلنا ذلك العازف.

وكلنا يعزف على أوتار نفسه . . ليسمعه ويراه الآخرون!

بقايا كل شىء (*)

هذه الصفحات هى بقايا دموع . . صدى صرخات . . ترددت بعيدا . . فى نفسى ، وفى نفوس الآخرين . .

لها طعم الملح ، ولسع النار ، ووخز الإبر ، وإلحاح الضمير وبريق الأمل . .

إنها خريطة لأعماق . .

وليست أعماقى - ولا كل الأعماق - واضحة . .

فأنا دائما أحاول ، دون ملل ، أن أوضح نفسى لنفسى ، أن أسلط نفسى على نفسى ، أن أقلب نفسى بيدى وأتفرج عليها . . برفق كأننى أحبها ، وبقسوة كأننى أكرهها !

وبين كراهيتى لنفسى وحبى لها : تتساقط الدموع ، ويتطاير العرق ، وتتمزق آهاتى ، وتضيع . .

وأضيع أنا . . فأنا لست إلا آهاتى !

وتنسحب كل ألوان الطيف ولا يبقى إلا لون دنياى : مرارة الطفولة ، وحيرة الشباب ، وفزع الرجولة !

ومن ومضة العين الخائفة ، ومن رجفة النفس القلقة ، ومن موت أصابعى على قلمى ، ومن ابتسامة زائرة لها لون الملح ودفء النار ، وطعم الضمير ، من كل هذا ، كتبت صفحات هى بقايا نفسى ، وشظايا الآخرين . .

إنها بقاياى . . إنها شظاياهم !

(*) مقدمة كتابى : «بقايا كل شىء » .

غلطة عمرى (*)

قال لى الرئيس السادات : إن غلطة عمرى هى عندما سألنى عبد الناصر عن نوع الحكم المناسب للشعب المصرى فقلت : الدكتاتورية!

وغضب عبد الناصر ، وراح يسخر منى فى كل وقت!

وقال لى السادات : إننى قلت ذلك لأننى أعرف عبد الناصر . . لأنه ليس ديموقراطيا ولا محبا لحرية الشعب . . وإنما يريد أن يحكم بالحديد والنار! فقد غضب لأننى حدثته عن أعماقه التى كان حريصا على إخفائها عن أعضاء مجلس قيادة الثورة . .

ولما كتب الرئيس مذكراته فى مجلة «أكتوبر» قال فيها : لقد وقعت فى غلطتين! هذه الغلطة ، وغلطة أخرى لم يشأ أن يذكرها . .

وتصادف أن سافرت مع الرئيس السادات بعدها إلى السعودية . . فاقترب الأمير سلمان أمير الرياض من الرئيس السادات وقال له : يا فخامة الرئيس إن أنيس منصور رفض أن يكشف لى عن الغلطة الثانية التى لم تشأ أن تذكرها فى مذكراتك!

ولم يقل الرئيس ، وكنت أعرف هذه الغلطة ، ولكن الرئيس طلب منى ألا أذكرها لأنها حساسة . .

وهذه هى غلطة عمر الرئيس السادات . .

وفى حياة كل منا غلطة كبيرة ، ونسميها غلطة العمر . والحقيقة إنه لا توجد غلطة عمر . .

(*) مقدمة كتابى : «غلطة عمرى» .

وإنما توجد أغلاط كثيرة على مدى العمر . . فكل يوم نقع فى غلطة ونخرج منها لنقع فى غيرها وهكذا . . إلى ما لا نهاية!

ولو بحثت فى حياتك لوجدت لك أكثر من غلطة ، ليس أقلها الزواج مبكـرا أو متـأخرا أو الزواج . . أو الامتناع عنه . . وأن يكون لك أولاد . . أو ألا يكـون لك أولاد . .

وتبدو هذه الأخطاء كبيرة كلما مر عليها الوقت ، فهو لا يمحوها . . وإنما يقويها ويجعلها تطغى على غلطات أخرى . . ومن بين الغلطات سوف تجد واحدة تشبه عصا موسى عليه السلام تبتلع كل الأفاعى التى ألقاها السحرة أمام فرعون . .

وهناك أخطاء ليس لها علاج ، غلطة عمر . . أو هى العمر كله . مثلا : كأن يندم الإنسان على أنه صار كاتبا ولم يكن تاجرا للمخدرات يكسب مئات الملايين !

ولو عدت إلى مناقشة هذا الرأى لوجدت أنك لا تصلح إلا أن تكون كاتبا . . صناعتك الكلام تقرؤه أو تكتبه ، وأن تجارتك هذه لا تعود عليك بالربح العظيم؛ لأن هذه السلعة ـ التى هى الكتابة ـ سعرها قليل . هى كده! وأنت لا تعرف إلا هذه البضاعة!

ولو حاولت أن تشتغل فى تجارة المخدرات ، لما استطعت ؛ لأنها صناعة أخرى تحتاج إلى قدرات ومواهب من نوع ليس عندك!

أذكر أن الكاتب الإنجليزى سومرست موم قد جاء إلى القاهرة قبل وفاته بشهور ، وكان مريضا مرتعش اليدين . . ولكن لا يزال حاد الذكاء حاضر الذهن ، فقلت له : أنت أغنى الأدباء . .

فقال مفتعلا ابتسامة أو محاولا أن يبتسم ولكن عضلات وجهه لم تساعده فقال : فعلا كسبت الملايين . . ولو كانت لى أية حرفة أخرى ما كسبت واحدا على مائة من ذلك!

أى أن الأدب قد أكسبه الملايين . . وأنه ليس نادما على ذلك ، ولا يرى أن الأدب غلطة عمره . . ولكن غلطة عمره ألا يكون أديبا!

وفى كتاب صدر أخيرا عن «المخرفين من العلماء» - أى العلماء العظماء الذين كانت لهم أفكار شاذة، أفكار ليست عظيمة . . أو تنتقص من عظمتهم . .

من بينهم العالم الفيزيائى الكبير أينشتين يقول: إن أكبر حماقة ارتكبتها أننى حاولت أن أجد تفسيرا واحدا للكون وأن أجعل هذا التفسير فى سطر واحد . . حماقة كبرى . . وغلطة عمرى كله . . ولن أسامح نفسى عليها!

مع أنه مجرد طموح علمى!

والعالم الأمريكى لينوس بولنج الذى حصل على جائزة نوبل مرتين: مرة فى الكيمياء ومرة فى السلام قال: وأنا غلطت غلطة عمرى . . وهى أننى أيقنت تماما من واقع تجربتى أنه لا شىء يطيل العمر إلا فيتامين ج . . الموجود فى الليمون والبرتقال . . وأن الذى يسرف فى تعاطيه يطول عمره كما طال عمرى . . هذه غلطة لأننى لم أقدم عليها أى دليل علمى، ولن أسامح نفسى على مثل هذه العبارة!

أما غلطة عمرى أنا فهى أنه ليست هناك غلطة واحدة وإنما ألف ألف!

من بينها هذا الكتاب . . ومن قبله مائتا كتاب!

ثم ضاع الطريق (*)

لا تسأل طبيبا ولا عالما ولا باحثا . . إن كان حقا أنك لم تعد تشكو من صداع فى الرأس أو تشنج فى الأمعاء أو ثقل فى المعدة . . ما دام هذا شعورك فكن سعيدا . .

لا تسأل أحدا إن كنت تنهض من نومك بعد ساعة فتحس كأنك نمت أربعا وعشرين ساعة . .

لا تحسد نفسك إن وجدت نورا قد فجر من جنبك ومن عينيك . . لا تسأل أحدا إن وجدت أنك لا تمشى على الأرض وإنما فوقها . .

لا تسأل أحدا إن كان ثوبك الأبيض ليس إلا ريشا تطير به . . إن كان إلا مظلة واقية هبطت من السماء إلى ما فوق الأرض . .

لا تسأل أحدا إن كنت لا تتعب من الجلوس على الرخام وتسجد على التراب بين عدد من الأحذية والشباشب ، فلا تشعر بتعب ولا تضيق برائحة ـ فذلك فضل الله عليك . .

إنك لا تتعب إذا أكلت وإذا شربت وإذا ركعت وإذا سجدت وإذا نمت وحتى إذا نسيت أن تفسح لرأسك مكانا بين الجزم ونسيت أن تنفض التراب عن جبهتك . . لا تحسد نفسك على هذه النعمة . . فأنت فى حالة من الاستشفاء . . من العلاج الروحى . . من الصفاء من النقاء من البهاء . . فهذا هو الهدف من طريقك الطويل ، والغاية من سعيك إلى الله ورسول الله . .

(*) مقدمة كتابى : « ثم ضاع الطريق » .

أسندت ظهرى إلى أحد الأعمدة ووجدتنى قد نمت نوما عميقا . كيف؟ إن شيئا من ذلك أو بعض ذلك لم يحدث لى من قبل . . وظننت أن هذه مرة لا تعود . . وفى اليوم التالى جئت وأسندت ظهرى إلى الرخام ومددت ساقى على الرخام ووضعت يدى على الرخام وجاء النوم ثوبا من البلاستيك الحريرى يمنع عنى جفاف الأرض وبرودة الجو وكأننى جنين فى بطن أم . . وكأننى ولدت من جديد . . خاليا طاهرا مطهرا . .

كيف؟ لا أسأل ولكنها الراحة النفسية والسعادة العقلية والميلاد الجديد . .

كيف؟ لا يهمنى أن أعرف ، ولكن هذا ما حدث . .

كيف تم التشخيص والعلاج فى لحظة واحدة؟

كيف تسرب كل ألم ، كل وجع ، كل قلق ، كل خوف ؟ . . كيف الشعور بالأمان والإيمان . . كيف أحسست بأن عفوا قد صدر كيف سمعت هذا الحكم القاطع النهائى يتردد فى خلاياى . . كيف أننى محمول على أكتاف ملايين الخلايا تتظاهر وتهتف : مبروك يا حاج . . براءة !

الحيوانات ألطف كثيرا (*)

قال لى السفير المصرى : يمكنك أن تأكل أى شىء الآن . . وبعد ذلك تتناول عشاءك معنا، ما دمت مصرا على الصيام . .

واسترحت إلى هذا الحل، فلم أجد سببا قويا يمنعنى من الصيام ما دمت قادرا، ولم أرى غروب الشمس ولم أسمع أذانا من أى مسجد، فمسجد طوكيو بعيد جدا، ولا أعرف ما الذى يفعلونه هنا فى رمضان. وإن كنت أتمنى أن أرى وأشارك وأعرف وأكتب بعد ذلك .

وحسبت فرق التوقيت بيننا وبين القاهرة فوجدته سبع ساعات . . وسألت عن غروب الشمس . . فوجدت أن أمامى نصف ساعة . وجلست أفكر فى الطعام والشراب، أما الشراب فأعرفه تماما، إنه كوب شاى ساخن . وفتحت الثلاجة الصغيرة فوجدت بها مشروبات كثيرة وبعض الشيكولاتة والبسكويت، ومددت يدى إلى التليفون أطلب أى سندوتشات جبنة، ودار الحوار بينى وبين الجرسونة . .

هى تسأل : تريد سندوتشات؟

- نعم .

- كم عددها؟

وتذكرت أننى فى اليابان فكل شىء عندهم صغير . فإذا قلت لها : سندوتشات فسوف تكون فى حجم علبة السجائر . . وإذا طلبت منها ساندوتشا كبيرا، فسوف يجىء فى حجم الكف وأنا ميت من الجوع . . فقلت لها : أكبر سندوتش عندك . . واحد . . اثنين . . ثلاثة . .

(*) مقدمة كتابى : «الحيوانات ألطف كثيرا» .

- يعنى كم؟

- يعنى ثلاثة سندوتشات كبيرة محشوة بالجبن . . كثير من الجبن . . هل عندك طماطم . . طازة ؟ . . مطبوخة ؟

- طازة . . كم واحدة .

- هل هى صغيرة أو كبيرة؟

- صغيرة .

- خمس حبات .

- هل عندك ليمون؟

- زجاجة؟ - لا . .

- عصير ليمون طازة .

- لا أفهم . .

- مش مهم . . مش عاوز ليمون هذا يكفى . شكرا .

وطلبتنى تسألنى : هل أريد السندوتشات؟

- نعم .

- ولكنك شكرتنى من دون أن أعرف . .

- شكرتك طبعا . . فماذا فهمت أنت؟

- ظننت أنك شكرتنى على الحديث معك ومحاولة التفاهم . .

- يا ستى هات أى حاجة فى عرضك أنا صايم .

- ماذا تقول؟

- لم أقل أى شىء . . أريد السندوتشات بسرعة . .

- بسرعة يعنى بعد كم من الوقت .

- كم تحتاجين من الوقت؟

- ساعة!

ـ يا نهار أسود! هات السندوتشات من غير جبنة، أو هات الجبنة من غير ساندوتش . . ممكن؟

ـ لم أفهم . .

ـ أين أنت؟

ـ فى المطعم.

ـ وأين هذا المطعم.

ـ فى الغرفة ١١٣٧٠ .

ـ وأين هذه؟

ـ فى الدور الحادى عشر . .

ـ وكيف أصل إليك . .

قالت: أن آخذ الأسانسير إلى الدور الخامس . . وأتجه إلى اليمين، ثم آخذ الأسانسير إلى الدور الثامن . . ثم أتجه إلى اليسار، وآخذ الأسانسير إلى الدور الحادى عشر . . وسوف أجدها فى انتظارى . .

سألتها: وكم أحتاج من الوقت لكى أصل إليك؟ . .

ـ نصف ساعة!

وسألتها: لو أنت جئت فكم تحتاجين من الوقت؟

قالت: ساعة تقريبا.

فصرخت: لماذا وأنت تعرفين الطريق أكثر منى؟!.

ـ نعم . . ولكن لابد أن أسجل كل ذلك فى الأوراق ثم إن هذا النوع من السندوتشات ليس موجودا هنا . . يجب أن أذهب إلى الفرن . .

ـ لماذا؟

ـ لأننا لا نتناول هذه الكميات الكبيرة من الطعام . . إنها تكفى لعشرة من اليابانيين وأولادهم!

ـ يا بنتى أنا جائع جدا . . هات لى سندوتشا واحدا. كم تحتاجين من الوقت؟

ـ ساعتين؟

ـ لماذا؟

ـ لأننى يجب أن أذهب إلى الفرن وألغى طلباتك كلها . . وأكتب اعترافا رسميا بأنها غلطتى . . وأنا اللى فهمتك خطأ . . وأكتب أنا مستعدة لأن أدفع ثمن هذه السندوتشات . فهى غلطتى .

ـ وإذا عدلت عن هذه السندوتشات . وقررت أن أدفع هذه الغرامة نيابة عنك . .

ـ هذا مستحيل . أنا غلطانة ويجب أن ألقى جزائى !

ـ وأنت ما ذنبك؟

ـ أنا فهمت غلط ، وقد طلبت منى الإدارة من ستة شهور أن أتقن اللغة الإنجليزية ، فكذبت عليها وقلت إننى أتقنها !

ـ يمكن أنا اللى لغتى الإنجليزية ضعيفة ، ولذلك أنت لم تفهمينى !

ـ الزبون دائما على حق يا سيدى ! وأرجوك ألا تفعل شيئا من أجلى حتى لا يساء فهمى ، وحتى لا تظن الإدارة أننى رجوتك أن تفعل ذلك .

ـ ولكنك لم تطلبى منى شيئا؟

ـ أنا فقط التى تعرف ذلك .

ـ وإذا فعلت؟

ـ فسوف يلقون ملابسى من النافذة .

ـ فى اليابان يفعلون ذلك؟

ـ ولكنى لست يابانية !

ـ . . . .

وانسدت نفسى وضرب المدفع فى القاهرة وتوالى صوت الأذان فى كل الدول الإسلامية . . وأكلوا وشربوا وناموا وقاموا يستعدون لتناول السحور . وأنا لم أذق لقمة واحدة ، ولا فى نيتى أن أفعل ذلك بعد الذى حدث !

وفى حياتى حكايات أخرى أعجب وأغرب

أحب وأكره (*)

فجأة وبمنتهى السخافة وسوء التقدير طلعت علينا الصفحات الرياضية ـ أو المسئول عن الشباب والرياضة فى مصر ـ تتهم الحكم فى مباراة بين مصر والسعودية بأنه تقاضى رشوة ليحكم ضد الفريق المصرى!

سؤال: هل فى الرياضة لابد أن ينتصر المصريون أو أى شعب آخر إذا لعبوا مع أى شعب آخر؟ ألا تنهزم أكبر أندية مصر أمام أصغر أندية مصر؟ فهل السبب فى الهزيمة أن النادى الصغير قد اشترى الحكم؟ ألا يدخل فى حساب أى لاعب أن الرياضة منهزم ومنتصر . . وأن مبادئ الأخلاقيات الرياضية قبول الهزيمة بروح سمحة . . أو بروح رياضية، أى روح تقبل الهزيمة وتقبل النصر؟ . .

سؤال: لماذا نتصور دائما أننا أفضل الدول ـ أو الدول العربية ـ فى كل شىء؟ نحن أقدم وأكثر عددا وبيننا عدد أكبر من المتعلمين والعلماء، لا شك فى ذلك، ولكن من قال إن الدول العربية وقفت تماما تتفرج علينا . . وليس من أبنائها أحد قد تخرج فى جامعات أوروبا وأمريكا؟ من قال: إن هذه الدول الغنية قد أوقفت نموها من أجل أن تظل متخلفة؟

من قال: إننا أشطر التجار؟ ليس صحيحا فأهل الكويت وأهل السعودية أشطر فى التجارة، وسوف ترى أهل فلسطين، ومن بعدهم ومن قبلهم أهل سوريا. .

صحيح عندنا صناعات كبرى ناجحة، وعندنا رجال أعمال بارعون . . وعندنا مدن متطورة، ولكن فى السعودية أيضا صناعات جبارة، وفيهم علماء وتجار شطار. . بل إننى رأيت ـ بالمصادفة ـ عددا من الفتيات السعوديات الصغيرات فى

(*) مقدمة كتابى: «أحب وأكره».

اجتماع عائلى ، والله أسعدنى أن أرى وأن أسمع وأن أناقش . والمناقشة على مستوى رفيع من الفهم واستشعار المسئولية والدور الجوهرى للمرأة السعودية والرجل السعودى أيضا .

فإذا كانت هذه حالهم فى العلم ، فكيف تكون حالهم فى اللعب وهو ألذ وأمتع وأكثر شعبية؟ كيف لا تملك السعودية أن تشترى «الخبرة الرياضية» وأن تأتى بأحسن المدربين لشبابها؟ وكيف لا تكافئ النابهين من لاعبيها؟ . . وطبيعى أن يؤدى كل ذلك إلى تفوق فى اللعب والتدريب واللياقة والأهداف . .

لماذا يتصور الرياضيون فى مصر - الذين ليس لديهم روح رياضية - أننا احتكرنا الرياضة واحتكرنا الأهداف . . فإذا لم يتحقق لنا ذلك فهناك مؤامرة سعودية على هزيمة مصر . . وهذه المؤامرة تبدأ من شراء الحكم الدولى من أجل هزيمة مصر؟!

ليس أسخف من هذا الموقف من الوزير المسئول عن الشباب والرياضة فى مصر ، ولا أعرف كيف تأكد سيادته من هذه الرشوة ، وكيف رأى جنابه العالى أن مصر لا يهزمها أحد لا فى الرياضة ولا فى غيرها . . ولم يفكر فى الوقت نفسه أن مصر لا تستحق أن يكون على رأس الرياضة واحد قام يبهدلها وجعلها أضحوكة بين الفرق الرياضية لمجرد أنها انهزمت أو كادت . . مع أن كل يوم ينهزم فريق مصرى أمام فريق مصرى أو أجنبى . . وكل يوم تنهزم الألوف من الفرق الرياضية ، دون أن تكون السعودية قد اشترت مئات الألوف من الحكام فى كل الدول!

وفجأة تتحول الأقلام الرياضية إلى أوركسترا تعزف لحنا واحدا . اللحن الواحد : أن مصر لا تنهزم لا فى الحرب ولا فى السياسة ولا فى الرياضية .

ولكن لماذا؟ ومن قال ذلك؟ وعلى أى أساس؟ إذا كانت الهزيمة الرياضية يومية ، والهزيمة العسكرية قد حدثت لنا ولأعظم دول العالم مثل أمريكا واليابان وألمانيا . . والرياضة كالحرب ؛ منكسر ومنتصر . . ولكن الرياضة هزائم بلا ضحايا وبلا دماء . . وهزائم مقبولة وهزائم رياضية تدفع إلى انتصارات رياضية!

وليس أسخف من مثل هذه المواقف الشخصية التى تجرجر مصالح الشعوب إلى أدنى مستوى ، والخسارة فادحة للجميع ، وليس من حق شخص واحد - أو اثنين - أن يجعلنا ندفع ثمنا فادحا لحماقات شخصية!

إن الموضوعية وحسن التقدير والتسامح هو المنظار الذى يجب أن نتطلع به إلى كل شىء فى الدنيا . . فى اللعب وفى الجد أيضا .

ألوان من الحب (*)

إذا كنت تحب فتاة وهى لا تعلم أنك تحبها، فأنت لا ينقصك إلا الشجاعة لأن تقول لها إنك تحبها!

وإذا كنت تحب فتاة وهى لا تحبك، فأنت تعيس، وعليك أن تكف عن محاولة جذبها إليك!

وإذا كنت تحب فتاة وهى تحبك . . فيا بختك!

جاء شاب يسألنى: إننى أحب فلانة وأشار إلى فتاة كانت تقف بالقرب منا، وقال: ولكننى لا أستطيع أن أقول لها إننى أحبك . . ولا أعرف كيف أقول لها ذلك إذا أنا استطعت . . لقد حاولت أن أقترب منها، ولكنها كانت بعيدة بعيدة . . وحاولت أن أفتح عينيها ولكننى لم أستطع، وحاولت أن أبين اصفرار وجهى، ولكنها لم تلتفت إلى وجهى أو إلى وجودى كله . . لقد سبقنى إلى عينيها وإلى أذنيها الكثيرون من زملائى فى الجامعة . . فماذا أصنع؟

وأخذ الفتى يتوجع ويبكى وكأن فى حلقه شوكا . . وجعل يكتفى بالنظر إليها من بعيد . . فإذا ضحكت ارتفع صدره، وإذا وقفت إلى جوار شاب آخر هبط صدره . . وإذا مالت على أذن شاب، تلمس الدمع فى عينيه . .

ثم نظر الفتى إلى وقال: إنه عذاب شديد . . أن يحب الإنسان فتاة لا تحس به ولا تراه ولا يستطيع أن يقول لها ذلك . . إن الكلمة تقف على لسانى، ولا أعرف كيف أقولها . . كلمة «أحبك» كعصفور بلا ريش . . إننى إذا أطلقته سقط تحت قدمى . .

(*) مقدمة كتابى: «ألوان من الحب».

وأخذ الفتى يصلى لله ويدعوه أن يجعل قلبها يرق لحاله، وأن يتحول إليه . . ولكن الدعاء لا يفيد، والله لا يأخذ بيد الخائفين . .

وروى لى الفتى أن صاحبته هذه قد انتقلت نظراتها إلى شاب آخر ليس أحسن منه صورة ولا أكثر منه ذكاء ولكنه أكثر منه شجاعة . . والتفت ذراعاها حول خصره، وأخذت تدور حوله كما يدور القمر حول الأرض . . إنها تدور وترقص . . أما هذا الفتى الخائف فهو الذى أصابته الدوخة . . إنها ترقص، أما هو فيدوخ ويهذى ويقول: إننى أحبك ولكننى لا أملك الشجاعة. إننى أحب نحافتك وسواد عينيك ومشيتك وأنت تقفزين كالطائر . . إننى لم أستطع أن أقول لك ذلك ولكننى قلتها لنفسى.

وكل ما ينطلق من الشفتين ولا يبلغ أذنيها فهو وهم. والحب ليس وهما بل هو حقيقة، تتم بين طرفين متجاوبين . . والطريق إلى قلب المرأة يبدأ بالشجاعة وينتهى بالتضحية!

* * *

وهذه قصة أخرى

أعرف فتاة جامعية جميلة، طويلة، لها عينان لامعتان وعقل أكثر لمعانا، وسمرة دافئة، وقلب أكثر دفئا . . لا أكاد أراها حتى أسألها: كيف الحال؟

فتقول: أبدا . . لا جديد . . الحال كما هو . . حاولت أن أفهم موقفه، ولكنى لم أفلح! إذن سأظل هكذا أتعذب ويظل هو لاهيا عابثا . . النار فى قلبى، والماء فى يديه، والسهر فى جفنى، والراحة فى عينه، والحب أحرسه، واللهو يحرقه . . وأنا أقطع الليل وحدى، وهو يقطع الليل مع أخريات . .

كان تلميذا بليدا، وساعدته حتى نجح . . كان تلميذا يائسا فنفخت فى روحه وملأته أملا وثقة . . كان يريد أن يكتفى بالتوجيهية، فدفعته إلى الجامعة . .

هل تعرف أن حكايتى مع حبيبى هذا كحكاية البطل المسكين «سيزيف» الذى تقول عنه أساطير الإغريق إن الآلهة قد حكمت عليه أن يدفع أمامه حجرا إلى قمة

الجبل . . فكان كلما بلغ القمة تدحرج الحجر إلى السفح فيعود يدفع الحجر إلى القمة . . فيسقط إلى أسفل الجبل . . وهكذا . وأنا أعلم أن هذا الحجر سيسقط ولكننى مع ذلك أعمل المستحيل . . إننى أتحدى يأسه وأتحدى إهماله لى ، وهيامه بالأخريات . . إننى جعلت من حبى له قوة خارقة ، وجعلت من حبى له سياجا من حديد ، وجعلته نارا لا تنطفئ وريحا تدفع سفينته إلى الأمام . . حتى دخل الجامعة . . وفى الجامعة ضاع منى . . فى الزحام . .

ثم تقول : لقد كنت أتعذب منه وحده . . أما اليوم فأنا أتعذب منه وله . . ومن كل الفتيات الأخريات . . إذا رأيته يضحك لهذه الفتاة بكيت ، وإذا رأيته ينحنى لهذه الفتاة ، انكسر ظهرى . . إننى أنا التى أحترق ليضىء هو . . إننى مصدر الضوء والسعادة له ، ولكننى حزينة . آه . .

وكنت أسألها دائما : ومن أين تعرفين أنه لا يحبك . . كيف؟ هل قال لك ذلك؟ هل هو يحب فتاة أخرى؟

وكانت تقول : ولكننى أرتعد إذا تركنى ، وأبكى إذا لم يقبِّلنى وأمرض إذا لم يعانقنى . . إننى أريده بين أصابعى وبين عينى وفى أذنى . . ولكننى أفتش عنه فأجده كالخاتم فى أصابع الفتيات وكالعقد فى أعناقهن . . وكالكرة فى أرجلهن!

وأسألها : ولكن عندما يكون معك ألا يقبل عليك ، ألا يستمع لك ، هل تغير عن ذى قبل؟ هل سمعت منه أنه لا يحبك؟

فتقول : لم يتغير منه شىء . . ولكنه إحساس بأنه لم يكن كذلك . . لم يكن كذلك . . فلهجته غريبة ونظرته غريبة .

وكنت أضحك وأقول لها : إن حواء كانت تتشاجر مع أبينا آدم وتقول له : لقد لاحظت أنك تغيرت هذه الأيام . . ولا تكاد حواء تكمل عباراتها حتى تتعالى أصوات الذئاب والأسود والنمور والطيور والقرود فى الغابة . . فلماذا يتغير آدم . . لأنه أحب قردة أو ذئبة . . فحكاية «التغير» هذه تهمة قديمة . . إنه يحبك ولكن لا يبدو عليه ذلك ، فهنالك أناس تظهر عليهم العواطف وأناس لا تظهر عليهم . . فالزجاج شفاف لامع ، والنحاس مظلم والحديد صفيق . . والحديد والنحاس أقوى من الزجاج . . وهو كالحديد أو كالنحاس متين وقوى وثابت ولكنه معتم لا يكشف عما وراءه . .

مسكينة هذه السمراء الجميلة . . إنها تحرس عصفورا فى حجرة : نوافذها مفتوحة . . فإذا طار العصفور تبكيه ولكنه يعود إليها . .

وفى كل مرة يتركها تفتقده وتبكى على فراقه . . كأنه فراق بلا لقاء . . !

مسكينة إنها تحبه وهو لا يحبها ولكنها تقاوم وتتحدى المستقبل!

* * *

وقصة فتى وفتاة . . هو يحبها وهى تحبه . . أحبها وقال لها ذلك . . وأحبته وقالت له ذلك . . إنها تراه فتحس أنها تطير إليه ، ويراها فلا يرفع عينيه عنها . . ويدق قلبه إذا رآها ، ويخفق قلبها إذا رأته . . كأنه أول لقاء أو كأنه وداع إلى الأبد!

وفى الصباح يحرك يده وتسبقه أصابعه إلى التليفون ويقول : أهلا حبيبتى! أهلا روحى!

وتقول حبيبته وروحه : إزيك يا روحى!

وهذا كلام حقيقى بلا كذب . . فيه حب وفيه شوق وفيه حنين . . كأنهما مشدودان بحبل من المطاط إذا ابتعد بعضهما عن بعض ارتدا بعنف . .

هذا اسمه حب حقيقى!

ولكن لا حب بلا خطر ، لا حب بلا قلق بلا خوف بلا فزع . . وحين يدخل الإحساس بالخطر ، يصبح الحب أكثر عنفا ، وأكثر قسوة!

ماذا يحدث للجسم إذا دخله ميكروب؟

يقوم الجسم بحشد كريات الدم وينظمها للقضاء على هذا الميكروب ، ويلتهب الجسم وترتفع درجة حرارته فى هذا الكفاح المسلح ضد العدو الأجنبى!

فإذا تكاثرت الميكروبات ، انهزمت كريات الدم ، ومرض الجسم وأصبحت الحياة فى خطر!

وفى الحب يحدث هذا الغزو الخارجى!

وكان الفتى يسألها : من الذى خرجت معه قبل أن تعرفينى . . من الذى عانقك أول مرة؟ من الذى رقصت معه أول مرة؟ مع من كانت أول زجاجة بيرة؟ مع من كانت أول نزهة فى النيل؟ مع من سهرت ليلة رأس السنة؟

وكانت الفتاة تذكر له أسماء هؤلاء الذين شربت معهم ورقصت معهم وتنزهت معهم . .

وكان هو يقول: آه . . إذن أنت رقصت وسكرت وخرجت مع هؤلاء جميعا!

ويدوى هذا الصوت فى نفسه وتتكاثر الميكروبات على الدم وترتفع درجة حرارة الغيرة . . الغيرة من ماضيها . ويمرض الجسم، ويهدد حبل المطاط بالانقطاع!

ولكن يعود فيرى أن هذا كله حدث فى الماضى، وأنه لم يكن يعرفها، وليس من حقه أن يسألها عن ماضيها . . ثم تعود الميكروبات تهاجم الجسم . . ويظهر فى حياتها أحد أقاربها أو أحد زملائها فى العمل أو أحد جيرانها . . وتنظم الميكروبات هجماتها وترتفع درجة حرارة الغيرة ويلتهب الجسم . تظهر عليه التهابات فى مناطق متعددة وتتحطم قصور النوم السعيد، وتنقطع الدموع عن العين، ويطير النوم من الجفون، وتستولى ميكروبات الغيرة على خطوط تموين الجسم . . فلا طعام ولا شراب ولا مأوى!

ولكن كريات الدم تقاوم إلى آخر لحظة . . ويرتد العدو ويتحصن فى الرأس ثم ينسحب إلى القلب، ثم يتوارى نهائيا . . ويرفع الراية البيضاء . . لقد استسلم الميكروب!

وتحت هذه الراية البيضاء يقف الفتى والفتاة ويتواريان عن الأنظار فى قبلة طويلة مرتجفة لها اسم واحد هو: الحب!

إنهما سعيدان . . فيا بختهما!

* * *

أما إذا كنت تحب فتاة ولا يعنيك أن تعرف هى ذلك، ولا تحاول أنت أن تقول لها، ثم تجد متعة فى الحب . . فأنت من الملائكة أو من القديسين!

وهذا الذى لديك ليس حبا وحسب وإنما هو عبادة يحسدك عليها الكافرون والأشقياء والسعداء معا!

يا من كنت حبيبى (*)

لو عادت الأيام . .

لو رجعت إلى ذلك الشارع الطويل فى الزمالك . . على النيل . . كان أكثر ظلاما . . كان أكثر همسا . .

كانت أشجاره أذرعا حانية . .

كانت ظلاله أحضانا دافئة . .

كان ضياؤه الخافت فاضحا لمشاعرى الصغيرة . .

لو عادت تلك الأيام وأنا أمشى على الأرض . . طبعا على الأرض . . لم أكن أعرف وسيلة أخرى للمواصلات والوصال والاتصال غير المشى . كنا نمشى . . ونقول ونحن نمشى . . ونتلامس ونتهامس ونحن نمشى .

وكنت أيامها أحس أن الدنيا كلها تمشى ورائى . . إلى جوارى . . وأمامى . .

كنت شجرة فى غابة متحركة . . كنت شعاعا هاربا من قمره . . كنت ليلا هاربا من شمسه . .

لو عادت تلك الأيام . . لعادت تلك الحيرة . . تلك الدوخة . . فأنا أدور حول نفسى وأدور فى نفسى . .

كل الدنيا كانت هنا . . تحت يدى . . ويدى على قلبى . . وقلبى على معدتى . .

ولا أعرف أين أنا من كل هذا الذى فى داخلى . . ولا أعرف إن كنت أنا فى داخلى . . أو فى خارجى . . أو كنت فى أى مكان . .

(*) مقدمة كتابى : « يا من كنت حبيبى » .

لو أعادت الأيام لحارت الكلمات، وطاشت اللمسات . . ففى تلك الأيام لم أكن أدرى ما الذى أقوله ولا لمن أقوله.

وفى تلك الأيام حاولت أن أقول . .

وفى هذه الأيام تجرأت على نشر ما قلته فى خجل الفتاة التى برزت أنوثتها . .

والفنان أو الكاتب فيه هذا الخجل أيضا . .

وفيه هذا الخوف أيضا . .

فهو يخاف أن يجد نفسه فجأة «منظورا» من الناس. أو «موضع نظر الناس» . . أو ملتقى العيون التى ترحم . . وكثيرا ما لا ترحم . .

لو عادت الأيام لأخفيت ما قلت . .

وخيرا أنها لا تعود . . ويستحيل أن تعود . . ومن هذه الاستحالة أمكننى أن أنشر هذه الصفحات!

* * *

أيامها كان كل شىء يقول الكثير فى عينى وفى أذنى وفى قلبى . . .

أيامها كان الليل صديقى والقمر رفيقى والأرق عشيقى . . .

وكان القلم عكازى، أو كنت عكازا لقلمى . . .

وكانت لمحة العين طويلة العمر، وكانت لمسة الإصبع تطيل العمر.

. . أيامها كان عقلى يدق فى قلبى . . .

وكان عقلى يكوى أحشائى.

وكنت شعلة من النار: أحرق وأحرَق، وفى ضوء هذه النار وعلى لظاها، وخوفا منها، وحرصا عليها:

تناثرت هذه السطور!

مدرسة الحب (*)

كل ارتباط هو شيء متعب . .

سواء كان ارتباطك بإنسان تحبه أو بإنسان تكرهه. وربما كان ارتباطك بالذى يرهقك أكثر . . لأنك مرتبط به ومربوط فيه . . ولأنك قدرت منذ البداية أن تظل معه . . إلى جواره فى المقعد أو فى الفراش . .

أو إلى جواره حتى يكبر إذا كان طفلا ، وحتى يموت إذا كان أبا أو أما ، أو حتى تموت أنت إذا كانت زوجة . .

ولذلك فالصداقة كالعداوة : فأنت على صلة بشخص . . مشغول به . . تفكر فيه . . أو تعمل له حسابا . .

ولكن لأن الصداقة تحتاج منك إلى تضحية ، فهى متعبة مرة أخرى . . فالشخص الصديق يجب أن تحرص عليه ، وهذا الحرص يجعلك تبتلع له الغلط والسهو والقسوة عليك .

وهذه المتاعب فى الصداقة كالبذور فى الفاكهة . . كالشوك فى الوردة . . كأظافر القطة التى تحبها . . إنها جزء من شروط الصداقة . . وعليك أن تقبلها . . لأنه لا حلاوة بغير نار . . ولا نار بغير دخان . . ولا لذة بلا تعب . . ولا عاطفة بلا قلق وخوف . . ولا حياة بلا صديق . . أو حبيب . .

وإذا كانت هناك حياة وليس فيها أصدقاء فهى أقسى جدا من حياة بها كثير من الأصدقاء المتعبين . .

(*) مقدمة كتابى : «مدرسة الحب » .

ويظل الإنسان فى حياته يتقلب على جانبى النار والأرق والقلق والخوف واليأس والأمل حتى يتكون له رأى فى النهاية هو:

الصداقة كالعداوة شر لابد منه . . والحب والكراهية كالليل والنهار . . كالماء والنار . . كالشمس والظل . . كالحياة والموت . .

وأروع العلاقات هى ما بين رجل وامرأة . .

وهى أقسى العلاقات أيضا . .

فمن السهل أن تكون صديقا، ومن الصعب أن تكون عشيقا، وأصعب من ذلك أن تكون زوجا . .

فكلما اقتربت أكثر تألمت أكثر . .

وكلما ارتبطت أكثر تعذبت أكثر . .

ولا يوجد هناك حل . .

فهذه مشكلة اختارها الإنسان وفرضها المجتمع، وقد جرب الإنسان فى حياته الطويلة على الأرض أشكالا أخرى من العلاقات الإنسانية . . ولكن لأسباب غامضة اختار الزواج . . واقتنع به وأقنع به الآخرين، وتضافرت قوانين الأرض والسماء من أجل أن يبقى الزواج هو الرباط الذى يمسك نوافذ البيت وأبوابه وسقفه من أجل أن يلتف عدد من الناس حول مائدة واحدة . . أو فى فراشى واحد، أو فى مواجهة حاضر ومستقبل ومنفعة مشتركة . .

ولكن هذا ليس دليلا على أن هذه سوف تكون حال الإنسان فى المستقبل . . فالذى يفعله الشباب فى العالم كله، ويفعله الرجال الناضجون فى السويد والدانمرك، دليل على أنه من الممكن أن تكون هناك سعادة بلا قيود . . أو تكون هناك أسرة بلا زواج . .

والدولة تقوم بما يقوم به الأب وتقوم به الأم، من العناية والرعاية والإنفاق على الأطفال . . الذين هم مصدر التعاسة والسعادة فى كل بيت.

وباسم هؤلاء الأطفال ارتكبت كل أنواع الجرائم بحسن نية وسوء نية . .

والحياة مليئة بالتجارب والصدمات التى تجعل العاشق الولهان يفيق إلى أنه اختار شيئا غريبا . . وأنه مخمور، أو كان مخمورا . . ولابد أن يصحو . . فإذا أفاق فإنه يجد الدنيا قد سحبت ألوانها وموسيقاها ويجد نفسه أمام شخص لا يعرفه . . أو لا يعرفه بدرجة كافية . . فكيف رأى فتاته بهذا الجمال . . وكيف رآها قادرة على صنع المعجزات.

وأولى معجزاتها أنها جعلته يتزوجها، ولم يكن فى نيته ذلك . .

وثانى معجزاتها أنها جعلته يختار معها فراشا واحدا . . وأن يقتسما كل ما فى الدنيا من هموم ولذات . .

وثالث معجزاتها أنه لم يكن يحتمل من أحد أن يقول له كلمة واحدة - فليس لأحد عليه هذا الحق - أما الآن فيسمعها تقول فى وجهه ما لم يكن يتوقع منها، فهى تراه: لا شىء . . لا وزن له . . لا قيمة له . . وأن أى إنسان أحسن منه . . وأنها بزواجها منه خسرت كل شىء . . وأنه خدعها وأنه كذب عليها . . وضللها . . وأنها دون سائر الفتيات لا تجد السعادة ولا الراحة . . ولا الكلمة ولا اللمسة ولا الهمسة . . وأنه خير لهما أن ينفصلا . . وأنه إذا كان شجاعا أو رجلا فليطلقها . . ولكنه لا يستطيع لأنه ليس رجلا ولا شجاعا . . وأنها تعرف عشرات الفتيات كن يضربنه على قفاه . . وأن من حقها أيضا أن تضربه على قفاه وعلى وجهه . . أليست مثل الفتيات الأخريات؟!

ويتغير أسلوب أداء هذه اللعنات من بيت إلى بيت . . ومن طبقة إلى طبقة . .

ولكن المعنى فى كل البيوت وعند كل الأزواج واحد . .

والأزواج لا يقولون شيئا لأحد . . إنها فضيحة صامتة . .

وبعد أن يسمع الزوج مثل هذا الكلام تتحقق المعجزة الرابعة وهى أن يبقى إلى جوار الزوجة أيضا؛ لأن الذى قالته يعجبه . . ولا لأنه ضعيف . . ولا لأنه اعتاد الشتائم والهوان . . ألم تكن تضربه أمه وهو صغير . . ألم يكن يضربه المدرس . . إذن، فليس غريبا أن تجىء زوجته وتضربه بالنيابة عن المجتمع وكما كان يفعل المجتمع أيضا . .

ولكن لأن الرجل - عادة - يرى أن نصف حياة المرأة فى لسانها والنصف الآخر فى دموعها . . وأن هذا الذى تقوله هو طبع فيها . . كما أن فى طبع القط أن يخربش والطيور الجارحة أن تسيل الدم . . أو فى طبع الأفعى أن تلدغ . . إنه طبع فيها . . ولا حيلة لها . . ولا توجد لديها أية وسيلة أخرى للتعبير عن الغضب . .

ثم إن هذه هى طبيعة المرأة . . فإن كنت لم تعرف المرأة، فكيف ارتبطت بها؟ إنه من الواجب أن تعرف ذلك مقدما . . وأن تتوقعه . . وأن تعتاد عليه . .

فكل زوجة هى زوجة الفيلسوف سقراط.

ذلك الفيلسوف العظيم الذى يراه الناس كبيرا، ولا تراه زوجته كذلك . . يراه الناس يغسل عقول الناس من الجهل والغباء، وتجيء هى بطشت الغسيل وتلقى به على رأسه . . وكان سقراط يضحك ويقول: إن زوجتى كالسماء تبرق وترعد . . ثم تمطر بعد ذلك!

وفى هذا الحادث يرى كل الناس ما هو الفرق بين الرجل وبين المرأة . .

ويرون أن الهوان من نصيب من يختار المرأة ولا يعرف عيوبها، أو يختارها ويتصور أنه قادر على أن يجعل منها شيئا آخر غير الذى أرادته الطبيعة . . ومعنى ذلك أن يكون إلها قادرا على تغيير أشكال العذاب والهوان التى اختارها الإنسان عقابا له!!

ورغم أن هذا يحدث فى كل بيت وفى كل زمان، فإن الزواج لا يزال هو الشكل الذى ارتضاه الناس ليواجهوا به بعضهم البعض.

والناس فى مواجهة الناس: ممثلون . . كلهم يكذبون . . وكلهم يعرفون أنهم جميعا يواجهون بعضهم البعض بوجوه وأصوات أخرى وابتسامات أخرى . . فإذا عادوا إلى بيوتهم انتقلوا من المسرح إلى مقاعد المتفرجين الذين يتثاءبون . . لأنهم يعرفون المسرحية ولأنهم تعبوا من التمثيل بعضهم على بعض . .

والشيء الوحيد الذى ينعشهم هو الشجار . . هو الخناق . . هو التهديد بالطلاق والتهديد بالفضيحة قبل الطلاق . .

ويحدث ما يعرفه الناس فى كل بيت، وإن كانوا لا يجدون الشجاعة أن يصرحوا به . . أو يواجهون الناس به . .

وبعد . .

رأى الكاتب الفرنسى الكبير «أندريه موروا» أن كل هذا يعرفه الناس، ولكن براعة الناس هى كيف يخرجون من هذا المأزق، فليس من العبقرية أن تسجل على نفسك العار، ولكن العبقرية هى أن تحول العار إلى انتصار، أو تتفادى وقوعه قبل أن يصعب عليك تغييره . .

ولذلك فقد تخيل «أندريه موروا» ما يشبه المدرسة يتعلم فيها الناس كيف يتصالحون فى اللحظة التى يمكن أن يمزقهم الخصام . .

فالذى يحدث فى الحياة الزوجية هو بالضبط كالذى يحدث فى محطات السكك الحديدية أو فى قواعد إطلاق الصواريخ، فأنت تستطيع بحركة صغيرا جدا أن تحول الخط الحديدى تحت عجلات القطار، وبذلك يتجه يمينا بدلا من أن يتجه يسارا . .

وكذلك فى قواعد إطلاق الصواريخ : فهم يطلقون الصاروخ الذى يحمل المركبة القمرية فى مدار حول الأرض ليكتسب قوة . . ثم يقومون بتعديل مساره . . ثم يعدلون المسار مرة أخرى . . لماذا؟ . .

لأن الصاروخ يدور حول الأرض الى تدور ويتجه حول القمر الذى يدور أيضا . . فنحن أمام ثلاثة أشياء تتحرك وتدور بسرعات مختلفة وعلى مسافات مختلفة . . ولذلك يجب تعديل المسار حتى لا يذهب الصاروخ والمركبة القمرية إلى الفضاء الساحق السحيق ! !

ومن الممكن اجراء تجارب على ذلك . .

فكثيرا ما دارت مناقشة عادية بين رجل وزوجته، وبسرعة تتحول المناقشة إلى مناورة بالذخيرة الحية . . إلى ضرب . .

كيف حدث ذلك؟

حدث ما يحدث فى الريف عندما يطلقون الأعيرة النارية فى الهواء فتصيب عن غير قصد إنسانا . . أما كيف حدث ذلك فهو أن الذى يمسك البندقية قد أخطأ فى حملها ولم يبعد ماسورتها عن الذين وقفوا فوق الأشجار أو أسطح البيوت ! !

ولو وقف إنسان فى مكان الذى أطلق النار ثم غير وضع البندقية لانطلقت النار، ولم تصب أحدا من الناس . .

إنه ـ إذن ـ هذا التغيير الطفيف فى مسار النار . .

وإذا عدنا بالحوار بين رجل وامرأة مرة أخرى . . ولكن بعد أن عدلنا فى وضع كل منهما . . وفى وجهة نظره . . وهدفه . . لانطلق الحديث دون أن يصيب أحدا من الناس . . ودون أن يصيب الزوجين . .

وفى محطة السكك الحديدية يسهل تغيير القضبان الحديدية تحت عجلات القطار . .

وفى محطات إطلاق الصواريخ يسهل أيضا تعديل المسار . .

ولأن الذى نغيره ليس إلا أجهزة حديدية . . وليست لها عقول فهى تستجيب لعقولنا نحن . .

ولكن من الذى يستطيع أن يقوم بدور العقل بين أناس عاقلين أيضا . . ويرفضون أى تدخل من أحد . . أو أنهم قد اتفقوا على أن يتواجهوا عراة فى غرفة . . يطلقون النار ويتلقونها فى اللحظة نفسها . . ولا يزال إطلاق النار متبادلا بين الاثنين حتى يتم الطلاق أو الفضيحة التى تؤدى إلى الطلاق . . أو الحياة التى تجمع الزواج والكراهية فى وقت واحد . . فلا هى حياة مستقلة ولا هى حياة مشتركة . . ولكنها يأس من الاثنين أو عجز منهما!

من رأى الأديب الفرنسى «أندريه موروا» أن واحدا من الزوجين يجب أن ينسحب قليلا من هذا الجو المشتعل . . ويفكر بسرعة فى الأمر . . ويمد يده إلى الآخر . . وفى هذه اللحظة يحدث تفريغ فى شحنة البيت . . تماما كما تتدلى الأسلاك من السيارة إلى الأرض لتمتص ما بها من شحنات كهربية . . أو كما تتدلى من العمارات العالية أسلاك من أعلاها إلى الأرض للسبب نفسه . .

ولا تزال الصورة الجميلة الموجودة فى «القبة المسدسة» فى كنيسة القديس بطرس بروما والتى تصور كيف خلق الله العالم من أروع ما صنع الإنسان . . إن الفنان مايكل أنجلو قد صور الله وقد مد يده . . وخرج من أصبعه العالم كله . .

إن قدرته التى لا حد لها عندما لمست «العدم» و«الفوضى» و«اللامعنى» و«الضياع» و«الخراب» تحول كل شىء بسرعة إلى وجود ونظام ومعنى وهدف وامتلاء . . كل ذلك لأن أصبعا فى يد قد امتدت إلى الناحية الأخرى . .

وليست هذه الصفحات التالية إلا سيرا وراء الأديب الفرنسى «أندريه موروا»، مع شيء من التغيير الضرورى فى الخطوط الحديدية والمسارات التى أعدها ببراعة لكى يحلق كل زوجين بعيدا عن الدمار والخراب . .

إنه - أيضا - يحاول أن يجعل المستحيل ممكنا . . وأن يجعل الحياة محتملة . . وأن يستمر فيها بلا هموم . . ما دام الإنسان لا يعرف كيف يعيش وحده . .

والإنسان حيوان انعزالى، رغم أنف المجتمع . .

والإنسان حيوان متزوج رغم أنفه، ورغم أنف المجتمع أيضا .

وليست هذه الصفحات إلا محاولة لعقد صلح منفرد بين كل رجل وامرأة، قبل أن يواجها المجتمع فى ملابس الممثلين . .

فهذه الصفحات هى مناقشات داخلية فى فترة تغيير الملابس .

وكل إنسان حر بعد ذلك أن يختار لنفسه ما يحدث بعد ذلك، وما دام من المقدر له أن يعيش؛ فليس له إلا هذه الحياة . . وما دام من الصعب أن يكون ذئبا بريا يرتاد الغابات والقرى وحده، فليست المشاركات المختلفة التى يقوم بها الإنسان إلا محاولة للتخفيف عن وحدته . . لا لكى يتخلص منها، ولكن لكى يصبح قادرا على الاستمرار فيها .

فالإنسان حيوان اجتماعى، رغم أنفه . . بوجهه الحقيقى، وفى جلده .

أو بقناع مسرحى، وفى جلد الحمل وهو ذئب، أو فى جلد الذئب وهو حمل، وفى ملابس الممثل وهو متفرج، أو فى ملابس المتفرج وهو أحد الضحايا على المسرح أو أحد السفاحين . .

فالأمر من أوله لآخره لك . . إن شئت أو لم تشأ!

فهذه هى الحياة، وليس لك إلا هذا الشريك من البشر . . أى من لحمك ومن دمك ولا يريد إلا لحمك ودمك أيضا!

الحب الذى بيننا (*)

فى الريف كانت أم العريس تحتضن العروس لتتأكد إن كان نهداها حقيقيين وليسا مشدودين «بسوتيان» . . وتشد شعرها لتعرف إن كان باروكة . . وتعطيها عودا من القصب لتتأكد من سلامة أسنانها . . ثم تدفع تحت قدميها إبرة لكى تتأكد من قدرتها على العثور عليها و«لضم» الخيط - إذن فالعروس المثالية هى التى تطيع حماتها والتى هى صحيحة الجسم متناسبة الأطراف نظرها ستة على ستة ونهداها بارزان وشعرها حقيقى . . فإذا وجدت الحماة كل هذه المواصفات باركت العروس التى سوف تكون كالخاتم فى أصبعها ، وتكون لها الكلمة العليا ، كلمتها أعلى من كلمة ابنها فى البيت!

وتغيرت المواصفات ، ولم يعد للحماة رأى فى زواج ابنها ، وربما فضل العريس أن تكون عروسه مخالفة تماما لكل صفات الأم . . وبذلك تقف إلى جواره ضد طغيان الأم التى لا تريد لدورها كأم أن ينتهى! وكما تغيرت الصفات التى تعجب الرجل فى المرأة وتعجب المرأة فى الرجل ، تغيرت أيضا القيم الأخلاقية ، والوظائف الاجتماعية . . فالرجال أصبحوا يفضلون المرأة التى تتعلم وتعمل ، والمرأة التى تريد أن تكسر القفص التقليدى بأن تكون زوجة تخرج وتدخل بموافقة الزوج وفى حمايته ، لا فى رفقة الأب والأم والأخ فمهما كان الأخ صغيرا فهو الذى يحمى أخته مهما كانت كبيرة ومتعلمة . . فالتقاليد هى ألا تخرج البنت وحدها ، ولابد من حارس يمشى إلى جوارها أو يتعلق بفستانها - أهوه رجل والسلام!

* * *

(*) مقدمة كتابى : « الحب الذى بيننا » .

وأجمل جميلات العصر الفرعونى ثلاث : أم الملك إخناتون واسمها الملكة تى .

وزوجته الملكة نفرتيتى . .

ثم الملكة حتشبسوت . .

أما الملكة تى فهى مستديرة الوجه ، عيناها لوزتان ووجنتاها بارزتان . . وشفتاها دقيقتان ، والشفة العليا مرفوعة ، وأنفها دقيق أشم . . وفيها كبرياء . .

والملكة نفرتيتى أجمل ما فيها عنقها الدقيق وعيناها الواسعتان وفمها المثير وشفتاها . . أما أنفها فهو أفطس ووجنتاها ناتئتان . .

أما الملكة حتشبسوت فلها ابتسامة جميلة أجمل من ابتسامة الموناليزا التاريخية ولها شفتان دقيقتان وعينان واسعتان ، الوجنتان قويتان أيضا . .

ولكن هذه الصفات ليست هى التى تعجب أبناء القرن العشرين . .

ولم نجد فى كل العصور الفرعونية امرأة ذات نهدين بارزين إلا بعض الفلاحات اللاتى يعملن فى عصر العنب أو عمل الخبز . . أما الملكات والنبيلات فالنهود صغيرة مستديرة تبرز فى حياء تحت الملابس الشفافة . . بينما وجدنا فى القرن العشرين ملكات جمال هن ربات النهود البارزة : مثل جين راسل ومارلين مونرو وسيلفانا مانجانو وإليزابيث تايلور .

ثم انعكست القيم الجمالية فاتجهت العيون والقلوب إلى ملكة الإثارة الفرنسية بريجيت باردو التى هى الجنس الثالث : فلا هى طفلة صغيرة ولا هى امرأة كاملة الأنوثة . . إنها تشبه توت ـ عنخ ـ آمون بين الرجال ـ فلا هو طفل ولا هو شاب . . وإنما هو الشاب الطفل كما أن بريجيت باردو هى الأنثى الطفل . .

وعندما تعلق العالم كله بالممثل الأمريكى جيمس دين الصغير الوحيد المسكين اتجهنا أيضا إلى عبد الحليم حافظ الوحيد المسكين المريض الحزين . .

وكان معنى ذلك أن الرجال يفضلون الولد الغلبان . . وأن المرأة تفضل أن تكون أما لهذا الولد .

فالرجل يفضل المرأة الأم . .

والمرأة تفضل الرجل الابن . .

وظل هذا «الذوق» عشرات السنين . .

وفى مدينة شتوتجارت بألمانيا الغربية تمثال من صنع الفنان البريطانى العالمى هنرى مور، التمثال لامرأة مالت على جنبها . . وقد اختاروا له مكانا شاسعا فى قلب المدينة . . وهو تحفة الفنية لأعظم من نحت الحجر فى العصر الحديث . . فالرجل الألمانى يحب النظام والانضباط ويحب التناسق . . والتمثال لواحدة لا هى جالسة ولا هى واقفة . . ثم إنها ضخمة الصدر والمؤخرة نحيفة الذراعين والساقين . . فلا تناسق بين أعضائها .

إن وجودها فى ألمانيا نوع من الاعتراض . . أو نوع من الاحتجاج على العقلية الهندسية الألمانية والذوق الفنى السليم . . ولذلك قابل الألمان هذا الاعتراض بالتجاهل التام له . . فليس بين التمثال وبين الألمان أى نوع من أنواع الحوار . . فالتمثال نموذج لقيم جمالية وأخلاقية واجتماعية لا وجود لها فى ألمانيا . . فكأن التمثال يرفض ألمانيا ، والألمان يرفضونه أيضا . . والتمثال هناك وكأنه ليس هناك . . والتمثال لا يعبأ بالذوق العام فى البلد الذى استضافه ، والبلد لا يعبأ بهذا الضيف الذى فرض «الجليطة» على الذوق السليم فى ألمانيا .

والألمان يحبون مثل هذه الجمل الاعتراضية التى تؤكد ذوقهم العام عندما تعترض عليه . .

وفى مدينة تبنجن بألمانيا أيضا يوجد تمثال للشاعر الغنائى «أولاند» فى «حديقة التأوهات» على نهر السالزاخ . . فالتمثال لشاعر كان يسخر من غراميات الطلبة الذين ينصرفون عن الدراسة ويغرقون أنفسهم فى الحب والخيال والهلوسة . . فلما مات الشاعر قرر الطلبة أن يسجلوا سخريتهم منه وأن يجعلوه عبرة لكل الشعراء والفنانين . . فصنعوا له تمثالا أضحوكة فنية . .

وذلك بأن خالفوا جميع قواعد الفن فى صناعة التماثيل . . فالتمثال ليس متناسب الأطراف : فالرأس كبير والجسم صغير . . والعينان كل واحدة لها طول وعرض وكذلك الأذنان والشفتان والأنف واليدان . . كلها فى حالة خصام . .

وكأنها ليست لجسم واحد . . وإنما أطراف اقتطعوها من أجسام مختلفة وكوموها فى هذه القطعة من الصخر . . وكأنهم يريدون أن يقولوا : بهذا الشكل لا يصح أن يكون تمثالا . . وبهذا الشكل يجب أن يكون رد الإهانة . . وإذا كانت أغنيات الشاعر وسخرياته بالحب قد تبددت ، فإن الاعتراض عليها قائم راسخ كالجرانيت!

* * *

والزواج هو أقدم العلاقات بين رجل وامرأة والهدف من الزواج هو تنظيم العلاقة الجنسية وحماية الأطفال.

وكانت العلاقات الجنسية شيوعية : كل الرجال لكل النساء . . ثم بعض الرجال لكثير من النساء . . ثم رجل واحد لامرأة واحدة . .

والحروب هي صاحبة الفضل الأول على تغيير العلاقات بين الرجل والمرأة والحروب الشاملة حديثة جدا ، فالحرب العالمية الأولى أودت بحياة عشرين مليون رجل وتركت وراءها هذا العدد من النساء يزرعن الأرض ويدرن المصانع ، فلما عاد الرجل - وكان لابد من مكافأة المرأة على ذلك - فكانت لها المساواة؛ بعض المساواة فى العلم والعمل . .

فالمرأة الإنجليزية فى عشرينيات هذا القرن أصبح من حقها أن تدلى بصوتها فى الانتخابات وأن تكون عضوا فى البرلمان وفى الوزارة والإدارة - بينما المرأة السويسرية لم تحصل على هذا الحق حتى الآن!

وجاءت الحرب العالمية الثانية فأكلت خمسين مليون رجل . . ثم أعطت للمرأة ما تبقى لها من الحريات . . لقد تحررت المرأة الأمريكية والأوروبية من كل قيود الرجل.

إذن لقد تحررت المرأة وانطلقت ، ولم يعد هناك خلاف بين أحد على أنه من الضرورى أن تتعلم المرأة ما تريد وأن تحب من تشاء وأن تتزوج على مزاجها . . وليس من الضرورى أن تقوم الأم باختبار العروس لمعرفة إن كان لها نهدان وردفان وأسنانها أبانوس وشعرها حرير وعيناها بلا عدسات لاصقة فليست هى التى سوف تتزوجها . . حتى لو كانت الأم والأب هما اللذان ينفقان على العريس . . فالإنفاق عليه مؤقت حتى يجد عملا ، وإلا فلماذا أنجبا هذا العريس؟

إن كان وجوده غلطة فهى غلطتهما، وإن لم يجد العريس عملا فور تخرجه، فلا ذنب له . . إنها مصيبة المجتمع الذى اختلت فيه الموازين والمكاييل.

ولأن المرأة لاتزال حديثة العهد بالحرية فهى تتصرف مثل أغنياء الحرب - أى الأغنياء الذين خلقتهم الحرب . . فالمرأة هى الغنية التى خلقتها الحرب أيضا . . فهى تبالغ كثيرا فى كل الذى اكتسبته، فهى تحرص على عملها مهما كلفها هذا العمل من تعب وعذاب فى الجرى وراء الأتوبيس ومزاحمة الرجال فى المحطات ومواجهة إهانات ومعاكسات كثيرة، وقلة نوم وأكل . .

لقد قررت أن تخوض الزحام وأن تنتصر . . فالمعركة مع الرجال لم تنته والرجل يريد أن يرجع فى كلامه ويعيدها إلى البيت . . ولذلك هو واقف يتفرج عليها شامتا فيها . . ولا يريد أن يعيدها إلى البيت وإنما يريدها هى أن تطلب العودة إلى البيت لأنها تعبت ولأنها لم تعد تجد نفسها، فلا هى امرأة ولا هى رجل . . ولا هى قادرة على أن تكون عاملة وزوجة وأن تكون أما فى وقت واحد، ولا قادرة على أن تنجح فيها جميعا، ولا قادرة على أن تعترف بهذا العجز . . أو بالتغلب على كل هذه التحديات التى انفردت بها هى وحدها . . فالرجل لأنه ولأن المجتمع من صنع الرجل ولأنه ولد حرا ويزداد حرية ولأنه ليس مسئولا عن شغل البيت والحضانة والرضاعة فهو فى وضع أحسن ومركز أقوى . . ولا يريد أن يمد يد المساعدة للمرأة . . كأنه يريد أن يعاقبها على الذى اختارته . . بين المساواة والعمل والأمومة والزوجية وفى الوقت نفسه أن تبقى جميلة أنيقة كأنها بلا عمل . . وأن تعمل وتكسب وتنجح كأنها ليست أما . . وأن تهتم بالطفل وتربيته كأنها طبيبة ومدرسة وأم بلا مسئوليات أخرى!

إن متاعب المرأة الآن هى متاعب الحرية والمساواة ولذلك فالزوج يقول لها أنت اخترت الحرية . . أنت تريدين المساواة . . أنت ضد الطبيعة فاشربى من الكأس التى تخيلت يوما ما أنها شمبانيا . . اشربى ولا تفتحى فمك بكلمة واحدة!

والمرأة تريد من الرجل نوعا آخر من المساواة: أن يتساوى الاثنان أمام مسئوليات البيت والأطفال؛ فليساعدها فى البيت، فليذاكر للأولاد . . فهى تعمل مثله تماما وتتعب . . ولكنه لا يكاد يصل إلى البيت حتى يرتمى على الفراش ويترك لها أن تستأنف عملها فى البيت . . كأنها لا تعمل خارجه!

* * *

ومن هذه المساواة الأليمة والشكوى منها تولدت قيم مختلفة . .

فالمرأة اتجهت الآن إلى أن تكون مثل أمها وجدتها، تريد أن تكون ست بيت . . أن تكون أما، أن يكون بيتها عشا دافئا، صغيرا هانئا، أن تجلس أمام المرآة . . أن تلبس . . أن تتألق . . أن تنتظر الزوج الصديق الحبيب الأب . . أن تحقق له الراحة والسعادة . . أن تكون فى الانتظار . . فالانتظار لا يضايقها، بل يسعدها أن تنظر إلى الساعة وتتساءل: بعد ساعة . . بعد نصف سوف يجىء، يرانى« على سنجة عشرة » سيقول: ما هذا الجمال . . أو حتى ليس من الضرورى أن يقول . . سوف أرى الوميض فى عينيه . . ذلك الوميض الذى رأيته أيام الخطوبة وشهر العسل وسوف أترجم هذه الإشارة بسرعة . . ومعناها: إننى أعجبه . . إننى جميلة . . إنه يريد أن يأكل وأن ينام . .

وتقول لنفسها أيضا: هو الذى يأتى بالفلوس . . لا يهم إن كانت كثيرة . . هو الذى يختار فساتينى وألوانها . . أنا لا أتمسك بأى لون . . هو الذى يفرض اللون . . أنا أحب ذلك . . هو الذى يشترى البارفان . . هو الذى يقول: شدى الفستان على ركبتك! لماذا الصدر واسع؟

لماذا قصرت شعرك أنت تعلمين أننى أحب الشعر الطويل؟ لا ترفعى شعرك أحب أن أراه على جبهتك . . الأحمر غامق . . وإذا سرنا فى الشارع فأنا إلى جواره أو وراءه . . وإذا نظر أحد ناحيتى فإنه يتضايق . . إنه يغار وأنا أحب الرجل الغيور . . ولو قال لى: تحجبى غدا. فلن أتردد . . ما دام يريد ذلك فأنا أريده أيضا . . وإذا قال لى لا أحب فلانة صاحبتك . . انتهى فلن أراها، أو إننى أحب فلانا زوج صاحبتك وأنا أعرف أنك لا تحبينها . . فليكن . . إننى أحب الرجل الذى هو رجل . . الذى له رأى . . والذى له كلمة . . وله قرار . . والذى لا يترك شيئا للصدف . . كل شىء فى يده . . فى قبضته . . وأنا فى قبضته وفى حضنه وفى عينه وعلى رأسه . . أحب ذلك!

والرجل الآن قد امتلأت عيناه بالصور التى لا يحبها من الفتيات العاريات ونصف العاريات . . ليست السيقان والصدور العارية فقط وإنما الألفاظ العارية من الأنوثة والحشمة . . يكره المرأة التى تدخن كالرجل . . المرأة التى ترتدى البنطلون

ولا يهـمـهـا مـا الذى فـعله البنطلون بـهـا . . والتى تضع سـاقـا على سـاق لتكشف الساقين معا . . ولا يحب المرأة التى إذا تحدثت إليه اقتربت منه جدا كأنها تريد أن تقول له : أنا لا يهمنى كم هى المسافة بينى وبينك . . فأنا مثلك ولا أخاف منك . . ولا يحب المرأة التى صوتها مرتفع كأنها رجل أو تحاول أن تكون . . ولا يحب المرأة زميلتـه فى العمل التى تجلس على مكتبه وقد ضغط الفستان على فخذيها وأبرز صدرها ونشر عطرها . . يحب المرأة المحتشمة التى إذا تحدثت إلى الرجل أكدت له دائما أنها أنثى وأنها سوف تبقى كذلك مهما اقتربت منه : فالصوت خفيض والنظر كسير والملابس واسعة والماكياج قليل . . المرأة التى تفرض احترامها عليك لأنها محترمة . . المرأة التى إذا نظرت إليـها تحس أنك أمام «حرم» . . حرمـات . . قيم . . مثل عليا . . المرأة التى تذكرك بأن هناك حدودا . . وأن هناك دينا . . وأن للدين حدودا لا يصح أن يتعداها أحد . . المرأة المؤمنة . . وإيمانها صامت قوى، وليس إيمانها ثرثارا «فارغا» !

إن الرجل الآن يفضل المرأة المحتشمة . . ولا يهم أن اتخذ الاحتشام نوعا من الحجاب . هذا الحجاب معناه : أنها تبرز من ملامحها ما هو ضرورى لها لكى تعمل وترى . . فتكشف يديها ووجهها . . أما بقية ملامحها فليست من حق كل الناس . . وإنما من حق البيت . . جامدة . . وإنما هى متعلمة محترمة . . ومحترمة لأنها فاضلة . . وفاضلة لأنها مؤمنة . . ومؤمنة لأنها متعلمة . . فالعلم لا ينكر الإيمان، والإيمان لا يرفض العلم، والفضيلة ليست ضد الاختلاط، والمساواة ليس دعوة للفجور!

* * *

ولا توجد امرأة لا تحب أن تكون أمّا، بل إن المرأة أم منذ طفولتها ؛ فهى تلعب بالعروسة وتنام إلى جوارها وترضعها وتطعمها . . إنها أم دون أن تدرى .

إنها أم بالغريزة .

وفى أوروبا وأمريكا حيث أصبح الزواج صعبا فإن المرأة تصبح أما بلا زواج وبعد أن أصبحت الأمور عبئا على الأم العاملة المتحررة فإنها تلد الطفلة وتتركها للخادم، أو تلد الطفلة وتبيعها لمن يشتريها من الأمهات اللاتى لم ينجبن، بل إن

هناك شركات فى أمريكا عندها قوائم باحتياجات الناس فى العالم كله: طفل أزرق العينين، طفل أسمر أخضر العينين، طفل أسود العينين . .

وهذه الشركات تذهب إلى الطالبات فى الجامعة الأمريكية وتتفق معهن على الطفل المطلوب وتتكفل بمصاريف الولادة والحضانة ومصاريف الجامعة أيضا، ولذلك تبحث الطالبة عن الأب الذى تتوافر فيه الصفات المطلوبة ـ فهى تريد أن تكون أما بعض الوقت، وتتحرر من الأمومة . . كما تحررت من الزواج . .

فلا احترام عندها ولا دين . .

ولذلك فالدين الجديد هو الذى يحترم الإنسان والعلاقة بين الرجل والمرأة . . وعناصر هذا الدين هى الحب والاحترام، والزواج والاحترام، والأبوة والأمومة والاحترام للطفل . .

فليس غريبا إذن أن تجد الشاب المؤمن يفضلها: محجبة . . وليس عجيبا أن تجد الشابة المؤمنة تفضله: سى السيد . .

لقد زهقت المرأة من دورها كرجل . . أو كنصف رجل.

وزهق الرجل من دوره كأنه نصف أنثى تتحكم فيه المرأة الحديثة بصراحتها وزعيقها وعضلاتها.

* * *

أما المرأة الغربية فهى تريد أن تذيب المسافة التى بينها وبين الرجل ولذلك فهى تربى عضلاتها . . فالمرأة ذات العضلات هى المرأة المثالية . . والمرأة التى تلعب بالنار فى الحرب والسياسة هى المرأة الجديدة . . فقد أدركت المرأة أن الرجل لا يزال متقدما عليها . . ولذلك تريد أن تقطع الخطوات الباقية بالقوة . . قوة الجسم والعضلات . . تكتسب المرأة العضلات فتفقد الأنوثة والنعومة . . فإذا أصبحت ذات عضلات فلا هى رجل ولا هى امرأة . . تماما كالرجل الناعم المتكسر، فلا هو أنثى ولا هو رجل . .

وآخر تطورات المرأة الغربية التى تحررت من أنوثتها أنها إذا انفصلت عن زوجها تركت له الأولاد . . وراحت تبحث عن حريتها مع رجل آخر . . أو رجال آخرين . . وأصبح الرجل الآن مثل «فرس البحر» ذلك الحيوان الوحيد فى العالم لدى يحتفظ بالبيض ويلقحه ويلده . . أما الأم فقد ذهبت تبحث عن ذكر آخر!

وقد خلقت المرأة الغربية نوعين من الأمهات : الأم التى تلد الطفل . . وهى الأم الوالدة . . والأم التى تتبناه وهى الأم المربية . .

فالأولى لا تريد أن تتقيد بالطفل . . بأمومة الطفل . . والثانية تشترى هذا القيد . .

وانقلبت الأوضاع الآن . . فالأب هو الذى يريد أن يتقيد بالأبوة وتربية الأطفال . . والمرأة شامتة فى هذا التغيير التاريخى . . فالرجل يعانى أخيرا من عذاب الأبوة، ما كانت المرأة تعانيه ألوف السنين .

ولكن سواء كان الرجل هو الذى يشمت أو هى المرأة الآن، فالشىء المؤكد أن الأسرة قد انتهت، تفككت . . انهار العش . . انهار البيت . . إنها أساس الحياة الاجتماعية السليمة المحترمة . . ولا دين ولا أخلاق ولا قيم . . وإنما هو التلاعب بالقيم الإنسانية، وتبديد لكل ما كسبه الإنسان فى ألوف السنين من أجل أن يكون متحضرا فى علاقاته مع المرأة والأولاد والناس، لكى يتمكن من دفع التطور إلى الأمام ليزداد نصيب الإنسان من التحرر من الخوف والجوع والجهل والظلم والمرض .

* * *

إن هذا الاتجاه الجديد بين الشباب المؤمن والحريص على العلاقات المحترمة وعلى جوهر الأسرة قد وقع فى كل الدنيا اتفاقية سرية بين الجنسين من أجل تصحيح أخطاء التطور أو التهور الاجتماعى . . واليأس الأخلاقى .

لقد أصبح المثل الأعلى للفتاة أنها تريد زوجا رجلا . . لا عيلا . .

وأنه يريد الزوجة أنثى . . لا غلاما . . وأنهما معا على يقين من قدرتهما على خلق طفل فاضل سليم الجسم والذوق عميق الإيمان .

وهذا «الحل السعيد» لم يفرضه الرجل على المرأة، ولا المرأة على الرجل . . وإنما اهتدى إليه الاثنان فى ظروف واحدة يرفضانها وعكس أوضاع منحرفة وضد تيار جارف لإنسانية الإنسان وحقه فى أن يقول نعم لما يحب . . ولا . . للذى يكره . . وأن يكون الزواج عناقا حارا لألف نعم وألف لا . . فلا نعرف من الذى قال : نعم ومن الذى قال : لا .

فالاثنان ينطقان معا وفى تنسيق كامل لكل ما بينهما من خلاف من أجل الوفاق والاتفاق فى النهاية!

أريـــد ..
ولكنى لا أستطيع !! (*)

الآن فقط عذرت كل الذين انفتحت لهم «طاقة القدر» وأتيحت لهم فرصة العمر أن يطلبوا من الله شيئا، ولكن الصدمة الباهرة أفقدتهم القدرة على النطق، أو القدرة على أن يرغبوا فى شىء، وأغلقت أمامهم، وفى وجوههم، ودونهم طاقة القدر، وأظلم كل شىء، ولم يتحقق لهم شىء . . لأنهم لم يطلبوا شيئا.

وعذرت الذين كسبوا مليون جنيه، ثم ماتوا من شدة الفرحة، كأنهم خسروها لا كسبوها.

إنها ـ إذن ـ المفاجأة لا تقوى مشاعرنا على مواجهتها، أو الوقوف أمامها، أو الصمود الوجدانى لها.

إننى أحاول أن أصف شعورى، وقد تهيأت للحج، وأحرمت، وتعريت، وتجردت، وأحسست ببرودة النهار والليل، وخفت من كل أمراض الدنيا، وأعددت لها كل ما اخترعه الطب الحديث، وعلم النفس القديم.

وأقمت من نفسى درعا من لحم ودم، ودرعا آخر من الإرادة واللاإرادة حتى لا أنهار جسميا ومعنويا.

إننى كالذى يريد أن يقفز قناة واسعة عميقة، ولذلك يحاول أن يتراجع إلى الوراء قبل أن ينطلق فوقها.

(*) مقدمة كتابى: «طلع البدر علينا».

إننى أحاول أن أرجع إلى سنوات مضت عندما ذهبت إلى القدس، ووقفت أمام حائط المبكى . . ألعن الذين أقاموه والذين عبدوه، وأحسست أن هذا الذى أراه يحسدنى عليه ملايين اليهود فى العالم !!

وتمنيت لو أن قلوبهم ظلت موجوعة متمزقة على هذا الذى رأيت ولم يروه . .

ولكن الحائط وتاريخه، ودموع المؤمنين به لم يهزنى قدما، ولا ساقا.

وقبل ذلك، رأيت، ومشيت فى الطريق الذى سار فيه المسيح عليه السلام . . طريق الآلام . . يحمل صليبه ويتهاوى تحته. ورأيت المهد الذى ولد فيه المسيح، ورأيت الجبل الذى ألقى فيه موعظته الأخيرة، ورأيت الحديقة التى تناول فيها المسيح عشاءه الأخير . . وخانه أشد الناس حبا له، وباعه بفلوس معدودة . .

واهتز قلبى حزنا على الرسول الذى جاهد من أجل كلمة الله.

ورأيت معبد النور فى طهران . . ودخلت ورأيت سراجا منيرا محاطا بزجاج، وقال لى الراهب:

ـ هذا النور أبدى !!

وضحكت كيف يكون النور أبديا . . وأنا أستطيع أن أخمده بنفخة من أنفى، وأى طفل يفعل ذلك، وكيف أعبد سراجا صنعه إنسان، ووضع حوله الزجاج، وتحته الزيت؟! إن النور الذى يجب أن نعبده هو الذى وراء كل شىء. أمامنا، ووراءنا، وفى نفوسنا.

إن النور الأبدى هو الله.

ورأيت معبد «زرادشت»، ورأيت معبد «بوذا»، و«كونفشيوس» . .

وفى مدينة «كيوتو» باليابان دعانى أحد الأصدقاء لأرى أحدث ما اهتدت إليه العبقرية اليابانية فى العبادة . .

فهم فى اليابان يعرفون أنهم مئات الملايين، اليوم وغدا، وليس فى الإمكان أن يذهبوا جميعا إلى المعابد فى وقت واحد . . فى أى يوم من أيام الأسبوع. ولذلك فإن كل واحد منهم أقام معبدا فى ركن من أركان البيت . . يتوجه إليه، ويصلى.

فمـا دام الله فى كل مكان . . فـفى الإمكان أن يصلوا له فى أى مكان . . فى السيارة . . فى الطيارة . . فى ركن من أركان أى بيت .

وسألونى : ما رأيك ؟ !

ورأيت مئات الألوف يتمرغون فى طين الأنهار المقدسة ، ورأيتهم يصبغون بالدم وجوههم ، ويحرقون بالنار أصابعهم . . كل ذلك عملا بالحكمة القديمة : إن أسرع طريق إلى الله هو الألم !

ولكن . . أى إله ، وأى طريق ، وأى ألم ؟ !

ورأيت أحد الآلهة ، وجلست إليه ، وشربت معه ، وتحدثت ، وانتقلت منه عدوى الأنفلونزا إلىّ ، وهنأنى وزراء «الدلاى لاما» على هذا الشرف الذى لم ينله أحد من قبل (! !) . .

إنهم يعاشرون هذا الإله ليلا ونهارا ، ولكنه لم يتفضل عليهم (بعطسة !) واحدة . . بسعال ، أو التهاب رئوى ! ! ولكننى أنا الغريب القادم من بلاد بعيدة قد حبانى بهذا الالتهاب فى أنفى وفى حلقى ، وهذا الوخز فى جنبى . . فشكرا نقدانسته على ذلك ! !

إنهم هم الذين يشكرونه بالنيابة عنى ! !

* * *

أين هذا كله مما أنا فيه ؟ !

لقد ابتعدت جسميا ونفسيا عن هذا الفيض ، والذوبان والتذويب لكل ما حولى ، أو على الأصح هذا التذويب لكلى أنا ، وما حولى كله . . إلى آخر المفردات التى يستخدمها من يذهب إلى بيت الله الحرام .

مثلا : الطواف ، والسعى ، والدعاء ، والوقوف ، والإفاضة ، والنفرة ، والرمى . . وكلها مفردات تدل على أن قوة إنسانية تندفع . . أو على أن قوة روحية تدفع هذا الإنسان معا . . أى مع الملايين حول شىء ، وإلى شىء .

إن الدين يطلب من كل مؤمن أن يطيع، وأن يكون معا، وأن يتجه إلى الله. وكل شيء يراه، أو حوله ليس إلا رمزا إلى معنى . . وهذا المعنى قد نبه إليه الرسول من أجل أن يتحقق الخير العام لكل الناس.

و«كل الناس» معناها: كل الناس من كل لون، وسن، وأرض، وثوب، وموقع، ومركز. ويجب ألاَّ يكون هناك لون أو ثوب، وألاَّ يكون هناك شيء يميز أحدا عن أحد، فالناس أمام الله سواء . . كلهم قلوب تدق أو لا تدق، أما أجسادهم . . أما عقولهم . . أما أرضهم . . أما لونهم . . فإن هذا لا يهم!

إن كل هذا الذى أقوله لم يستغرق إلا دقائق، ولكن كم من الساعات عشت لكى أرى، وكم من الأيام رأيت لكى أعيش ساعة، أو أقل من ساعة؟!

إن ملايين الناس قد زاحموا، وتدافعوا أمواجا يدوس بعضها البعض - وأحيانا يقضى بعضها على بعض - حتى أصبح ما يشغل الناس هو: كيف يقفون ليروا . . أو كيف يرون مكانا يقفون فيه، وإذا وقفوا أن يمدوا أعينهم، أو أيديهم . . ليتأملوا أو يقولوا شيئا.

إننى لا أدعى أننى أمضيت الأيام كلها أتأمل فى خلق الله . . فى نفسى، أو فى غيرى . . فإننى لم أكن سعيدا إلى هذه الدرجة، ولكنى سرقت من الناس ساعات قليلة، وحاولت أن أجعل إحساسى بها مكثفا. حاولت أن أنفذ إلى أبعد وأعمق.

ولا أدعى - أيضا - أننى وصلت إلى شيء . . فإن الذى أستطيعه قليل جدا، والذى أريد أن أعرفه كثير جدا . . إن عمرى قصير . . وعمر الإنسانية كلها قصير، وهذا العمر القصير لا يتسع لكل ما أريد، ولذلك فإن القليل الذى أعرفه قد أراحنى بعض الوقت، والكثير الذى لا أعرفه قد عذبنى معظم الوقت، ولا يزال؛ فاللهم أعنى على نفسى حتى أعرف أكثر، وأستريح أكثر.

إن دهشة الناس عندما يروننى حائرا . . ضائعا، أو أكثر حيرة، أو أكثر ضياعا، لا يفوقها إلا أن حيرتى أعمق مما يرون، وعذابى أفدح مما يتصورون.

إن كل شيء حولى يقول . . إن كل الناس حولى يصرخون، ويلهثون، وهم جميعا مفردات طائشة ملتاعة فى كتاب مفتوح . . إن عذابنا لا حد له، ولكن أكثر

هذا العذاب من أنفسنا . . فنحن بعيدون عن أنفسنا ، ولو نظرنا إلى أنفسنا ما كان حالنا هكذا .

والله يقول : ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

وهذه مناسبة طويلة عريضة لأن نعيد النظر إلى أنفسنا لنعرف أين نحن ، من أى شىء . . أين الإنسان من الإنسان . . أين الإنسان من الشيطان . . أين الإنسان من الله ؟!

إن زحام الناس على رجم الشيطان شىء عجيب .

إن الشيطان ليس أمامنا فقط ، إنه ليس هناك ، إنه فى نفوسنا ، وليست هذه الأحجار إلا رمزا . . إن الذى رأيناه فى نهاية الحج يستحق أن نكرره بعد ذلك ، بشرط أن نرجم أنفسنا . . فكلنا لبعض شيطان ، أو كلنا هذا الشيطان ؟؟

* * *

هل قلت شيئا ؟!

إننى أحاول أن أبتعد لأرى أوضح . .

إننى كالذى يخاف أن يفتح عينيه على قرص الشمس ، ولذلك أحاول أن أنظر إلى الظلال ، وأتحسس الدفء ، أو أنظر إليها ببعض عينى وقد ارتسمت على الماء .

إننى أخشى أن أفتح فيها عينى . . فأفقدهما إلى الأبد .

والذى يعزينى عن هذه المحاولة . . أننى عندما أتجه إلى الله ، فإننى أراه بلا عينين ، وأسمعه بلا أذنين ، وأحج إليه فى أى وقت ، وفى أى مكان . .

إننى الآن أعذر ذلك الإغريقى الذى حكمت عليه الآلهة بأقسى وأقصى درجات العذاب . . ذلك المسكين «تنتالوس» الذى وضعوه فى بحيرة من الماء العذب ، وسلطوا عليه الشمس ، وكلما احتاج إلى الماء ارتفع الماء حتى شفتيه ، وكلما أحنى رأسه ليرتشف الماء . . انحسر الماء ، وظل الماء يعلو ويهبط دون أن يذوقه إلى الأبد!

إن شيئا من ذلك أشعر به . .

كل شيء حولي يقول . . ينطق . . يضيء . . يظهر ، وأنا هكذا مغمور بلا أطراف . . لا أستطيع أن أمد عينا ، أو يدا إلى شيء . . حتى الكلمات لا أجدها . . إن شيئا قد وقع بينها وبيني ، أو بيني وبين قلمي ، أو بين قلمي وبين الورق ، أو كل الأشياء . . . فأنا رأيت «طاقة القدر» ولم أستطع أن أفتح فمي ، وواجهت الشمس ولم أمد عيني ، أو كأنني حججت بقلبي ، ولكني لم أر شيئا . .

ولكن . . عندما أعود إلى حيث أستطيع أن أرى أوضح ، وأسمع أقوى ، وألمس أقرب . . وحيث تصطف الكلمات والحروف والنقط في خدمتي . . هناك أجدني قادرا على أن أقول . .

فمعذرة أنني أريد وأحاول ، ولكن لا أستطيع . .

فإلى مسيرة في العبارة ، والإشارة ، والإثارة ، والإنارة .

حتى هذا السطر الأخير . . لم أفقد أملي في أن أحاول . . حتى آخر نقطة في هذا السطر !

البقية فى حياتى (*)

من الخوف من أمى والخوف عليها، عرفت أبى . .

ومن القلق على أبى والشوق إلى صوته الجميل يرتل القرآن، ويتغنى بالشعر، ويقلب الكتب بأصابعى، عرفت نفسى . .

هذه ـ إذن ـ ينابيعُ الشعور، ووميضُ الفكر فى طفولة كانت الماضى الذى لا يمضى، والحاضر الذى لا يغيب.

وكانت الطريق الذى إذا التوى كان علامة استفهام، وإذا استقام كان علامةَ تعجب . .

والطريق لم ينته بعد، ولا علامات الدهشة على جانبيه . . فلا حدود للاستفهام والفهم، والتعجب والإعجاب . .

هذه ـ إذن ـ صور تذكارية لشلالات القلق، وجنادل الأرق، ووديان الفزع . . أعرفها . . تعرفنى . . بغير نهاية . .

فالبقيةُ ما تزال فى حياتى! . .

يارب إنى خائفٌ، كما ترى
والقلب منى حائرٌ، كما ترى
وقبلتى ضائعةٌ، كما ترى
فما ترى يا ربَّنَا، فيما ترى؟!
« . . . . »

(*) مقدمة كتابى : (البقية فى حياتى) .

وضاقت الأرضُ حتى كادَ خائفهُم
إذا رأى غـيـرَ شيءٍ ظنه رجـلا !

«المتنبى»

ما هذا الإنسان؟ إنه عود من القش. . إنه أضعف المخلوقات. . ولكنه عود قش عاقل، والكون أقوى منه. والكون ليس فى حاجة إلى سلاح لكى يقتل هذا الكائن العاقل. . قطرة ماء تقف فى حلقه كافية لقتله. . ولو سحق الكون هذا الإنسان، سوف يبقى القتيل أعظم من القاتل. لأن القتيل يعرف أنه أضعف ويعرف أن الكون أعظم. . بينما الكون لا يعرف لا يفهم لا يعقل شيئًا من قوته أو من ضعف الإنسان. . فعظمة الإنسان فى فكره، ولذلك فالإنسان يجب أن يسمو بفكره وليس بالزمان الذى يستغرقه والمكان الذى يشغله. . فلنحاول أن نفكر، وأن نفكر فهذا هو الأساس الأول لحضارة الإنسان!

«باسكال»

حـول العالـم (*)

ركبت البغـال فى أعالى الهـملايا ، وركـبت النفاثة من هوليـود إلى واشنطون ، وكـان الأمريكان ينظرون لى بإعـجاب وحسد ، فـقد كـانت النفـاثة شيئـا جديدا ، وركبت الفيل ، وركبت زورقا ، وظللت واقفا ست ساعات ، فقد كـانت المياه مليئة بالأفاعى والتماسيح فى أقصى جنوب الهند ، وأكلت الموز بالشطة فى سنغافورة ، وشـربت الشـاى بالملح فى إندونيـسـيـا ، وأكلـت الأنانـاس مـع الغـربان فـى سيـلان ، وأكلت الخبز المصنوع من السـمـك فى جـزيرة بالى ، وأكلت الضـفـادع والثعابين البرية فـى هـونج كـونج ، وأكلـت البيض وهو ملىء بالكتـاكيت ، وحتـى لا أصاب بقليل من القـرف فإنهم فى الفـلبين يضـيفون إليه بعض الفلفل والملح . وارتديت الدوتى فى كيرالا ، ولبسـت الكيمونو فى طوكيو ومشيت ربع عريان فى هونولولو ؛ وكـان لى أصدقـاء من أصـحـاب الملاليم ، وأصـدقـاء من أصـحـاب الملايين . . وكـانت صداقتى لا تستغرق إلا ساعات أو أياما ، وبعد ذلك أرحل إلى بلاد جديدة . . .

لقد كان العالـم كتابا كبيرا عريضا طويلا غنيا بألفاظه ومعانيه . . كنت أقرأ بعقلى وقلبى ، وأقلب الصفحات بيدى ورجلى . . وكنت أضع حقيبتى الوحيدة فى مهب الطائرات والعواصف ؛ ودخلت المستشفيات فى إندونيسيا ، وفى اليابان دخلت مستشفى الولادة ، وفى أستراليا دخلت مستشفى الملكة ، وفـى أمريكـا دخلت عيـادة كل أطبـائها من المصريين ؛ كنت أكتب ليـلا ونهـارا ، وكنت أبعث بمقـالاتى

(*) مقدمة كتابى : (حول العالـم فى ٢٠٠ يوم) .

لأخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل، وعندما أجد متسعا من الوقت كنت أكتب مذكراتى .

* * *

فلم أكن وحدى . . كانت الصحف تسبقنى إلى السفارات، وكانت تسبقنى إلى أكشاك بيع الصحف حول العالم كله .

بل إننى وجدت نسخة من «أخبار اليوم» فى أحد محلات السجائر فى «السوق الدولية» بمدينة هونولولو . . ولما سألت عن صاحبها الذى تركها فإذا به أحد رجال السفارة الأمريكية فى كمبوديا ! !

وكنت كلما وجدت مقالاتى منشورة أحسست أنها صواريخ . . صواريخ متعددة المراحل ترفعنى إلى أعلى، وأعلى . . حتى اتخذت لى مدارا فوق . . فوق ما كنت أتصور !

* * *

لقد كان الغرض من رحلتى هذه أن أسافر فقط إلى ولاية كيرالا فى الهند وأن أكتب تحقيقا صحفيا عن الولاية الوحيدة فى الهند التى فاز فيها الحزب الشيوعى بحكومة شيوعية ١٠٠٪ . . وقد ثار حزب الحكومة المركزية على هذه الولاية واتهم حكومتها بالطغيان والاستبداد، والتدخل فى معتقدات الناس، وتغيير كتب التاريخ . . .

وقابلت رئيس وزرائها نامبود ريباد . وهو رجل متوسط القامة ممتلئ، وله رأس كبير، وقابلنى حافى القدمين، وكذلك أولاده . . وكان يضع يده على رأسه كلما سألته سؤالا، وكنت كلما تطلعت إليه لأسمع الجواب، كانت حركات يديه تخفى صورتى لينين وماركس على الحائط وراءه . . وفى كل مرة ينفعل كنت أنحنى أجمع الكتب التى سقطت من على مكتبه وكلها عن ستالين . . .

وكان هذا الحديث الذى دار بينى وبينه هو الصاروخ الذى دفعنى إلى الدوران حول الأرض . . فقد نشر هذا الحديث فى اليوم نفسه الذى سقطت فيه الوزارة فى كيرالا !

ونقلت الحديث وكالات الأنباء العالمية. فقد كنت الصحفى الوحيد الذى قابله أثناء الأزمة . . وكنت آخر من خرج من مكتبه، متوقعا هذه الكارثة له . .

* * *

وبعد ذلك سافرت إلى التبت لأقابل الدلاى لاما . . وقابلته . . وتحدثت إليه عن حياته، عن أزمته، وطلبت أن أقابله، فرفضت السلطات، فذهبت إليه فى بيته، ورفض الحراس أن أقابله . . وقابلت وزراءه وادعيت أننى مريض قادم من مصر، وأن شفائى على يديه . . ونقلونى له على محفة . . وأنا ملفوف بكل ما عندى من بطاطين. فقد كنا فى الصيف، وكان الجو باردا جدا فوق الهملايا . .

ومن تحت البطاطين والأغطية أخرجت الكاميرا وصورته . . وصورت أمه لأول مرة فى حياتها ولأول مرة فى العالم !

* * *

وسافرت إلى جزيرة سيلان بحثا عن الأعوام العشرين التى قضاها الزعيم أحمد عرابى باشا . . ذهبت إلى المكتبة . . وذهبت إلى صحيفة «الأوبزرفر» الإنجليزية التى هاجمت عرابى باشا طول مدة إقامته. وحصلت على وثيقة نادرة سجلت فيها الصحيفة كيف كان نزول عرابى وأصحابه إلى الجزيرة . . وكيف كان وماذا كان يأكل . . وكيف أن الصحف الإنجليزية اندهشت جدا عندما سئل عرابى باشا : هل الدين الإسلامى يحرم تعليم البنات؟ فأجاب : لا . . وسألوه : هل يحرم تعليم البنات لغة أخرى غير لغة القرآن؟ فأجاب : لا . . وسألوه : هل الدين الإسلامى يتنافى مع الطب؟ فأجاب : لا . . فقالوا له : حتى لو كان الطبيب الذى يكشف على زوجتك ليس من دينها؟ فأجاب : لا.

وذهبت إلى البيت الذى كان يعيش فيه فى مدينة كولومبو ولا يزال يقتسمه اثنان أحدهما صحفى والآخر طبيب. وذهبت إلى البيت الذى كان يعيش فيه بمدينة كاندى . . ومكتوب على هذا البيت باللغة الإنجليزية «عربى باشا» بحذف الألف . . وينطقونها أيضا هكذا. وقد أخبرنى أصحاب البيت أن جدهم قد أوصاهم بالاحتفاظ به كما هو، دون تغيير . . .

وقابلت عميد مدرسة الزاهرة الإسلامية وأطلعني على وثيقة نادرة عن يوم افتتاح هذا المعهد الديني الكبير . . وكيف حضره عرابى باشا وكيف أنشد له الطلبة نشيدا جميلا . . ونقلت الوثيقة وترجمتها ونشرت النشيد . . .

* * *

وفى إندونيسيا زرت مواطنة مصرية جميلة ولطيفة وكريمة اسمها فوزية . . وهى متزوجة من أحد أبناء إندونيسيا ، الذى يملك مصنعا للزجاج فى مدينة بوجور . . وكان معى فى هذه الزيارة سفيرنا العمروسى والصديق لطفى متولى ملحقنا العسكرى فى ذلك الوقت ، وسفيرنا الآن فى العراق ، والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافى ، والصديق أحمد والى ملحقنا الصحفى فى جاكرتا ، فى ذلك الوقت . . .

وفى إحدى الجلسات أطلعتنى السيدة فوزية على تحضير الأرواح عن طريق «السلة» . . ولم أصدق فى أول الأمر . . ولكن لاحظت أن كل الذين معى رجالا ونساء يصدقون . وأعادت التجربة . . ووسط البخور والهدوء والآيات القرآنية . . رأيت السلة وهى تتحرك وتكتب . . ولاحظت أن هناك اثنين يحملان السلة وأنها تتحرك وتكتب بلغات مختلفة . .

واستحضروا أرواح بعض المصريين . . ولاحظت أنها تكتب . . وأنها تكتب بعض النكت المصرية . . ولم أصدق أيضا . .

وأخذت عربة السفير والتقطت من الشارع اثنين لا أعرفهما . . وحملا السلة ، ورحنا نتلو الآيات القرآنية ونلتزم الهدوء . . وكانت السلة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين . . فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية ، وهى لغات أعرفها جيدا .

إلى أن طلبت من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والدى . . وكتبت السلة أنه لا يريد أن يحضر . . فشعرت بشىء من الارتياح ، وقلت لابد أنها أكذوبة . . وأخيرا حضرت الروح وكتبت .

ولم تنته دهشتى فقد كان خطها طبق الأصل من خط والدى ، وخصوصا إمضاءه .

وكتبت عن هذه الظاهرة . . ولا أعرف حتى الآن أى تفسير علمى لما حدث !

وعندما سافرت إلى مانيلا قابلت سفيرنا الظواهرى، وهو ابن الشيخ الظواهرى، شيخ الأزهر الأسبق.

وروى لى أن له أخا كان مغرما بتحضير الأرواح، وأنه منذ وفاة أخيه يكره هذه السيرة، ولا يحب الكلام عن الأرواح، ولكنه مع ذلك يؤمن بوجودها. وبعد أن قرأ ما كتبته أنا عن الأرواح، أصابه الفزع، فهو لم يعد يستطيع أن ينام فى الظلام . . لابد أن تضاء المصابيح كلها.

وهذا ما أصابنى أنا . . فلم أتمكن من النوم فى الظلام حتى بعد أن عدت إلى القاهرة . . وكنت أخجل من السيدة والدتى - التى قالت عنها السلة إنها مريضة جدا، وكانت مريضة فعلا - وكنت أتظاهر بأننى أقرأ فى الليل . . وكانت والدتى تنهض من فراشها وتطفئ النور وأنا نائم . . فكنت أنزعج وأعيد النور . . وظللت كذلك وقتا طويلا.

وفى إحدى المرات خجلت من هذا الفزع الصبيانى، فأطفأت النور . . ولم أعد أفتحه عندما أنام حتى الآن.

* * *

وسافرت إلى جزيرة بالى . . أقصى جزيرة فى إندونيسيا ذات الثلاثة آلاف جزيرة!

وهى جزيرة غريبة نصف نسائها عاريات . . أقصد كل النساء لا يلبسن شيئا فوق الحزام، أى النصف العلوى كله عريان تماما . . وهن لذلك فرجة !

* * *

وسافرت إلى أستراليا، وهى القارة التى لم يرها صحفى عربى قبل ذلك . . وناديت بأن تكون لنا سفارة، وأصبحت لنا سفارة، وقابلت فيها المصرية الوحيدة التى تعمل فى أحد المطاعم . . ولكن وجدت ٣٥ ألف لبنانى، وقابلت أفراد أسرة أسكيف، وكلهم من أصحاب الملايين، وكان أحدهم يبيع الأقمشة على ظهر

حصان. وفى إحدى الحفلات التى أقامتها الجالية اللبنانية للقنصل الدكتور كريم عزقول . . ارتفع الستار . . وسمعت موسيقى وأغانى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم.

وشعرت بالسعادة، فقد كانت حفلة تكريم لفن بلادى وعظمة بلادى.

وفى أستراليا عندما كنت أجلس مع الرسميين كانوا لا يعرفون اسمى، وإنما كانوا يقولون: يا مستر ناصر . . قل لنا يامستر ناصر . . أو ماذا رأيت فى بلادنا يا أحد أبناء ناصر.

وكان يسعدنى أن أسمع اسم ناصر فى أستراليا . . وكانوا يسألوننى: هل صحيح لم يعد عندكم أجانب؟ فأقول: عندنا أكثر مما عندكم؟ ويسألوننى: هل صحيح أنكم تكرهون الإنجليز؟ فأقول: لا نكرههم . . ولكن نكره الاحتلال . .

وكانوا يقولون - وهم أبناء إحدى دول الكومنولث البريطانى - نحن نكره الإنجليز . . وكنت أقول عندما كانوا مستعمرين كرهناهم . .

* * *

وسافرت إلى الفلبين ولم أتمكن من رؤية السبعة آلاف جزيرة التى تتكون منها . . اكتفيت بثلاث جزر فقط، واحدة منها يسكنها ثلاثة أرباع سكان الفيلبين، والثانية عبارة عن مطعم صغير والثالثة كان قد أغرقها المد بالليل . . وذهبنا نتفرج عليها عندما ينسحب عنها ماء المحيط الهادى . .

وأرجو أن أتمكن من زيارة بقية الجزر!

* * *

ورأيت جزيرة هونج كونج هذه المستعمرة البريطانية التى يملكها مليون صينى وتقع على حافة الصين التى يسكنها ٧٠٠ مليون صينى. إن هونج كونج أجمل فترينة فى العالم كله . . فيها المال والجمال، فيها العملية البسيطة جدا التى كان يحلم بها أجدادنا جميعا وهى كيف يتحول التراب إلى الذهب . . وفيها العملية البسيطة التى نعرفها كلنا ونعملها كلنا وهى كيف يتحول الذهب إلى تراب.

* * *

وفى اليابان سافرت إلى جزيرة اللؤلؤ وكتبت لأول مرة فى الصحافة العربية عن كيفية صيد وتربية وزراعة وتجارة اللؤلؤ فى اليابان.

وانبهرت وشعرت بسعادة لا حد لها وأنا فى بلاد كلها ألوان وفن وحياة وحيوية . . .

* * *

وعندما سافرت إلى جزر هاواى ركبنا من مدينة هونولولو طائرة خاصة وراح زميلى أحمد يوسف كبير مصورى «أخبار اليوم» يصور بالألوان البركان الذى ثار، والذى كانت تحوم حوله كل الطائرات المسافرة من اليابان إلى أمريكا ومن أمريكا إلى اليابان . . وكنا نطير فوق البركان وكنا نشعر بحرارة النار، ونحن فى داخل الطائرة . . لقد درنا فوق الفوهة التى مساحتها عشرات الأفدنة، أكثر من ستين مرة . . درنا حتى دخنا . . والتقطنا أول صور فى العالم عن هذا البركان . . فقد كنا إلى جوار البركان يوم ثار . . ووصلت إليه الطائرة بعد ساعتين . .

ونشرنا صور البركان قبل أن تنشرها مجلة «لايف» الأمريكية التى أرسلت أربعة من كبار مصوريها . . .

* * *

وفى أمريكا ألقيت نظرة أخيرة على الفاتنة الرقيقة الحزينة الراحلة مارلين مونرو . . ولا تزال عبارتها: إزيك يا إنت . . ترن فى أذنى . . فقد عاشت وحيدة محبوسة فى جمالها، وفى مجدها، وفى قمم الشهرة والمال والجمال، وماتت من شدة البرودة.

فكل القمم باردة، وكل القمم ضيقة.

* * *

وعندما عدت إلى أوروبا كانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها أوروبا عن طريق أمريكا . . ولكنها كانت المرة السادسة عشر التى أزور فيها أوروبا من جديد . . .

* * *

وأنا لا أدعى أننى ألممت بكل شىء . . ولا رأيت كل شىء . . ولا حتى رتبت هذا الكلام، وإنما نشرته كما كتبته . . بنفس الانطلاق والسرعة والمرح . . فقد كان المرح والسخرية هما «التعويض» الوحيد الذى كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة.

فقد كنت مسافرا وحيدا . . فى يدى حقيبة بها ملابس قليلة جدا، وكلما بليت الملابس ألقيتها واشتريت غيرها . .

وقد مللت السؤال الذى لا يتغير فى جمارك العالم كله: هل هذه كل أمتعتك؟

فأهز رأسى قائلا: نعم.

ويسألوننى: لماذا؟

ويكون ردى: أريد أن أكون خفيفا . . فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة وقلبا ثقيلا أيضا!

وقد جاء فى فصول الكتاب صورة لأفكارى ومتاعبى ومشاكلى . . . فقد كتبت هذه الفصول، جالسا مقرفصا، فى سريرى، هربا من البعوض، وأحيانا خوفا من الأفاعى والعقارب، وكتبتها تحت أشجار الموز، وكتبتها فى ظلال جوز الهند، وعلى منضدة استأجرتها من حديقة الدومين فى مدينة سيدنى، وكتبتها على مصابيح الجيشا فى كيوتو، وسجلتها وأنا مريض، وسجلتها وأنا خائف من الطريق الطويل الذى لم يمش فيه أحد قبلى . . .

وكنت أتفاهم بكل اللغات التى أعرفها، وكنت أتفاهم بالإشارة . . وكنت أتفاهم عن طريق التراجمة، وعن طريق تراجمة للتراجمة . .

وأنا أتمنى أن يكون عندى وقت لكى أكتب كل رحلاتى إلى أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا، بتفصيل وعمق . . .

* * *

وسيرى القارئ أننى فى هذا الكتاب أحاول أن ألعب على كل أصابع البيانو، البيضاء والسوداء، ولا أستطيع أن أدعى أننى عزفت لحنا عظيما، ولكنه لحن فى استطاعته أن يأخذك، أن يجعلك تعتذر عن موعد غرامى جميل!

وقد جاءت بعض فصول الكتاب غير متناسبة، وأحيانا كنت أكرر بعض المعانى، تماما كالمطرب الذى يعيد ويزيد !

وقد حذفت عشرات من الفصول السياسية لدرجة ستجد أنك أمام صفحات قليلة عن دولة أقمت فيها كثيرا مثل الفلبين !

فقد حدث أننى سافرت إلى الهند ومن الهند إلى سيلان ومنها إلى سنغافورة، ومن سنغافورة إلى إندونيسيا ومن إندونيسيا إلى الهند مرة أخرى. فقد جاءتنى برقية تطلب منى أن أسافر فورا لأكتب عن الصراع بين الهند والصين . . وبعد ذلك عدت إلى سنغافورة ثم إلى إندونيسيا ومنها إلى أستراليا . . فأنا أذكر الهند وإندونيسيا فى أماكن متعددة . . فكثيرا ما كتبت عن الهند وأنا فى إندونيسيا . . أو فى أستراليا . .

وبرغم مرضى وعذابى ومخاوفى طول الطريق، وانتقالى من الحر فى الهند إلى الجليد فى أستراليا، إلى الحر والمطر فى الفلبين إلى المطر فى هونج كونج، إلى العواصف والرعد فى اليابان، إلى الدفء والبراكين فى هاواى، إلى الجليد فى نيويورك . . رغم كل هذا كتبت ولم أتوقف عن الكتابة !

ولكن يعزينى عن هذا كله : أننى رأيت الدنيا، وأننى درت حول العالم . . وأننى رأيت من العالم أكثر مما يراه رواد الفضاء المحبوسون فى براميل من المعدن تنطلق بسرعة ٢٨ ألف ميل فى الساعة وعلى ارتفاع ٢٢٠ ميل من الأرض . . لقد رأوا الدنيا من فوق، ولكنى مشيتها، رأوا الغابات والمحيطات، وأنا رأيت المدن والقرى والناس . .

ويعزينى أن الملايين تمنوا أن يفقدوا نصف عمرهم أو ثلاثة أرباع عمرهم، وأن يسافروا مثلى !

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم بعض ما تمنوه، وأتمنى لكل قارئ أن يسافر مثلى، وألا يتعذب مثلى، وأن يسافر هو وأهله وأحب الناس إليه، لا أن يسافر وحده وليس له أحد، ولم يكن له أحد يودعه عند سفره من القاهرة، ولم يكن له أحد يستقبله عند عودته إلى القاهرة.

خرجت وحيدا، ورجعت أكثر وحدة !

* * *

والمسافر كما يقول المثل الإنجليزى: يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شىء، وأن تكون له أذنا حمار ليسمع كل شىء، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أى شىء، وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أى شىء، وأن تكون له ساقا معزة لا تتعبان من المشى . . وأن يكون له ـ وهذا هو الأهم ـ حقيبتان: إحداهما امتلأت بالمال والثانية امتلأت بالصبر !

وقد حفظت هذا المثل جيدا . . وإن كنت قد نسيت كثيرا ما الذى أفعله كالصقر وما الذى أفعله كالحمار . . ولكن لم أنس أن أكون جملا وأن أصبر، فالله مع الصابرين، وقد كان الله معى . . لقد أنقذنى من الموت عدة مرات . . أنقذنى من بعوضة مرض الفيل، وأنقذنى من الغرق، وأنقذنى من الضياع فى الغابات . .

وكنت أقول دائما: إنه دعاء أمى . . فليس لها فى الدنيا من عمل سوى أن تدعو لى . . وهى كثيرا ما تدعو الله، وكنت أندهش لهذا الإسراف فى الدعاء، وهذا الإلحاح على الله، ولكن عندما رأيت الدنيا، ومتاعب الدنيا الواسعة، أدركت أنها على حق، فهناك أشياء كثيرة لم أكن أعرفها تستحق الكثير جدا من عناية الله !

* * *

ولم أنس طول الرحلة هؤلاء الجبابرة من المغامرين من أمثال ماركو بولو . . وابن بطوطة . . ولم أنس الذين داروا حول العالم فى سفن شراعية مثل ماجلان وفاسكو داجاما . . وكولومبوس وأمريكو فسبوتشى . . هؤلاء العباقرة الذين ركبوا سفنا بدائية فى محيطات مجهولة، وفى ظروف بدائية . . بلا طعام ولا دواء ولا خرائط . . لقد كنت أذكرهم فى كل قارة اكتشفوها وأنحنى إجلالاً لهم .

ولم أنس أبدا تلك الرحلة الوهمية الساحرة التى كتبها القس سويفت بعنوان «رحلات جيلفر» . .

فهذا البطل جيلفر قد ألقت به السفينة فى بلاد الأقزام . . وربطوه بالحبال وسحبوه إلى قصر الملك، وانتقل من بلاد الأقزام إلى بلاد العمالقة، وكان الأطفال

يلهون به بسبب الشبه الشديد بينه وبين الإنسان . . ثم ألقت به الأمواج إلى أرض المثقفين وهم أناس فى حالة غيبوبة عقلية ولديهم مشاريع وهمية . . ووراء كل واحد منهم خادم يذكره بماذا يريد أن يقول، وماذا يريد أن يقترح . . وبعد ذلك سافر إلى بلاد السحر . . فهناك رأى كل عظماء التاريخ، الذين أكدوا له أن التاريخ كله كذب فى كذب، وأن المؤرخ يكتب ووراءه مدفع الحاكم القوى، فهو يكتب تاريخ الرجل القوى . . وألقت بـه السفينة بعد ذلك إلى أرض فيها أناس فى غاية البلاهة، وهؤلاء الناس تحكمهم خيول فى غاية العقل . . واحتاروا فى أمر جيلفر هل يعتبرونه إنسانا غبيا مع أنه ذكى، أو هل يعتبرونه حصانا ذكيا مع أنه ليس حصانا . .

وأخيرا طردوه لأن له جسم الإنسان وذكاء الحصان ! !

وبعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة التى أدرك فيها جيلفر أن كل شىء فى الدنيا نسبى . . فأنت طويل فى بلاد الأقزام . . وقزم فى بلاد العمالقة، وغبى فى بلاد الخيول، وكذاب فى العالم الآخر .

بعد هذه السنوات من العذاب والهوان، دق باب بيته، وفتحت له الزوجة الباب، ثم طبعت قبلة على خده .

وهو منذ هذه القبلة الكريمة الباردة أخذ يكره الإنسان ويحب الحيوان . . وكلما ازدادت معرفته بالناس، ازداد عشقه للحيوان !

ولم أجد أحدا يقبلنى عند عودتى، ولا أحد أقبله .

وحمدت الله، فأنا أحب الناس، فى كل مكان . . ولا أريد أن أكره أحدًا كما فعل جيلفر فى كل البلاد .

فأنا أحب الأسود والأسمر والأصفر والأبيض . وكل إنسان مربوط بظروفه . . وكل إنسان مدفوع إلى الأمام بتاريخه . . والعالم يتكلم بعدة لغات وعدة مصالح .

ورأيت أن الفوارق بين الناس قليلة جدا . . فكل الناس تحت الجلد متشابهون !

* * *

إننى لم أعرف الكثير جدا من الدنيا، ولم أعرف إلا القليل جدا من نفسى . . فعيناى مفتوحتان على الدنيا، ولكننى بلا عينين عندما أنظر إلى داخلى . . إلى الزحام فى داخلى . . إلى الوحشة المظلمة فى أعماقى . . إلى الإنسان الذى نسيته يصرخ ولا أسمعه ولا أتبينه . . ولا أعتقد أننى سأستطيع يوما ما . . فقد اتسعت المسافة بينى وبينه . . أو . . بينى وبينى . . وإنى فى حاجة إلى ترجمان، ترجمان صديق . . يخبرنى ماذا أريد أن أقول لنفسى . . ماذا أريد من نفسى، ماذا أستطيع . . ما الذى أقدر عليه . .

إن كل الذى استطعت أن أعرفه فى دورانى حول العالم هو أننى أستطيع الكثير . . وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير . . أن يأكل رغيفا فى اليوم، وأن يعمل عشرين ساعة . . دون أن يتعب .

ففى كل إنسان قوة هائلة، لا يستطيع أن يستغلها . .

وفى كل إنسان كنز من الحيوية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتمال والصبر .

وإننا لا ننفق من هذا الكنز إلا القليل . .

وإن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب .

وإنه يعمل أقل مما يجب . .

وإنه يخاف أكثر مما ينبغى . .

وإنه لا يعرف نفسه . . وإنه لا يعرف حدوده الشاسعة الواسعة . .

وربما كانت هذه عدوى فلسفة «اليوجا» . . فلسفة الاحتمال والصبر . . فلسفة الزهد فى الحياة . . فلسفة السلام مع الناس ومع النفس . . فلسفة معانقة الجوع والعطش . . فلسفة التمرد على الخوف والتمرد على الجبن . .

وربما كانت هذه الفلسفة هى المرض الوحيد الذى أصابنى وأنا أنتقل من معبد إلى حانة، ومن حانة إلى غابة . . إلى جبل . . إلى قمة جبل . . إلى طائرة فوق محيط فى أثناء عاصفة والناس نيام . . والظلام حالك . . فوق السحاب . . ساعات من

الاستسلام . . لا أسمع إلا محركات الطائرة . . أما قلبى فكان لا يدق . . كأنما كان يكتفى بقلب آخر فى مصر يدق من أجلى . . ويخفق لى . .

وعدت إلى مصر الغالية العزيزة . .

وفى الطائرة ألصقت فمى بالنافذة أقبل بلادى ، وفى المطار مددت ذراعى أعانق كل الناس . . فبلادى هى أكرم بلد وأهلى هم أطيب الناس !

* * *

وانتهت رحلة الغريب فى عالم غريب . .

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن انتهت رحلتى حول العالم، عدت من جديد إلى السفر. لقد جمعت القليل جدا من ملابسى، وبعض الأوراق، واتجهت فى سيارة جيب إلى أقصى الجنوب . . إلى الكونغو، ولم تتحرك هذه السيارة خطوة واحدة، ومع ذلك فقد وصلت بها وبسرعة ٥٠٠ كيلو فى الساعة إلى مدينة كوكيا تفيل فى الكونغو !

وهذه الفزورة لها حل: إننى ركبت عربة جيب فى داخل طائرة تابعة للأمم المتحدة مرافقا لقواتنا العربية التى ذهبت تحمى ثورة الشعب بزعامة لومومبا . . وكانت هذه السيارة محاطة بالقنابل وبالمدافع وبشباب أسمر أقوى من القنابل والمدافع يحمى قضية الحرية فى القارة السوداء . .

وارتفعت الطائرة وانخفضت درجة الحرارة فى داخلها فقد كانت طائرة غير مكيفة . . وبدأت أرتجف من البرد وكأننى عريان فوق جبال الهملايا . . أو كأننى سقطت فى ميناء سيدنى فى عز الشتاء. وعادت الطائرة إلى مطار القاهرة لتصلح جهاز التكييف، ثم ارتفعت الطائرة وارتفعت درجة الحرارة وكدنا نختنق . . ولا أعرف إن كان الغرض من ارتفاع درجة الحرارة هو إتاحة الفرصة للمواد الملتهبة لكى تنفجر وتنتهى هذه الرحلة، ونتحول من مسافرين إلى شهداء من أجل السلام . .

ونزلت الطائرة إلى أرض القاهرة، وتم إصلاح جهاز التكييف، وحمدنا الله. وعدت إلى مكانى أمام عجلة القيادة أميل بصدرى عليها محاولا أن أستريح أو أهرب من المسامير التى برزت فى كل جانب من جوانب السيارة . .

وهبطت الطائرة فى الخرطوم فى الشتاء الدافئ . .

وعادت لتهبط مرة أخرى بين الأحراش فى الكونغو [١] .

وبعد أيام رجعت إلى القاهرة . . فقد استغرقت هذه الرحلة ألوف الأميال وثلاثة أيام . . وقد سجلت بذلك أطول وأقصر رحلة قمت بها فى حياتى !

* * *

وسافرت إلى الكويت للمرة الثانية . . ورأيت هذه الدولة النامية قد تغيرت معالمها بسرعة . . وزحفت على الصحراء بيوتها الجميلة الأنيقة . . ورأيت شيئا أهم وأعظم من بيوتها الجميلة . . رأيت شعب الكويت الذى اتسعت آفاق وعيه ومسئولياته نحو الكويت ونحو الأمة العربية . . ولى فى الكويت أصدقاء كثيرون : أدباء وشعراء وساسة ، وكلهم ثروة لنا ، وطليعة للوعى العربى فى شبه الجزيرة وفى الخليج العربى .

وتمنيت أن أؤلف كتابا عن الكويت ، وأرجو أن أتمكن من ذلك .

* * *

ووقعت أحداث فى العالم ، غيرت معالم الخريطة . .

وكنت أتمنى أن أسجلها ، وسأفعل إذا ما أتيحت لى الفرصة بعد ذلك . . انطلق الرصاص على رئيس سيلان باندرانيكة ، وظهرت بعده زوجته العظيمة فى مكانة الشرف للمرأة الآسيوية . .

وقتل الرئيس كنيدى . . وهو تلك الظاهرة الغريبة فى تاريخ أمريكا ؛ فهو يرأس دولة رأسمالية بعقلية سلامية . قتله يهودى بولندى ، وجاء يهودى آخر وقتل القاتل . . وضاعت معالم الجريمة فى وضح النهار ، ولكن المؤكد أن أمريكا خسرت شابا عظيما ، والعالم كله أيضا ، وبكت عليه عيون فى كل الدنيا . . بكت شبابه وشجاعته وحبه للتعايش السلمى بين الشعوب . .

ونهرو مات . . ذلك الرجل العظيم الذى كان أروع معالم الهند وآسيا . .

والعقاد الذى ولد مع نهرو فى العام نفسه مات هو أيضا . . إنه أكبر

---

(١) اقرأ كتابى «بلاد الله . . خلق الله . . » .

المفكرين العرب، وأوسعهم أفقا وأعلاهم رأسا وأشدهم حرصا على كرامة الفكر والإنسان . .

ومات أجينالدى الزعيم الفلبينى . . وهو يشبه الزعيم العربى أحمد عرابى باشا . .

وغرقت جزيرة بالى الجميلة على أثر بركان عنيف . . أضاع معالم الجزيرة؛ هدم معابدها وجبالها الساحرة . . وهربت القرود المقدسة تحتمى فى أشجار جوز الهند، ولكن هذه الأشجار تحولت إلى وقود . . وأصبحت الجزيرة شعلة من النار !

وظهرت دولة جديدة هى ماليزيا تضم الملايو وجزرا أخرى قريبة من إندونيسيا . . وسنغافورة أصبحت دولة مستقلة .

وأصبحت لنا سفارة فى أستراليا، تماما كما كنت أحلم بذلك . . هذه القارة الغنية السعيدة .

وحذفت من هذه الطبعة الثانية كلمة «جدا» . . وإن كنت فى كثير من الأحيان قد نسيت ذلك . . فقد سجلت فى الطبعة الأولى فرحتى بالعالم الواسع الملون الباهر البكر . . واحتفظت بهذه الدهشة . . وأبقيت نبرتى العالية . . فمن الصعب أن يندهش الإنسان ويصرخ بصوت منخفض . . وليست علامات «التعجب» المنتشرة فى كل الكتاب، وليست كلمات «جدا» إلا دليلا على أن دهشتى لم تنته، وحماسى لم يخمد . . فالذى رأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، كيف لا يندهش؟ وكيف لا يفكر بعد هذه الدهشة فى معنى العجائب التى يراها !

فالدهشة هى بداية المعرفة الإنسانية .

فالإنسان يندهش وبعد ذلك يتساءل . . وبعد أن يتساءل يفتش عن الإجابة . وقد تساءلت كثيرا جدا، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع .

وإذا كنت فى الطبعة الأولى قد اندهشت وتساءلت، ففى هذه الطبعة الثانية قد أجبت كثيرا، وعملت بنصيحة الأصدقاء، فقد نصحونى بأن أعيد قراءة ما كتبت، وقد فعلت . . وأن أجعل الكتاب كله حلقات مترابطة، وأن أحتفظ لها بروح المرح والخفة، وأن أخفى وراء هذا المرح بعض المعلومات . . وقد فعلت، وأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك .

وقد لاحظت ـ مثلا ـ أننى كنت مبهورا جدا بالراديوهات الترانزستور فى اليابان، وكنت أتأمل هذا الجهاز العجيب بدهشة لا تنتهى، وقد أصبح هذا الراديو من صناعاتنا الناهضة، وأصبح فى متناول يد الأطفال والشباب فى كل مكان . . فلم يعد شيئا باهرا.

حتى صناعة اللؤلؤ اليابانية التى رأيتها وكتبت عنها لأول مرة فى تاريخ الصحافة العربية، هى الأخرى أصبحت من المشروعات العلمية عندنا؛ فهناك محاولات جادة لزراعة اللؤلؤ فى مياه البحر الأحمر.

ولقى هذا الكتاب جمهورا متعطشا لمعرفة الدنيا، وانتشر فى كل مكان، ونفدت طبعته الأولى بسرعة أدهشتنى، وضايقت الدار التى نشرته، فهى حريصة على أن يبقى الكتاب معروضا فى المكتبات وقتا طويلا؛ يسأل عنه الناس، ويتحدثون عنه . . ولكن هذا الكتاب فاجأ الجميع بأنه اختفى فى حوالى ثلاثة شهور . . عشرة آلاف نسخة فى مائة يوم!

وتلقفت هذا الكتاب أجهزة الإعلام كلها.

الصحف تتحدث عنه، وأشارت إلى المتعة التى يلقاها كل قارئ . .

فليس أسهل من أن يلف القارئ الدنيا وهو جالس فى مكانه.

والإذاعة تناولته على شكل سلاسل . .

واقترح أستاذنا الكبير محمد التابعى أن يصوره التليفزيون فى حلقات . . وسيحدث ذلك قريبا . .

وبحث هذا الكتاب قراء من اليمن ومن غينيا وغانا والكونغو وموريتانيا . . ووجدت نفسى مضطرا إلى أن أبحث عن نسخ من هذا الكتاب كنت قد أهديتها إلى أصدقائى، فسحبتها وأنا حائر بين الألم والسعادة . .

ثم كانت هذه الطبعة الثانية التى أعترف بأننى أدخلت عليها تعديلات جوهرية، وربما كان من الأنسب أن أقول: إننى أعدت كتابة الطبعة الأولى، وأضفت إليها مئات الصفحات. وبذلك يصبح هذا الكتاب ممتعا ومفيدا فى الوقت نفسه.

وقد أقسم لى توفيق الحكيم بشرفه وأولاده بأنه اشترى نسخة من جيبه . . أى من فلوسه!

ألا ترى أن هذا الكتاب قد أحدث تغييرا جذريا فى فلسفة كاتب عظيم مثل توفيق الحكيم .

وأعترف بأن نفاد الطبعة الأولى بهذه السرعة يشجعنى ولا شك على أن أكتب رحلاتى إلى أوروبا وإلى الشرق الأوسط فيما بعد، فقد سافرت إلى أوروبا ١٦ مرة. . رأيتها وهى منهارة . . على شكل صفيح أسود، وطوب وطين وفحم . . ورماد على وجوه النساء، وفى أفواه الأطفال وفى أفكار الرجال .

ورأيتها وهى تتلألأ فى الليل، وهى حية نظيفة أنيقة فى النهار . .

ورأيت الشرق الأوسط . . رأيت العراق بعد ثورة الطاغية عبد الكريم قاسم . .

ورأيت الأردن وسوريا ولبنان . . وعندى ما أستطيع أن أقوله . . وقد وقعت أحداث، وظهر واختفى أشخاص . . وشاعت آراء ومواقف .

لعلى قد أسرفت فى وعودى، ولكن القارئ مسئول عن هذا الإسراف، فهو الذى شجعنى، وأنا أستمد من تشجيع القارئ شجاعتى ومتعتى وأملى فى الحياة . .

وأنا فى كل مرة أفكر فى رحلتى الطويلة جدا هذه . . أتذكر القصة التى يرويها الكاتب الأمريكى جيمس متشنر، الذى ألف أروع قصة عن جزر هاواى، فهو يقول: إنه فى كل مرة يسأله الناس عن سبب ذهابه إلى جزر هاواى مرة أخرى يقف على لسانه سؤال آخر يوجهه إلى الشخص نفسه الذى يسأله: ولماذا أنت فى جزر هاواى؟

ولكن حياءه يمنعه من توجيه هذا السؤال . . أو رده أو صده . . كأنه كرة ارتطمت بالحائط . .

وأصبح من عادة متشنر كلما سأله إنسان عن سبب وجوده فى هذه الأماكن النائية أن يقول: يا سيدى حدث أننى عندما ذهبت إلى جزر هاواى لأول مرة . . أحببت فتاة حلوة . . سمراء رقيقة صوتها حرير . . وشعرها حرير أبيض . . والحياة

معها حرير . . وعقارب الساعة كانت أيضا من الحرير . . إننا لا نشعر بالزمن . . وقررت فى يوم من الأيام أن أتزوجها وذهبت لأشترى لها من أحد محلات المجوهرات هدية على شكل قلب ذهبى ، وبينما أنا عائد إلى الفندق هاجمنى بعض اللصوص وضربونى وسرقوا المحفظة . ولا أدرى بالضبط ماذا حدث بعد ذلك ، لقد فقدت وعيى . . وفقدت ذاكرتى أيضا ! وعندما أفقت وجدت سلسلة من الذهب ملفوفة حول عنقى ويتدلى منها قلب ذهبى ، ولم أستطع أن أعرف ما معنى وجود السلسلة ، فأنا لم أعد أتذكر شيئا بالمرة ، وسافرت بعد ذلك إلى الهند . . وعلى سفوح جبال الهند . . كنت أتفرج على بعض الطيور وبعض الناس المساكين الذين يزحفون على الأرض فى قناعة وسعادة تامة ، وبهرتنى هذه القناعة وأخذتنى هذه السعادة ، وسقطت على الأرض ، لا أعرف كيف سقطت . . ربما كان السبب هو أننى ضغطت بعض الشىء على أحد الأحجار . . وشكرا لهذه الأحجار الكريمة . . فعندما سقطت على الأرض ارتطم رأسى بحجرة أخرى أكثر كرما من الأولى . . وفى هذه اللحظة استعدت ذاكرتى . . وتذكرت بوضوح شديد جدا هذه القصة ، فقررت السفر إلى جزر هاواى لألحق بحبيبة القلب التى حرمنى منها اللصوص . . وسافرت إلى هاواى وسألت عن الحبيبة . . ووجدتها أما لعشرة أطفال وقد زاد وزنها فأصبح حوالى مائة كيلو . . ولاحظت أن الذراع التى كنت أستند عليها وأنا أمشى إلى جوارها قد أصبحت مليئة بالعضلات ، ولما عرفت أن زوجها يعمل حدادا عذرتها ، وتمنيت له مزيدا من الأطفال وتمنيت لها مزيدا من العضلات ، وتمنيت لنفسى مزيدا من القصص لكى أرد بها على السؤال الذى يتكرر دائما : ولماذا أنت فى جزر هاواى؟

وهذه القصة ابتكرها متشنر مفسرا بها سبب وجوده فى هاواى ـ مع أن الإنسان ليس فى حاجة إلى أسباب خارقة ليكون فى مكان ما . . فى أى مكان . إن أهل هاواى أنفسهم لم تخلقهم معجزة وإنما جاءوا وتكاثروا ولا يزالون هناك . . .

أما السبب الحقيقى الذى جعل الكاتب الأمريكى يسافر إلى هاواى فهو أنه كان ضابطا فى البحرية ، سبب بسيط جدا ، ولكنه ليس جميلا .

وأنا شخصيا أحب القصة التى ابتكرها وأفضلها على السبب الحقيقى الذى ليس جميلا ولا ممتعا !

وأتمنى أن يسألنى الناس هذا السؤال، وأتمنى أكثر أن يسعفنى خيالى بقصة جميلة لسبب وجودى فى كل هذه البلاد التى ستقرأ عنها فى هذا الكتاب . .

* * *

أما الذى كسبته من هذه الرحلة المرهقة التى تركت علامات عميقة فى نفسى، فالجواب عن ذلك جاء فى آخر صفحة من قصة الكاتب الفرنسى «جيل فرن» التى ظهرت على الشاشة وعنوانها : «حول العالم فى ٨٠ يوما» . . ففى الصفحة الأخيرة يسأل الخادم بطل هذه القصة واسمه فيلياس فوج : ما الذى كسبته من هذه الرحلة؟ أنت تراهنت على مبلغ عشرين ألف جنيه، ولكنك أنفقت ١٩ ألف جنيه . . والألف الباقية أعطيتنى إياها؟

والذى لا يعرفه هذا الخادم هو أن الرحلة نفسها ممتعة ومثيرة ومفيدة . . .

وأن المكسب هو المشوار . . هو الشوق والحنين . . وانتظار الناس حولى لكى أقول لهم ما رأيت وكيف رأيت . .

ولو طلبت منى أيها القارئ أن ألقى قلمى الآن وأدور حول العالم من جديد، الطريق نفسه، والأمراض نفسها، والمخاوف نفسها، فإننى لن أتردد . . فليس فى الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر، وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا، وكل الذين يحلمون ببلاد بعيدة جديدة !

مقدمة الطبعة الثالثة
بقلم الدكتور طه حسين

هذا كتاب ممتع حقا؛ تقرؤه فلا تنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت فى قراءته.

ومع أنه من الكتب الطوال جدا فميزته الكبرى هى أنك حين تقرؤه لا تحتاج إلى راحة وإنما تود لو تستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره فى مجلس واحد، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع.

ومن المحقق أن هذه الرحلة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة.

ومن يدرى لعل أن تمتاز عنها ببعض الخصال، فصاحب الكتاب حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه.

وإنما هو يمضى فى الكتابة مع اليسر والإسماح، مرسلا نفسه على سجيتها، مطلقا لقلمه الحرية فى الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل، لا يتكلف الفصحى ولا يتعمد العامية، وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجتين.. وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يغرب عليك فى لفظ أو معنى وإنما يستجيب لطبعه ويظفر بإرضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والإسفاف.

وقد أخذت فى قراءته ذات يوم فكان أشد ما أضيق به العوارض التى تعرض فتصرفك عما أنت فيه على كرهك لهذا والضجر به. والإحساس الذى لا يفارقك أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد، وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة ومن سخط أو رضى، تسافر معه وتقيم حين يقيم مع أنك لا تبرح

مكانك، وإنما هى براعة الكاتب وإسماحه يستأثران بك ويخيلان إليك أنك تلزمه فى حركته وسكونه كأنك ظل له لا تفارقه.

وأشهد بأنى وجدت هذا الشعور منذ أخذت فى قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه.

وما أرى إلا أنى سأعيد قراءة فصول كثيرة منه وهذا أقصى ما يتمنى رحالة أن يبلغ من نفوس قرائه.

ومع أن الكاتب يسمى كتابه «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» فهو قد طوف فأكثر التطواف ووصف فأحسن الوصف، فهو لم يزر العالم كله، وإنما زار الأجزاء البعيدة منه فى الشرق الأقصى وفى أمريكا.

وما زالت هناك بلاد كثيرة لم يلم بها ولم يتحدث عنها، فهو لم يزر من الصين إلا هونج كونج، ومن يدرى ماذا كان يقول لنا لو أنه زار الصين وبلادا أخرى كثيرة فى آسيا، كآسيا الوسطى الروسية وكإيران وتركيا وجزيرة العرب.

ولا أذكر العالم العربى فى آسيا فأكثر الناس يعرفون عنه الكثير.

وما زالت أمامه أجزاء خطيرة من العالم يجب أن تضاف إلى الصين وإلى الأجزاء الآسيوية الأخرى التى لم يزرها. وهو قد زار بعض البلاد الأوروبية، ولكنه لم يزرها زيارة الرحالة.. كما أنه فيما أعلم لم يزر بلادا كثيرة فى أوروبا، ولم يزر روسيا الأوروبية ولم يزر البلقان. وتبقى بعد هذا كله قارة كاملة تدعوه إلى زيارتها فى إلحاح وهى القارة الإفريقية على اختلاف أقطارها.

لست أقول هذا ناقدا له وإنما أقوله متمنيا عليه زيارة هذه البلاد كلها ووصفها كما وصف البلاد التى زارها، مهما يكلفه ذلك من مشقة فى السفر والإقامة والكتابة بعد ذلك، وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يتم ما بدأه فيزيد فى إمتاع قرائه، ثم هو لا يمتع قراء هذا الجيل وحدهم وإنما يمتع أجيالا أخرى كثيرة كما استمتعت أجيال كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوروبيين.

ومن المحقق أن الذين سبقوه من أصحاب الرحلات لم يزوروا الأرض كلها ولم

يصفوها، وإنما اكتفوا بما زاروا من بعض الأقطار، ولكن الأستاذ الكاتب يستطيع أن يصدق بيت أبى العلاء:

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ‏ ‏ ‏ ‏ لآت بما لم تستطعه الأوائل

فأبو العلاء لم يغل فى هذا البيت لأنه أتى فى شعره وفى بعض نثره بكثير مما لم يسبقه العرب إليه، ولم يلحقوه فيه إلى الآن. فما يمنع كاتبنا من أن يأتى فى الرحلات بما لم يستطعه من سبقه من الرحالين، ولعله آخذ فى بعض ذلك فيما يأتى من الزمان.

وليس من شك فى أنه قد أتى فى رحلته هذه بما لم يسبقه إليه أحد من معاصريه، وأنا أكره له أن يصدق عليه بيت المتنبى:

ولم أر فى عيوب الناس عيبا ‏ ‏ ‏ ‏ كنقص القادرين على الكمال

وفيه والحمد لله قدرة على الأسفار واحتمال المشقات، وقد منحه الله من الشباب والقوة وحسن الصبر والاحتمال ما يمكّنه من ذلك إن أراد. وأنا أرجو أن يعينه الله على ما قد يحاول من ذلك، ولا أخفى عليه أنى مشوق كل الشوق إلى أن أقرأ وصفه لأفريقيا، وليكن ذلك فى جزء أو جزأين. وهو قد أثبت بكتابه هذا أن الله قد يسره للتطواف فى أقطار الأرض ووصف ما يزوره منها كأحسن وأمتع ما يكون الوصف، وما أظن أن «أخبار اليوم» تحول بينه وبين ما يسره الله له. فليعزم وليتوكل على الله، وأنا أهنئه بكتابه هذا وأتمنى له النجاح والتوفيق حتى يبلغ من إتمامه ما نحب.

مقدمة الطبعة التاسعة
بقلــم : محمــود تيمــور

التزمت أخيرا فى سلسلة الصور الوصفية التى أعالج بها رسم شخصيات الأدباء والمفكرين المعاصرين لى، أن أجمع فى كل حلقة بين اثنتين من الشخصيات، صاحباهما تتسع بينهما دائرة المشابهات، أو على العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق. فلما أمسكت بالقلم لأصور صديقنا الأستاذ «أنيس منصور» حاولت جاهدا أن أجد له شبيها، فلم يتيسر لى الشبيه، وحاولت كذلك ما وسعتنى المحاولة أن أجد له نقيضا، فعز على أن أوفق إلى النقيض، فقد رأيتنى أمام امرئ ليس من السهل اكتناه أمره، واجتلاء سره.

نظرت إليه على أنه من الملائكة، فلم تنكشف لى شخصيته بهذا الاعتبار، وعددته من زمرة الشياطين، فاستبان لى أنى ظالم له، ذلك لأنه فى الحق مزاج طريف نادر من الملائكية الطاهرة، والشيطانية الماكرة . .

أمشاج من المتناقضات تتراءى لك فى هذه الشخصية العظيمة، فإذا أنا أفردت صاحبها بالحديث، دون أن أقرنه بغيره، لأنه هو نفسه - فى الحق - ذو شخصيتين أو أكثر من اثنتين !

يتحدث إليك، فلا تدرى: أيهزل أم يجد؟ ويعرض عليك الرأى، فتحار فيه: أيصارح أم يداور؟

إنه لغز عصى وإن هذا اللغز ليتبلور فى نقطة واحدة، وهى: ابتسامته . . تلك الابتسامة التى تجمع فى تضاعيفها معالم شخصيته . . وما أشبهها بجنين فى بطن

أمه خلال الأشهر الأولى من تخلقه. فهو على الرغم من صغر حجمه، ودقة تكوينه، يحوى كل العناصر التى يتشكل منها عناصر المستقبل.

أنت تواجه هذه الابتسامة، كما تواجه «ابتسامة الجيوكندا» . . مبهوتا حيران، لا تملك لها تحليلا ولا تعليلا . . هل هى ابتسامة كاملة الشكل، ناصعة المعنى؟ هل هى ظل ابتسامة لا تظهر من الحقيقة إلا الأبعاد التى يظهرها الظل، لا تكشف سترا، ولا تعطى خبرا؟ هل هى شروع فى ابتسامة لا تعرف ما وراءها؟ هل هى خاتمة ابتسامة، فاتك أن تتابع مراحلها، لتستبين مراميها؟ ما لونها؟ ابتسامة ترحيب هى؟ أم ابتسامة استهزاء؟ أم ابتسامة اللامبالاة؟ أتراها تدل على واحدة من هذه الدلالات، أم هى تحوى كل هذه الدلالات مجتمعة فى وقت واحد؟

مهما تُطل القول فى التحليل والتعليل، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة: أن ابتسامة «أنيس منصور» هى «أنيس منصور» نفسه - هى هو - أو قل: هو هى، لا انفصال بينهما ولا اختلاف.

سر «أنيس منصور» يكمن خلف ابتسامته، فإذا تفطنت إلى طواياها بدا لك الرجل بكل ما فيه.

ربما دار بينك وبينه نقاش، وتفترقان على رد، ولا تكاد تخطو خطواتك، تاركا إياه، مستعيدا حديثه إليك، حتى يتصاعد الدم إلى وجهك، إذ يغيم الجو من حولك بأصداء هذا الحديث، وإذا أنت تقول لنفسك: شد ما هزأ بى الرجل، وشد ما نال منى ! . . وسرعان ما تقصده مهتاج الخاطر، لتعتب عليه، كى يعتذر إليك، فيلاقيك رابط الجأش، ساكن النفس، وتحاول ما استطعت أن تستعيد من ألفاظه ما يعينك على مؤاخذته، فلا تظفر بما أردت، وتتراجع عن مطلبك، وكأنك أنت المعتذر إليه عن تسرعك، إذ تلوح لك فى ذلك الوقت «ابتسامة الجيوكندا» على وجهه . . حتم أنه هزأ بك، ونال منك . . وحتم أيضا أنه لم يفعل ذلك قط . . ولا غرابة فى أن يجتمع هذان النقيضان فى ابتسامة صديقنا «أنيس منصور» !

تقدم له مقالك ليجيز نشره، فيقرؤه فى ترحاب، ثم يقول لك: مقال هائل ! ويثير قوله فيك نوازع الشك واليقين فى آن واحد، فلا تدرى: أمقالك هائل فى

الجودة أم هائل فى السخف؟ وتتوارد على سمعك جملته الهائلة، فيعتريك من هولها دوار !

إذا قرأت له مقالا فى تقدير شخص أو تقويم كتاب، وجدت نفسك فى متاهة، تسائل نفسك : أمادح هذا الناقد أم قادح؟ وتجهد عقلك عبثا فى سبيل الوصول إلى خط فاصل : هل المقال يرفع الشخص أو الكتاب إلى الأوج؟ أو هو يخسف به الأرض؟ ولو كنت ممن وهبهم الله تلك الحاسة السادسة التى هى لون من ألوان البصيرة النيرة، أو الحدس الكاشف، لوجدت نفسك من عباراته المتلونة أمام جهاز كهربى لأكبر قوة معطِّلة لا يلبث أن يتصدى لحاستك السادسة، فيلقى عليها بضع إشعاعات، فإذا هى ترفع راية التسليم !

يطالعك الفصل الذى يكتبه فى أدب أو فن أو ضرب من ضروب المعرفة، فتفرغ من مطالعته وقد طاب لك أن تراجع نفسك فيما وعيت : هل كسبت جديدا؟ هل أفدت شيئا؟ ولا يلبث أن يلهيك عن الجواب شعورك بأن وجدانك عامر بما أصبت من المتعة، حافل بما غمرك من البهجة، وفى دخيلتك تطلع إلى المزيد.

أجمع الظن أن «أنيس منصور» خريج الدراسات الفلسفية الجامعية قد استفاد منها أنه ألقى بمذاهبها ونظرياتها وأعلامها جانبا، ولم يأبه لها جميعا، ولملم شتاته، متجها إلى ينابيع الحياة الفياضة، فكانت فلسفته إزاءها أن يرتوى بها، ويروى منها قراءه الأعزاء . . فلقد ربأ بنفسه أن يكون معلم فلسفات، وعارض نظريات، ومحلل مشكلات، وأبى على نفسه إلا أن يكون صانع مسرات . . إنه «مخرج» لأفلام المباهج الفكرية، فعمله يحمل من اسمه الأنيس أكبر نصيب.

من الدارسين من يجعلون قراءاتهم الدراسية كنزهم الثمين، ومرجعهم الوثيق، ولكن «أنيس منصور» جعل كل ما قرأه فى دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بدء وانطلاق . . فمضى يحلق فى مطالعاته، لا يقنع بنوع، ولا يقف عند حد، يصوب ويصعد، تارة يغوص إلى أعماق «أرسطو»، وطورا يعكف على «دلائل الخيرات»، ولا ينسى نصيبه حينا من قصص تباريح الهوى والشباب، يقرأ المعرفة واللامعقول، ويخوض فى المعقول واللامعقول، يمضى فى ذلك مدفوعا بالنزعة العارمة إلى تعرف المجهول في كل جانب من فكر أو أدب أو فن . .

إن «أنيس منصور» من «قوارض» الكتب والمجلات والنشرات، وكل ما خطه قلم على ورق . . يقرأ لك المائتين من الصحائف، ويحسن هضم ما قرأ، ثم يعرض عليك خلاصاتها فى سياق رائع . . وهو مرهف الذوق فى الاختيار والعرض، لا ينتقى لك إلا ما يشغل ذهنك، ويملأ سمعك، من موضوعات الساعة وقضايا العصر، فإذا عرض لك الماضى ربط بينه وبين الحاضر، ونفى عنه جفافه ووحشته، وأدنى إليك قطوفا من أطايب الثقافة والفكر فى القديم والحديث.

ذلك كله، جعل من «أنيس منصور» كاتبا صحفيا، أصيل الثقافة، رفيع الطراز، تتسم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوعى الذى يقفك على أكثر من جانب يدور بك فى أكثر من زاوية، ولا يدعك إلا ملما بأشتات الموضوع الذى يعرضه عليك . . .

«لأنيس منصور» أسلوبه الذاتى، وهو أسلوب تتضح به شخصيته، وأكبر عناصره تلك الجاذبية التى تجعل قارئه يحرص على أن يتابعه على تواصل الأيام . . . كأنه يتابع رسالة موصولة الحلقات، أو لكأنه يوالى الاستماع لقصص «ألف ليلة وليلة» التى لم يمل «شهريار» الاستماع إليها فى لياليه الطوال . . .

والجاذبية فى أسلوب « أنيس منصور» تريدك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه فيما يتناول من الموضوعات، وهو فيها يوما من «الأحرار» ويوما من «المحافظين»، ويوما من «العمال»، وأنت فى جميع أحواله يحدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن تقرأ له، وتقتنع بما يقتنع به، ولا تخرج آخر الأمر، إلا وأنت راض عن نفسك وعنه، مطمئن إلى موقفك منه، وإن لم تكن تدرى عن أى شىء رضيت، وفى أى موقف استقر بك المقام.

مفتاح الطابع الشخصى لكتابات «أنيس منصور» هو: «المفارقات» . . لا يكاد يخلو منها مقال أو حديث له، بل إنها هى القالب التقليدى للكلمات اللاذعة أو الباسمة التى يذيل بها أحاديثه، ويجريها مجرى الحكم والأمثال . . وهو فى هذا الطابع شبيه «أوسكار وايلد» ولابد أنه أعجب به فى هذه الناحية، ووافقت منه هوى . . وليس من شك فى أن «المفارقات» عنصر خلاب، وسلاح نفاذ، إذ هى تقوم على أساس المفاجأة والإثارة، وتنطوى على التهكم والسخرية والمفاكهة، وفى

هذا ما يشد الانتباه، ويهز المشاعر . . وذلك ما جعل «أنيس منصور» مفتونا باتخاذ هذا العنصر الخلاب والسلاح النفاذ.

أما لغة «أنيس منصور» فهى جانب آخر من ابتسامته «الجيوكندية» . . حينا يطالعك بالفصيح من التعبير، فيبهرك بما يتخير من اللفظ، وطورا يتعمد متطرفا اتخاذ كلمات عامية متطرفة، على حين أن مقابلاتها العربية لا تغرب عنه، ولا تستعصى عليه . . مرة تأخذه «الجلالة» اللغوية، فيستمسك باستعمال كلمة «اللمسات» للتعبير عما يقال له «الرتوش»، وحينا تجنح به نزعة اللامبالاة، فيجرى قلمه بكلمة «صرماتى» بدلا من كلمة «الإسكاف».

و«أنيس منصور» مؤلف كثير الإنجاب . . ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كتبه التى يوالى إصدارها . . وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروعك بطرافتها، فهو صاحب كتاب «ساعات بلا عقارب»، وكتاب «وداعا أيها الملل» وغيرهما من الكتب التى تحمل لطائف الأسماء.

ولا ريب فى أن كتابه «حول العالم فى مائتى يوم» من خير ما أنتج . . ولعل إيثارى له يرجع إلى شغفى بالرحلات وكتب الرحلات، حتى أنى أقحمت نفسى فى هذا الميدان، بما كتبته فى وصف بعض السفرات التى قمت بها فيما وراء البحار . .

وكاتب الرحلات الناجح لابد أن تتوافر له ألمعية الملاحظة، ورهافة الفطنة، وسرعة الالتقاط، والقدرة على استبانة الملامح والمعالم، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة، وما يتصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع الاجتماعية التى لا تخلو من غرابة . . . وكل هذه المؤهلات تستجمع للأستاذ «أنيس منصور» وهو يضرب بعصاه الأرض، ويشع نظراته هنا وهناك، فتخترق الزوايا والخبايا . . .

وفى هذا الكتاب تتجلى روح الظرف والمنادمة، وفيه أوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات فى أسلوب كثير التوابل.

ولى مع ذلك الكتاب قصة:

اشتريته، واستعظمت حجمه، فتهيبت أن أشرع فى قراءته، كما استعظمت من قبل «الإلياذة» و «الأوديسة»، متهيبا أن أمضى فى قراءتهما بادئ ذى بدء. وتركت

كتاب «أنيس منصور» على مكتبى أخالسه النظر بين يوم ويوم، لا أمد إليه يدا . . رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام، وأكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير . . .

وساعة وجدتنى أتملى بعض صحائفه، والنظر فيما حوت من صور، وبغتة ألفيتنى كأنما تهبط بى طائرة حوامة «هيلوكبتر» فى قلب «هونج كونج» . . .

وسرعان ما طوتنى زحمة الناس فى أسواقها وطرقاتها، أتطلع إلى مبانيها الشواهق وأجوب دروبها الملأى بغرائب السلع، ثم أعطف على نواديها الليلية ذات الطابع البراق . . ووقعت عينى على هذه الفقرة :

«الصينى رجل متفوق فى عمله، يفكر بيديه، ويتفلسف بمعدته، لذلك الأدب هزيل عنده . . والموسيقى تدل على براعة الصينيين فى شىء واحد، هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفيران فى آلاتهم الموسيقية؛ فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة، ضد عرسة كاسرة . . أما القيثارة فهى تشبه أفعى قد تكومت على صدر أحد الحواة تنتظر عصفورا أطلقه أحد المتفرجين . . . أما بقية الأصوات الموسيقية فهى تشبه ضرب الحلل بالملاعق . . ثم ضرب المستمعين بالجزم . . ».

ومضيت أقرأ . . . واندمجت فى القراءة . . . وكل جارحة فى جسدى تبتسم !

وأقبلت على «اليابان» . . . وأنست ببنات «الجيشا» . . . وهبطت «أمريكا» وزرت «هوليوود» . . . وتركت مدينة السينما والهوى والشباب . . . ونسيت نفسى، حتى أيقظتنى الصفحة الأخيرة من الكتاب، فإذا بى لم أقرأ إلا شطر الكتاب الثانى، فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة، لأستكمل قراءة الرحلة.

ولقد أعادت رحلة «أنيس منصور» إلى ذاكرتى كتاب «جول فرن» المسمى : «الطواف حول الأرض فى ثمانين يوما» . . والشىء الباعث على الحيرة هنا هو : كيف استطاع «جول فرن» إتمام طوافه فى هذه المدة القصيرة، وهو يتخذ وسائل المواصلات القديمة، من بواخر بدائية، إلى فيلة بطيئة الخطا، إلى نعال غليظة تعوق السير ـ على حين استنفدت رحلة «أنيس منصور» أكثر من ضعف هذه المدة، وهو

الذى كان لا يترك فى تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى؟ . . . إن هذا حقا لغز ، وما أحسب أن حله بالأمر اليسير !

ليس كتاب «أنيس منصور» المحتوى على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة ، سواء أكانت فى آفاق الأرض المحدودة ، أم كانت فى العوالم الفكرية التى ليس لها من حدود . . .

غريب فى بلاد غريبة (*)

فى نهاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهرزاد إلى الملك شهريار عن رجل شيال اسمه السندباد الشيال . . وأنه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل إلى أى مكان . .

وانتقل من بيته إلى بيت آخر لا يبعد كثيرا عنه . .

ووضع الشيلة التى يحملها على كتفه فوق مصطبة . . ثم جلس . . وأحس أن نسيما عليلا وشذى جميلا يخرج من فتحة الباب . .

فاتجه إلى الباب بأنفه وشعر بالسعادة . .

وأدرك شهرزاد الصباح !

وشهرزاد لم تكمل القصة لأنها ـ كعادتها ـ تريد أن يظل شهريار ملهوفا على القصة الجديدة . . وبذلك يطيل عمرها ليلة بعد ليلة . .

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر . .

فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر . .

وهذا يكفى مكافأة له على أنه انتقل من مكان إلى مكان . . أو فكر فى أن يترك الأرض التى ضاق بها . . أو البيت الذى مل الإقامة فيه . .

(*) مقدمة كتابى : «غريب فى بلاد غريبة» وهو يضم أربعة كتب هى : بلاد الله خلق الله ـ أطيب تحياتى من موسكو ـ اليمن ذلك المجهول ـ أيام فى الجزائر البيضاء .

إننى أرى أن هذه الليلة التى لم تكملها شهرزاد قد كملت . . فالرجل انتقل . . وجلس وشم الهواء والرائحة . . وهذا يكفى. وفى كل مرة ينتقل سندباد من مكان إلى مكان يلقى المكافأة السخية على ذلك . . مهما كانت مخيفة أو متعبة فهى لذيذة . . ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم أنه ممثل فى قصة . . أو بطل مسرحية . . كل ما يعمله هو تمثيل فى تمثيل . . هو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقى بكل ما هو جديد . . محروم من الخوف الحقيقى . . والعذاب الحى . . وهو يرى أن كل جديد بلاء . . وأن كل مغامرة كارثة . . وعلى الرغم من أنه «يمثل» فى ألف ليلة وليلة ، فإنه يريد أن يفرغ منها . . تماما كما لو كان مغامرا حقيقيا تعذب كثيرا وينشد الراحة بعد ذلك !

إننى لا أحسد سندباد . .

فهو لم يستمتع بالتجربة الأولى . . والمفاجأة الأولى . . والفزع الذى لا قرار له . . والحيرة التى لا حدود لها . . ولا أحسده أيضا . . فقد تمنيت أن يطول كل شىء . . فلا شىء يخيف . . ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الكثيرة إلا التعب الذى جعلنى عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة . . ولو كانت لى قوة سندباد وعضلاته وشهيته المفتوحة إلى الطعام وقدرته الفذة على أن ينام فى أى مكان وفى أى وقت ـ لشربت مياه المحيط . . لكى أعبره بعد ذلك ماشيا على قدمى . . ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى من دولة إلى دولة . .

إنه لم يتعذب . . ولم يسعد بالراحة بعد العذاب . . إنه لم يعش ، وإنما كان يمثل دورا فى الحياة !

ولم يعجبنى من كل مذكرات «ماركو بولو» التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر إلا هذه العبارة . . «وعندما عاد أبى وعمى من الصين ، كانت أمى قد ماتت ، وكنت وحدى فى البيت وقد بلغت العشرين ، وسألنى أبى : هل تجىء معنا . . وكنت أنتظر هذا السؤال . . وقد أعددت له إجابة مركزة : نعم - وأشار أبى وعمى إلى أن أستعد . وكنت قد أعددت كل شىء ، وفى اليوم التالى اتجهت إلى الصين ، ولم أستطع أن أصارح أبى بأنى قد نسيت معظم ملابسى . . من شدة الفرحة . . فارتديت ملابس والدى وعمى . . وكنت

أرتدى ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به وأروى لنفسى مغامراتهما ؛ لقد عشت حياتهما دون أن يعرفا ذلك . . فلم تبق إلا ملابسهما أيضا . . وارتديتها . . »

وأنت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى أعجبتنى وأضحكتنى وهزتنى والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة ، فالذى أعجبنى من كل صفات ماركو بولو . . أنه نسى ملابسه . . ولم يحمل معه شيئا منها . .

فهذا بالضبط ما أفعله بحكم العادة . .

ولا أنسى يوم سافرت لأول مرة إلى إيطاليا . . ووقفت فى المطار أتحدث إلى أحد موظفى الجمرك وكان من تلامذتى فى الجامعة . . وطال الكلام وطال . . وسألنى واحد منهم :

وأين حقائبك؟

قلت : لماذا؟

قال : لكى نبعث بها إلى الطائرة؟

قلت : هذه؟

وصرخ الرجل : معقول هذا؟ !

قلت : فقط هذه الحقيبة . .

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه أن حقائبى لم تحضر بعد . . ولم تكن غير حقيبة واحدة بها قميص وبنطلون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب . . لكى أبقى شهرا فى إيطاليا !

ومرة أخرى لكى أؤكد لأصدقائى الذين أحسوا أننى سوف أسافر بعيدا ، حملت حقيبتى الصغيرة معى . . وسألونى : إذن أنت مسافر إلى الإسكندرية . .

قلت : نعم . .

قالوا : هذا واضح . .

وهم يقصدون أن الحقيبة صغيرة، وأن الملابس التى بها قليلة . . ولم أكن مسافرا إلى الإسكندرية وإنما كنت مسافرا إلى الهند ومنها إلى أستراليا . . إلى اليابان وأمريكا . . وأكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فأنا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفرى فيضطر إلى أن يرهق نفسه بتوديعى . . كما أننى أضيق بالوداع . . وأضيق بالاستقبال أيضا . . ولا أرى لذلك مبررا . . ولا أعرف ما الذى يقال أو ما الذى أقوله ذهابا وإيابا . .

أو كأننى لا أصدق أننى سوف أسافر . . فإذا لم أتمكن من السفر، فلا أحد قد عرف ذلك . . مع أنه لم يحدث مرة واحدة أن اعتزمت السفر ولم أسافر . . ولكنه خوف قديم ثابت ليس له ما يبرره غير أن له تاريخا فى طفولتى . . ولم أفلح فى التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد . . ولا أظننى قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتى فى مطار فرانكفورت . .

ولا أعرف كيف ضاعت . . وأعتقد أننى نسيتها فى الطائرة . . فقد كانت حقيبة يد صغيرة . . وكان لابد أن أتخلف ليلة فى ألمانيا قبل سفرى إلى السويد . . وفى هذه الحقيبة كل ملابسى الضرورية . . وهى قليلة جدا.

وذهبت إلى مكتب شركة الطيران، ووعدنى الموظفون بالعثور على الشنطة فى أسرع وقت، وأرسلوا برقيات وانتظروا . .

وسألوا عن احتياجاتى الضرورية . . وعن محتويات الشنطة بالضبط . . وقلت ـ وأنا كاذب مع الأسف ـ: بيجاما صوف وملابس داخلية . . ومناديل وجوارب وفوط وصابون وأمواس حلاقة وعطر ومعجون أسنان . .

وبسرعة فوجئت بكل هذه الأشياء فى غرفتى فى الفندق ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتى الضائعة.

وشعرت بالخجل مرة أخرى لأننى تصورت ما الذى سوف يحدث عندما يجدون شنطتى الصغيرة وليس بها سوى بيجاما واحدة . . وقطعة واحدة من كل شىء، وتمنيت ألا يعثروا عليها أبدا . .

وسافرت وعدت . . وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشنطة الملعونة فى انتظارى . . وأنا عندما كذبت كنت أتستر على فضيحة أخرى هى أن ملابسى قليلة لا تذكر !

هكذا . . أنا إذا سافرت لا أحتاج إلى أى وقت . . ولا لأى استعداد نفسى . . فى أية لحظة أستطيع أن أزرر الجاكيتة . . وأقفل باب المكتب وأنطلق إلى المطار . . أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج . . أو يمكن غسلها فى الفندق . . وكل شىء بعد ذلك يهون . . فالمهم ـ دائما ـ هو السفر . . هو الخروج . .

وليس السفر تغييرا لمكان المشى أو النوم أو الأكل . . وإنما هو تغيير للموقف . . تغيير للسمع . . جلاء للبصر . . تجديد للرؤية . .

وعندما سافرت إلى أوروبا لأول مرة لم يتسع وقتى لكى أخبر أحدا من الناس . . فقد علمت بالسفر فى الصباح . . وفى المساء كنت فى المطار . . فى الجو . . فوق البحر الأبيض المتوسط . ومن الطائرة رأيت مدينة الإسكندرية لأول مرة . . فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . .

وعندما سافرت إلى الكونغو قيل لى فى التليفون : تسافر؟

قلت : طبعا . .

ـ ودون أن تعرف إلى أين؟

ـ لا يهم . .

ـ إذن إلى الكونغو . .

ـ حالا . .

ـ اتجه إلى المطار . .

واتجهت إلى المطار وفى يدى صحيفة «الأخبار» وقد لففت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . . !

وليس يحدث هذا فقط إذا ما سافرت إلى الخارج وإنما إذا سافرت إلى الإسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة فى السفر . . فى الانطلاق . . الضيق

الوحيد الذى أشعر به هو ملابسى التى لا يمكن أن تفارقنى . . ثم هذه السيارة أو الطائرة التى ليست لها سرعة الضوء فى الانتقال من شاطئ النيل إلى شاطئ البحر !

وفى إحدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة . . ولما سألنى موظف الاستعلامات عن الشنط . . أدركت أننى نسيت الشنطة فى القاهرة . . أو نسيت أن أعدها . . فقلت له : حالا . .

ونزلت إلى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعت فيها ملابس اشتريتها وعدت إلى الفندق . .

ولم أكد أنهى دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لى أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه ! . .

وعرف موظف الاستعلامات أننى اشتريت الشنطة وما بها . . ومنذ لحظات . . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقى وراء هذا التصرف . . ولكن المعنى الحقيقى هو أننى إذا قررت السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسى . . روحى . . عقلى . . أما هذه الأشياء الأخرى فتجىء فى الدرجة الثانية ، وفى معظم الأحيان لا تجىء !

وأجمل وأصدق وصف لى هو ما قاله الأب الفيلسوف تايلار دى شاردان الذى كان أستاذا للعلوم فى القاهرة فى كتابه الذى سجل به رحلاته إلى بلاد الصين : «إننى أولد فى هذه الرحلات . . إننى أنظر وأنظر فى جشع وشراسة . . هذا هو طعامى . . ثم إننى إذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات . . ولكن من الضياء الذى يتدفق إلى أعماقى»؟

ويقول الأب دى شاردان : «إنها هذه النفس الغامضة . . إنها «أنا» . . هذه «الأنا» المغامرة . . الباحثة . . الأنا التى تريد أن تذهب إلى أبعد مكان فى الدنيا . . إلى أطراف كل شىء . . وكل إنسان . . وكل فكرة . . إنها هذه الأنا التى تريد أن ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . إننى أريد أن أعرف بصراحة وبإيجاز ما الذى يكمن فى أعماق هذا الإناء الإنسانى» . .

ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : إن الأرض كروية !

فهى تدور ونحن ندور . .

لا هى تهرب من تحت أقدامنا . . ولا نحن نهرب من فوقها . . وحتى عندما ننطلق بعيدا عنها فسنظل مشدودين إليها . . وعلى موعد معها . . لكى نسافر من جديد . . نسافر فى البر أو فى البحر أو فى الهواء . . بلا حقائب . . فالحقائب لا تهم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا أهم من الحقائب . . نحمل الشوق الذى لا يخمد إلى كل ما هو جديد: فى الأرض . . وفى الناس . . وفيما بين الناس . . فى كل أرض . . وبين أى ناس . . فالأرض لله . . والناس أيضا . . ولا فرق بين الناس هنا والناس فى أى مكان . . فكل الناس ينشدون راحة البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة ليهضموا الطعام . . ويعطيهم الطعام لتهضمه المعدة . . ويعطيهم الحرية ليفعلوا بما لديهم ما يريدون . . وأن يعطى الجميع سلاما فى النفس وفى الحب وسلاما بين النفوس والعقول . .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله . .

وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله !

أعجب الرحلات فى التاريخ (*)

هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

ـ أن تسافر . .

ـ وأن تقرأ الكتب . .

ـ وأن تقرأ كتب الرحلات !

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . . يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . . والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد، وبين أن تسافر لتعرف الناس.

والذى يسافر كثيرا يعرف الكثيرين، ولكنه يصادق القليلين . . والمثل الإغريقى يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب ـ أى عشب الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضرورى أن ينبت العشب على الحجر . . ليس ضروريا . . يكفى أن الحجر يتحرك ويتنقل، ويذهب هنا، ويصطدم هناك . . ولكنه يمضى ويسجل فى أعماقه هذه الفوارق العريضة العميقة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أى ما الذى فعلته الشعوب فى تاريخها . . وبتاريخها أيضا . .

المهم أن يتحرك . .

(*) مقدمة كتابى : « أعجب الرحلات فى التاريخ » .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى، هو فيلسوف، والذى يروح ويجىء ولا يقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى !

وفى الصفحات الأولى من ملحمة «الإلياذة» نجد الشاعر الأعمى هوميروس يتحدث عن البطل فيقول : إنما راح وصارع وتعذب وانتصر وسجل ما رأى ليعود ويقول للناس شيئا جديدا مثيرا ممتعا !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا، ولم يتغير منهم شىء . . وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شىء، ولم يتسلل إليها شىء . . والمثل القديم يقول : حمار سافر، فلن يعود حصانا !

وعندما شكا أحد تلامذة سقراط من أن السفر لم يفده ولم يغيره قال له سقراط : من الطبيعى ألا يفيدك السفر شيئا ، لأنك سافرت مع نفسك !

فالطبيعى جدا أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيدا عن بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه المجهول الذى يتحدانا ونتحداه . . إنها متعة المعرفة والخوف منها معا . . ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرهبة . . من الشجاعة والخوف . . ولكن الإنسان يفضل دائما أن يعرف المجهول مهما كان الثمن . . وكثيرا ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون أكثر . . ولابد أن تعاستهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا ما الذى رأوه . .

وكثيرون رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ هيرودوت جاء إلى مصر . . وعاد ورأى العجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى فى مهرجان الألعاب الأوليمبية . .

والإسكندر الأكبر جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الإلهات أن ينفرد بها . . وهمست فى أذنه بسر الكون . .

والقائد هانيبال أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطا إلى روما . . حتى يقضى على كل رومانى وحتى يمسك فى يديه مصير مدينة روما إلى الأبد .

والرحالة الإيطالى ماركو بولو . . أهانته فتاة يحبها ، فأقسم ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه عشرات الفتيات الجميلات . . ويرفضهن جميعا !

وعاد ولم يجد الفتيات . . ولم يحزن على ذلك . . فالذى رآه أروع . . وأصدق . .

وابن بطوطة هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها . . وعاد ليروى ما حدث له فى عشرين عاما من الذاكرة . .

والرحالة ابن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى قد تعب كثيرا من رحلاته فى الشرق الأوسط . . ولكنه فى النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله على ذلك . . وفى نهاية رحلته يقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

«والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى والاه ، فكانت مدة مقامنا من موعد خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا ، والحمد لله رب العالمين» .

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة . . ولو خيرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . فهم يريدون أن يستمروا . . أن يمضوا حتى نهاية الرحلة . . أو نهاية الحياة . .

وفى كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . وكيف حدث . . ولكنى قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية . .

فمثلا فى «رحلة كون تيكى» للرحالة النرويجى تورهايردال يقول : كان ذلك يوم ١٧ مايو . . إنه عيد الاستقلال . . ونحن فى عرض المحيط . . لا أعرف كيف حدث ما حدث . . كيف وجدت نفسى فى المحيط على زورق خشبى . . معى ببغاء وخمسة من البحارة . . ولما سألت واحدا منهم قائلا : كيف حدث ما حدث؟ كان رده : «لا أعرف ، إنها فكرتك المجنونة . . ولكنها رائعة» !

ولابد أن البحار هايردال قد اعتاد على هذا الجنون عندما عبر المحيط مرة أخرى بالزورق «رع» المصنوع من أعواد البردى . .

ويقال إن هيرودوت المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هربا من البوليس . . فقد اتهموه بالاشتراك في مؤامرة . . وقد حاول هيرودوت أن يجعل لرحلته إلى مصر معنى نفسيا أو فلسفيا . . مع أنه ليس إلا مجرما هاربا ، حاول أن يستفيد من منفاه !

ولابد أن صاحب هذا الرأى لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر والمعرفة . . فلابد أن يكون هناك سبب . . فالغرض من السفر هو أن يخفف الإنسان من عذابه . . أن يلقى بهمومه على الشواطىء الجديدة . . ويرميها على الوجوه الجديدة . .

هذا المعنى أيضا نجده فى الصفحة الأولى من «ألف ليلة وليلة» . . فهذه الليالى هى شكل أدبى لكى يروى لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر . . وعادات غريبة فى بلاد غريبة . . وليس صحيحا أن هذه الليالى كانت بسبب خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان . . فألف ليلة وليلة تبدأ بأن الملك شهريار قد اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان . . وطلب إليه أن يجىء لزيارته . . وأعد الملك الأصغر خيامه وخيوله . . وفى آخر لحظة تذكر شيئا - وكان لابد أن يتذكر هذا الشىء - وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعى خادم زنجى . . فقتل الاثنين . . وسافر حزينا إلى أخيه شهريار . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . وتصادف - ولابد أن يتصادف طبعا - أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج . . وتبادلوا عناقها جميعا . . وكانت صدمة ، وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبته هو أهون من مصيبة أخيه . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . وقرر أن يرى بعينيه . . وتوارى ورأى - مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والخيبة واليأس تنبع قصص «ألف ليلة وليلة» فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذه هى حال الدنيا . . أو حال دنياهما فقط . .

وتحت إحدى الأشجار وجد الأخوان فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر . . وإلا أيقظت العفريت . . واقتربا منها . . وعانقاها ، الواحد بعد الآخر . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتما . . قد أخذتها جميعا من أناس عانقوها الواحد

بعد الآخر، بينما كان العفريت نائما على ساقها . . وخلع كل منهما خاتمه . . وأعطاه للفتاة!

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين: إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذى تفعله المرأة مع أى إنسان؟

وعاد شهريار إلى بيته وقتل الزوجة وخدامها . . وراح كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها . . حتى جاءت شهرزاد تروى أكثر من مائتى قصة فى «ألف ليلة وليلة» وتروى له عجائب الدنيا لكى ينساها . . لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات . .

أما المعنى العام لهذه الليالى كلها فقد جاء فى صفحاتها الأولى هكذا:

لا تأمنن إلى النساء   ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن   معلق بصدورهن
يبدين ودا كاذبا   والغدر حشو ثيابهن
بحديث يوسف فاعتبر   متحذرا من كيدهن
أو ما ترى إبليس أ   خرج آدما من أجلهن؟!

والذى حدث للملكين ليس إلا «حيلة» أدبية لاستدراج القارئ . . وبعد ذلك تتحول الليالى إلى مغامرات فى البر وفى البحر وبين الناس . . وفيها شعر وخيال، وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية!

وكثير من النوادر العجيبة التى دخلت فى عالم الخيال، قد أعاد روايتها «ابن بطوطة» فى رحلته . . فهو يحدثنا عن الأحجار التى سقطت من السماء . . وعن النساء اللائى لهن ثدى واحد . . وعن العفاريت التى تحكم جزر المالديف فى المحيط الهندى . .

وكل صاحب رحلة يروى ما شاهد على طريقته وبأسلوبه . . ولكن من الضرورى أن يكون صادقا، وأن يضع الصدق فى براويز فنية . . والذى يقرأ «رحلات جيلفر» للكاتب الساخر الكبير سويفت يجد هذه العبارة فى نهاية الكتاب: «لو كان الأمر بيدى لأصدرت قانونا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شيء إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع»!

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت فى نهاية رحلات لا أساس لها من الواقع ، وإنما هى خيال الأديب الكبير الساخر ، ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لا يصدقون ما يقوله الرحالة المغامرون . . ولا يحبون شاعرية المسافر الذى بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة ، وإنما أن يعود إلى بلده ليقول . . لعل أحدا ينتفع بما قرأ.

وكثير من الناس لم يروا بلادهم وإنما فتحوا أعينهم وقلوبهم على الخارج وأقفلوها على أنفسهم . . وكان القديس أوغسطين ينصح تلامذته بقوله : بل اجلسوا . . اجلسوا . . وما هذه الأنهار والجبال والوديان والنجوم والفتيات . . بلادكم أولى بكم . . بل نفوسكم أعمق . . فانظروا فيها . .

وهو يدعو تلامذته إلى أن يتأملوا الإنسان نفسه . . ففى النفس أعماق وألغاز ، أصعب مما فى هذا الكون كله . ولابد أن يستعين الإنسان بغيره على أن يفهم نفسه . . يستعين بالكتب . . أى بمؤلفى هذه الكتب . . ولذلك فقراءةُ الكتب رحلاتٌ أخرى فى عقول الآخرين . . ووسيلة إلى الرحلات فى أعماقنا .

أما كتب الرحلات فهى أعماق الآخرين . . وأعماقنا نحن أيضا . . وأعماق هذه الدنيا . . ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى نقوم بها فى رحلات الآخرين . . نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ، نرتمى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معا . . وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة . . أن نفعل مثلهم . . نسافر مثلهم . . ونكتب مثلهم . . وننفع بلادنا فى النهاية . .

ولا خوف إذا سافرنا . . ولا خوف إذا قصرت رحلاتنا . . ولا ضرر إذا لم ننجح كما نريد . . وإنما المهم أن نروح ونجىء . . أن نرى ونروى . . أن نعيش ونثبر . . أن ننتفع وننفع . .

ولا أزال أذكر ما قاله الحريرى فى كتاب «المقامات» :

نقل ركابك عن ربع ظمئت به ... إلى الجناب الذى يهوى به المطر

فإن رددت فما فى الرد منقصة ... عليك ، قد رد موسى قبل والخضر

ونحن في عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى . . وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية . . فأمريكا وروسيا لا تسمحان إلا بالقيل من المعلومات . . وحتى لو سمحت الدولتان، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ولذلك لا يعرفون كيف يصفون . . حتى الجملة الوحيدة التي قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض . . فلما رددها أخطأ في النحو !

ولكن المسافر، يجب أن يكون قادرا على الاحتمال، وقادرا على الملاحظة، وقادرا على أن يروى بعد ذلك، وأن يكون ممتعا . . وهناك عشرات سافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجديدة . . وأساءوا فهم ما رأوا . . وبرعوا في فهم ما رأوا . . ولكنهم دائما يستحقون الإعجاب، ويستحقون أن نلتفت إليهم وأن نتعلم منهم . . وأن نلاحقهم جريا وراءهم بأقدامنا وعقولنا وخيالنا . .

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صيادا يرحل من مكان إلى مكان، ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : بأن يسافر في بلاده ليعرفها . . وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره . . وليضيف إلى تاريخ بلاده . . تجارب الآخرين . . فليس أروع من السفر . . وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرون على ذلك . .

وفي جزيرة مدغشقر يوجد نوع من أشجار الموز . . الشجرة مرتفعة جدا ولها أوراق ملتوية كأنها ذراعان تحتضنان شيئا . . أما هذه الأوراق فتهبط عليها الأمطار، وتنزل الأمطار إلى حوض في نهاية الأوراق، ويظل المطر في هذا الحوض ترتوى منه الشجرة في وقت الجفاف . وقد سميت هذه الشجرة باسم «شجرة المسافرين» لأنها مثل المسافرين تدخر الماء لوقت الحاجة . . ولأن الكثيرين من المسافرين الذين لا يجدون الماء يبحثون عنه في هذه الشجرة . . يرتوون ثم يتمددون تحتها وينامون . .

وهناك أسطورة تقول إنه إذا نام تحت الشجرة مسافر واحد، فإن نوعا من الطيور يقف على هذه الشجرة . . وهذا الطير لا يقف على الشجرة إلا إذا كان النائم من بلاد غريبة . .

فما أكثر الطيور على أشجار المسافرين في كل مكان !

أنت فى اليابان (*)

قالت لى المرشدة السياحية : هل ترى هذه البقرة؟ ونظرت . ثم اعتذرت بأننى لم أفهم ، فبدلا من أن أنظر وراءها نظرت إليها هى ، فهى قصيرة القامة بيضاء ممتلئة ، كأنها بقرة هولندية ، ووجهها مستدير وخداها كرتان من اللحم الأبيض . . ورأسها بطيخة نبت فيها شعر أسود فاحم . . ووراءها وجدت بقرة ضخمة أمام نافورة وسط حديقة جميلة ، والأطفال الصغار زهور متحركة . . أو ابتسامات متناثرة . . ولهم أصوات الطيور . . ولو كانوا من المصريين لكان لهم دوى ، ولكانت لهم مخلفات على الأرض ، ولنزل بعضهم إلى النافورة وغرق . . ولجاء البوليس ودخل فى معركة مع الأمهات ، وانتهى مثل هذا الموقف بأن سمعنا من يقول : وهذه النافورة ما ضرورتها؟ . . إنها ضرورية فى البلاد التى لا يجدون فيها الماء ، ولذلك فهم يحبون أن يتفرجوا عليه . . ونحن بفضل الله عندنا النيل والبحيرات والبحر الأبيض والأحمر . . والمياه الإرتوازية والسد العالى وعيون موسى وعيون الصيرة؟!

أما البقرة فقد تكاملت صحة وعافية وجمالا وقوة ، ولكن أحدا لا ينظر إليها .

قالت المرشدة السياحية فى سنة ١٨٥٠ ذبح اليابانيون أول بقرة ، حفاوة بالقنصل الأمريكى !

فلم يكن من عادات الشعب اليابانى أن يأكل اللحوم ، إنهم يأكلون الأسماك والأرز وبقية النباتات الموجودة فى الحقول ـ تماما كأهل الصين . . ولذلك فقد أقام اتحاد الجزارين فى اليابان تمثالا للبقرة . . أى أول ذبيحة فى اليابان !

(*) مقدمة كتابى : « أنت فى اليابان» .

ولم يعرف اليابانيون أكل اللحوم، وعادات أخرى كثيرة، إلا بعد اختلاطهم بالشعوب الأخرى . . .

واليابان جزر صغيرة ضيقة معزولة عن الدنيا. فلأنها صغيرة، فأهلها لا يتركونها ولأنها منعزلة، فأهلها انطوائيون، ثم إنهم يكرهون الأجانب، ولأنها ضيقة والشعب كثير (١٥٠ مليونا) فهم يستخدمون كل شبر من هذه الأرض، مرة بالعرض ومرة بالطول، ولو شاءوا لعاشوا تحت الأرض وتحت الماء وليس ذلك بعيدا، ثم إن ثرواتهم محدودة، ومواردهم الطبيعية قليلة، ولذلك يحسنون استخدام ما لديهم. ثم إنهم يستوردون كل الذى ينقصهم من الخارج: الحديد والنحاس والفحم والبترول والخردة ومخلفات الورق والأعشاب البحرية . .

وإذا نحن قارنا بين أمريكا واليابان كانت الصورة أوضح: فأمريكا واسعة ولا حدود لمواردها . . واليابان ضيقة محدودة الموارد . . والياباني ينفق معظم دخله على الطعام، والأمريكى ينفقه على المسكن . . والأمريكى ليس قلقا إلا على يوم واحد من أيام الأسبوع، إجازته أين تكون ومع من وفى أية سيارة أو طيارة . .

والياباني قلق على كل يوم من أيام حياته، ويرى أن الإجازة مشكلة . . محنة . . مصيبة، ولذلك فأفضل له وأرخص أن يقضيها فى البيت أو أمامه، أو فى أقرب حديقة . .

واليابان استوردت أهم ما لديها:

اللغة: من أصل صينى والحروف وطريقة الكتابة . . والديانة: بوذية هندية . .

والشاى: صينى ولكن فى اليابان أضافوا للشاى شيئا جديدا: طقوس تقديم الشاى والأكواب والملاعق والمصابيح وبنات الجيشا والموسيقى، فالشاى جاءهم من الصين، ولكن «الجو» الجميل أبدعه اليابانيون، فلم يعد الشاى شرابا، وإنما واحدا من آداب الجلوس والحديث والضيافة . . . ومناسبة لصناعة الديكور والهندسة المعمارية . .

والصين هى التى اخترعت المصابيح المصنوعة من الورق، ولكن اليابانيين أضافوا إليها شيئا جديدا، فقد جعلوا هذه المصابيح «مطوية» توفيرا للمكان . . وما

فعله اليابانيون فى «صناعة» الشاى و«آداب» الشاى، و«جو» الشاى، نموذج لما فعلوه فى كل شىء آخر . .

فهم أخذوا كل ما لديهم عن الشعوب الأخرى ثم طوروه . .

وهم يفعلون ذلك من مئات السنين، ولكن هذا «التطوير» و«التحوير» و«التعديل» و«التكييف» قد ظهر واضحا بعد الحرب العالمية الأولى . . وبلغوا القمة بعد الحرب العالمية الثانية، حتى أصبحت اليابان خطرا على الدول التى أخذت منها . .

وقد وجد اليابانيون أنه أفضل لهم وأيسر أن يطوروا كل شىء، من أن يبتدعوا شيئا جديدا، وقد تفوقوا فى ذلك، حتى لم يعد أحد قادرا على أن يجاريهم فى أى مجال . .

إن اليابانيين لا يطيقون العذاب الذى عاناه البطل الأسطورى برومثيوس . . فهذا البطل عاقبه آلهة الإغريقيين بأن شدوه إلى صخرة وجعلوا نسرا يأكل قلبه . . وكلما أكله، عاد القلب سليما من جديد، لينهشه النسر، وهكذا إلى الأبد . . فقد كانت جريمة برومثيوس أنه سرق النار من موكب الشمس، ثم أعطى النار للإنسان . . ومع النار طالت ليالى الإنسان، واستطاع أن يلين الحديد ويصنع السلاح . . ومن النار والاحتراق تولدت الحضارة الإنسانية، فتمرد الإنسان على الآلهة . . ولذلك كان لابد من عقاب برومثيوس . .

واليابانيون لا يطيقون عذاب الإبداع المستمر . . ولذلك فهم يبدءون حيث انتهى غيرهم ...

فكان اليابانيون عباقرة فى التطوير والتحوير . .

وكل ما هو عملى وكل ما هو مفيد، هو المثل الأعلى للصناعة اليابانية . .

فليس فى اليابان رسام أو نحات عظيم، لا أحد يهتم باللوحات والتماثيل والمتاحف، إنهم فقط يهتمون بالهندسة المعمارية والديكور . .

ويهتمون أيضا بتصميم الأزياء. فإذا كان في العالم عشرة مصممين للأزياء فثلاثة منهم يابانيون، ولذلك أثرهم واضح تماما في اختيار خطوط الموضة وألوانها. . وقد دخلوا عالم التجميل أخيرا، ولكن بقوة تخيف كل شركات الماكياج في فرنسا . . .

* * *

وهناك وجه آخر لليابان . . ففي سنة ١٩٨٢ أصدر رئيس الوزراء تقريرا عن حالة الشباب جاء فيه : ليس لديهم شعور بالمسئولية، لا صبر لهم على حالة واحدة، إنهم متواكلون ومشغولون بأنفسهم تماما !

أما علماء النفس فيفسرون ذلك بأنه إذا كان الأوروبيون يعانون من عقدة الفتى «أوديب» الذى تزوج أمه ثم قتل أباه ولذلك فهو شديد الندم . . أو عقدة «إلكترا» الفتاة الأسطورية التي أحبت أباها وكرهت أمها . . فإن الياباني يعاني من عقدة أخرى اسمها «عقدة أجازى» - أي الفتى الصغير الذي أحب أمه ثم غار من أبيه ففكر أن يقتل أباه . . ولكن أمه أدركته قبل أن ينفذ هذه الجريمة . . وعطفت عليه وازدادت حبا له . .

والمعنى أن الطفل الياباني قد دللته أمه . . وأنه يحب أن يبقى كذلك . . ولكن بسرعة يدخلونه المدرسة، وفي المدرسة يدفعونه بالقوة إلى أن يكون رجلا وأن يعتمد على نفسه تماما. وهكذا نجد أن اليابان التي تنتج أجمل وأروع لعب الأطفال، تصدر هذه اللعب إلى الخارج، فأطفالهم ليس لديهم وقت لكي يلعبوا.

فالأطفال يؤجلون اللعب والعنف والتمرد إلى مرحلة الشباب . .

ولذلك فالعنف وإدمان الخمور والمخدرات والإسراف في الجنس، كل ذلك في مرحلة الشباب . .

والمجتمع الياباني ينظر إلى الجنس على أنه كالطعام والشراب . . والإنسان حر يفعل ما يشاء مع من يشاء ولا أحد ينظر إلى الجنس نظرة أخلاقية أو دينية، فمعروف أن للرجال عشيقات، والزوجات يعرفن ذلك.

وفي اليابان بنوك للجنس يدفع أي إنسان ألف جنيه سنويا . . ويوفر له البنك

عشيقة تتردد عليه بانتظام، قد تكون العشيقة زميلة فى العمل أو طالبة فى الجامعة . .

والفتاة لا تطلع أحدا من أهلها على سرها، ولا تراه ضروريا .

قابلت فى حديقة الفندق فتاة جميلة بكل مقاييس الجمال وجدتها تبتسم وكان ابتسامها عاما لكل الناس، أو لكل الزهور، أو هو مظهر من مظاهر سعادتها الشخصية . وقلت تتكلمين الإنجليزية طبعا؟

قالت : ولماذا طبعا .

قلت : حرام ألا يسألك الناس بأية لغة أخرى عن مصدر جمالك : أبوك . . أمك . . السماء والأرض . . من هو أبوك ومن هى أمك؟

قالت : إن لغتى الإنجليزية لا تسعفنى أن أرد عليك .

قلت : مثلك لا يرد . . ولا يقول . . فالذى تقولينه بجمالك لا يحتاج إلى لغة . . بل إن أية لغة هى ترجمة . . وأية ترجمة خيانة للأصل الذى هو عيناك وشفتاك وخداك وكتفاك وذراعاك وساقاك . .

وعندما تزحلقت عيناى على ساقيها، سحبت ثوبها إلى الوراء ليظهرا أكثر وأستحى أنا فأتراجع . . ولكنى مضيت أقول : وقدماك الصغيرتان وأصابعك . . وشفتاك .

قالت : مرة أخرى .

قلت : مرة أخرى ماذا؟

قال : تتحدث عن شفتى؟

قلت : آه . . إن كل واحدة منهما شفتان جميلتان . . حتى صوتك ليس يابانيا . . إنه صوت الأنوثة كلها فى قارة آسيا . .

وفجأة انقطع الاتصال الكهربى بينها وبينى عندما ظهر شابان . . واحد جلس إلى يمينها والآخر إلى شمالها . .

فأفقت من غيبوبة الجمال الإنسانى والطبيعى حولنا وقلت : أخواك؟

قالت : هذا أخى . وهذا صديقى .

قلت : خطيبك .

قالت : لا . . لا . . ليس الآن . . إنه صديقى . .

ونظرت إلى يدى أخيها . . وتمنيت أن يقوم ويصفع خطيبها قلمين ويصفعها هى أيضا . . ثم استدركت فيما بينى وبين نفسى قائلا : يكفى أن يصفع أخاها . . ثم عدت أقول لنفسى : وما ذنبه أن أخته حرة . . إذن فليصفع صديقها . . ولم أقل لنفسى إنها حرة تختار من تحب . . ثم ما دخلى أنا . . ولكنه حقدى عليه . . نعم حقدى عليه؟

وفى اليوم التالى وجدتها فى المكان نفسه ولم أتوهم أنها جاءت من أجلى ، وإنما وجدت معها رجلا يكبرها بعشرين عاما . وقلت : والدك؟

قالت : هذا هو صديقى . . لم أعرفه إلا أمس . . من المفروض أن ألتقى به مرة كل أسبوع . .

«من المفروض» . . ومن الذى فرض عليك . . وتذكرت أنه لابد أن اشترك فى بنك الجنس !

هل كان نهوضى بعد ذلك مظهرا من مظاهر الاحتجاج والقرف والغيظ؟ كان كل ذلك ، ولم أفلح فى أن أبدد أثر هذا الضيق طوال اليوم . . ولكنها اليابان !

* * *

إنها البلاد التى تقدمت على الدنيا كلها فى ثلاث خطوات : التطوير ، والتصغير . . والإتقان . .

فاليابان حقيقة لكل عين وكل عقل وكل قلب . . متعة للسائح والباحث والتلميذ . . ثم إنهم مشغولون تماما عن كل الذى يقوله الناس عنهم . . إنهم لا ينظرون وراءهم ، إنهم يلقون بأنفسهم على المستقبل بقوة وجمال وحساب وبمنتهى الدقة .

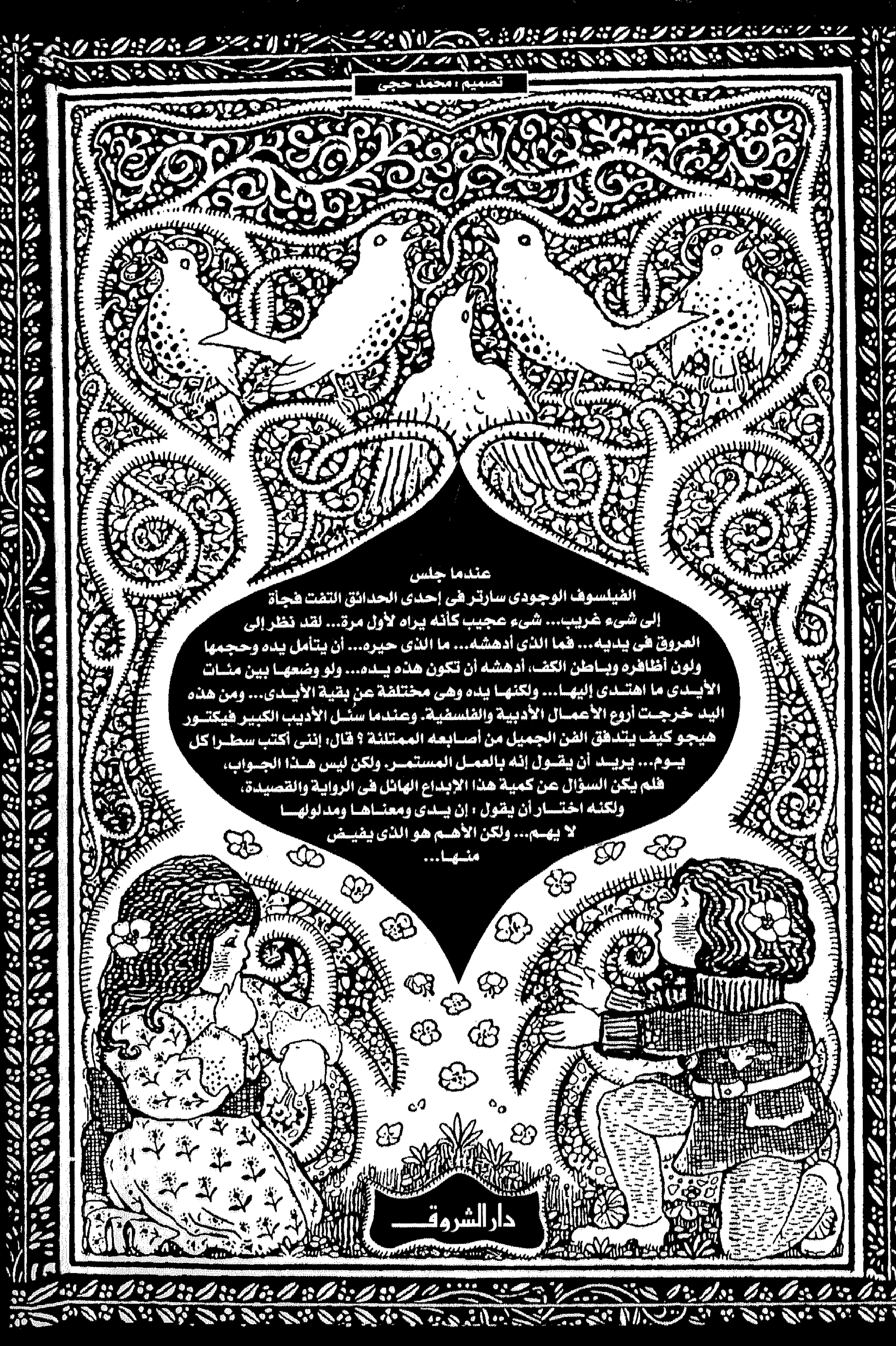
المحتويات

رقم الإيداع ٩٩/٢٩٥٨

الترقيم الدولى 7 - 0526 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)


تصميم : محمد حجى
عندما جلس
الفيلسوف الوجودى سارتر فى إحدى الحدائق التفت فجأة
إلى شىء غريب... شىء عجيب كأنه يراه لأول مرة... لقد نظر إلى
العروق فى يديه... فما الذى أدهشه... ما الذى حيره... أن يتأمل يده وحجمها
ولون أظافره وباطن الكف، أدهشه أن تكون هذه يده... ولو وضعها بين مئات
الأيدى ما اهتدى إليها... ولكنها يده وهى مختلفة عن بقية الأيدى... ومن هذه
اليد خرجت أروع الأعمال الأدبية والفلسفية. وعندما سُئل الأديب الكبير فيكتور
هيجو كيف يتدفق الفن الجميل من أصابعه الممتلئة ؟ قال: إننى أكتب سطرا كل
يوم... يريد أن يقول إنه بالعمل المستمر. ولكن ليس هذا الجواب،
فلم يكن السؤال عن كمية هذا الإبداع الهائل فى الرواية والقصيدة،
ولكنه اختار أن يقول : إن يدى ومعناها ومدلولها
لا يهم... ولكن الأهم هو الذى يفيض
منها...
دار الشروق